اقرأ

اعترافات عاشق

عبد الله الكبير

عبد الله الكبير

اعترافات عاشق

اقرأ ٤٠٤

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٤)

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. م. ع.

الإهداء

إلى نونو

منذ سنين بعيدة أهديتُ إليكِ "دموع القلب" ..
كتابي الذي كان من سَنا عَيْنَيْكِ ، ووَحْيِ حبّك . فسخرتِ من دموعي ومزّقتِ قلبي وتركتني تائهًا ضائعًا ..

واليوم أهدي إليكِ هذه "الاعترافات" لتعرفي إلى أيّ مَنْهَوًى سحيقٍ رميتِ بي .

مقدمة

لا يأخذ الأدب الصحيح سمته الأصيل ، ويضع بطاقته على واجهة الحياة ، إلا حين يقتلع أقدامه متحرراً من قيود المذهب الاتباعى إلى المذهب الابتداعى ، وإلا حين يذوب المجتمع فى تضاعيفه ، ولا يذوب هو فى تضاعيف المجتمع . . . ولسنا بحاجة إلى أن نذكر أن أدبنا المعاصر قد أخذت تتجلى فى آفاقه مختلف المذاهب الأدبية الأصيلة ، كالإبداعية والرمزية والإمتاعية والواقعية ؛ وأن سمات التحليل والنفاذ إلى الأعماق ، وإيثار بساطة الحقيقة ، قد أضفت عليه طابعها ، فبدأ يسامت آداب الأمم الكبرى . . .

وبين يدى الآن نبعة من أدبنا الحديث المتحرر ؛ لم أكن أدرى — وأنا أتابع قراءتها مشغوفاً بها — أبإزاء أقصوصات قصار أنا ؟ أم بإزاء حياة أديب عبر عن انفعالاته أصدق تعبير وأرقاه ؟ !

كان صديقى العزيز « عبد الرحمن » فى مطلع حياته مثلا للشاب التقىّ النقىّ ؛ ثم جرفه تيار الحب والخطيئة ، فصار — كما وصف نفسه — « شيطاناً عابثاً لاهياً ، وحيواناً يأكل ويبحث عن أنثاه» ! . . ثم تاب توبة صادقة ، وختم حياته العريضة ختاماً أرجو — كما رجا هو — أن يكون تكفيراً عما اجترحه ؛ فقد تحمل من الآلام النفسية والجسدية ما يطهره وينقيه من الخبث نقاء الذهب صهرته النيران !

وقد عرض علىّ الفقيد الحبيب « عبد الرحمن » أمانة نشر قصته ، وكتابة مقدمتها وخاتمتها ، فأبيت أن أحملها ، وأشفقت منها ؛ لكنه ألح

عليّ وألحف ، حتى لم أجد بدًّا من أن أعاهده — وهو فى طريقه إلى ربه — أن أؤدى الأمانة وأنفذ الوصية . . .

وسلمنى الراحل العزيز ، المقيم فى قلوب أحبابه ، مذكراته الطويلة بأحداثها كما وقعت ؛ وقد بسط فيها كل ما جرى بينه وبين النساء من خير وشر ، وذكر أسماء عشيقاته الحقيقية ؛ وطلب منى أن أحلل قصته فى هذه المقدمة ، وأن أغير الأسماء ، وأن أحذف ما لا يليق نشره . . .

أما التحليل فقد رأيتنى عاجزاً عنه ، فتركت القارئ يكشف وحده ما أراده « عبد الرحمن » ، الذى رأى شباب اليوم فى عمى ، فلم يرد أن يتركهم فى عماهم ، بل أحب أن يكشف الحجب عن عيونهم ، وأن يبين لهم أنه « لا خير فى لذة تعقب ندماً » ! . . .

وأما أسماء العشيقات فقد استبدلت بها غيرها ، ووضعت مكانها أسماء ربما لم يلتق « العاشق » بواحد منها . . .

وأما حذف ما لا يليق نشره فقد اضطررت — كارهاً — إلى حذف أكثر من نصف ما كتب ، لأنه — كما يقال — « أدب مكشوف وجنس مفضوح » !

وأقول إنى اضطررت — كارهاً — إلى حذف ما حذفت ؛ لأنه قد عزّ عليّ أن أحرم القارئ شيئاً من التحليل النفسى العميق ، والأسلوب الراقى الأنيق ، الذى لا يزال همس موسيقاه عالقاً بأذنى ، وكأن أنفاس هؤلاء العشيقات الجميلات قد تكاثفت فانعقدت ألفاظاً وعبارات ، يعجزك أن تستبدل بلفظة منها لفظة أخرى ، فتغنى غناءها ، أو توازنها دقة ورشاقة ؛ فاتسق توفيق « العاشق » فى المبنى مع توفيقه فى المعنى ، فأثار بهما كليهما الإعجاب !

أمامك نماذج شتى من العذارى والنساء ، قد اختلفن جنساً وديناً ووطناً وثقافة وطبقة ، وتعرّضن جميعاً مع « العاشق » لتجربة واحدة ؛

لكن لم تتداخل إحداهن فى أخرى ، ولم تتكرر حياة فتاة أو خوالجها ، فى أملها ويأسها ، ورضاها وسخطها ، بتكرر غريمتها ؛ ولم يشذ سلوك فتاة ما فى موقف من المواقف إلا فيما تدعو إليه النوازع والأحاسيس من تفاوت وشذوذ ؛ و « عبد الرحمن » هو هو — فى هذه المواقف المتباينة — إنسان قد استجاب لمقتضيات نفسه التى ركبت بين جنبيه ، بكل ما تنطوى عليه من غرائب ومتناقضات !

لقد بكيتك كثيراً يا « عبد الرحمن » حين فقدتك ؛ وبكيتك كثيراً أيضاً وأنا أقرأ حياتك ، وأطالع حديثك عن حساب الضمير والنفس اللوّامة ، وعن تنقلك فى البيت الكبير بعد أن فقد ربّته وروح حركته الدائمة ؛ وبكيتك حينما رأيتك تعانى أعنف الآلام وأقساها ؛ كما بكيت وأنا أقرأ قولك : « ما أعذب هذا الألم العظيم ! . . إنى لأرجو أن يكون تكفيراً عما اقترفت ، وسبيلا إلى عفو الله وغفرانه » .

ولعلى بهذا الكتاب الصغير الحجم ، الكبير المعنى ، أكون قد نفذت الوصية وأديت الأمانة .

رحمك الله ، أيها الراحل العزيز « عبد الرحمن » ، رحمة واسعة ، وغفر لنا ولك ، فهو غافر الذنب وقابل التوب .

عبد الله الكبير

١

الكون ناعس ، والسكون يخيم على كل ما حولى . . . يا له من سكون رهيب !

ابنى وزوجتى فى الحجرة التى عن يمينى ، وطفلتى و « دادتها » فى الحجرة التى عن شمالى ؛ وكلهم قد راحوا فى سبات عميق ، تداعبهم الأحلام الجميلة ؛ وأنا وحيد فى هذه الشرفة العالية ، أترجح بالكرسى الطويل إلى الأمام وإلى الخلف ؛ فتهتز فى بصرى الأنوار المنعكسة على صفحة النيل ، كأنها جنيات البحر ترقص وتتمايل .

هذه القاهرة العظيمة ، ذات الحركة التى لا تسكن ، وربة الضوضاء التى لا تهدأ ، قد لفها الليل الساجى فى غلالة من الصمت العريض ، وكأن ليس فى أحشائها من لم يأخذ الكرى بمعاقد أجفانه . .

لا ، لا . . لم تبلغ القاهرة بعد هذا الحد من طهارة النفس ، ونقاء الضمير ، حتى يأوى أهلها جميعاً إلى مراقدهم . .

اسمع . . ها هى ذى ساعة الجامعة تشق السكون معلنة الثالثة صباحاً . .

انظر . . ها هم أولاء أفاعى الليل وذؤبانه يؤكدون بسهرهم أن الفضيلة إن نامت فالرذيلة لا تنام !

هذه سيارة تمرق فى « كورنيش النيل » ، يتصاعد منها فحيح الأفاعى وعواء الذئاب ، فى ضحكات مجنونة ، وقهقهات مخمورة تعيدنى إلى واقعى ، وتنتشلنى من غمرة الأفكار التى تزحم رأسى : تقلق نهارى ، وتؤرق ليلى ، وتصيبنى بالدوار . .

لماذا أنا سهران ؟ لماذا تجافى عنى المنام؟ أى شيطان لذّ له أن يوقظنى حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، أو هذه الساعة المتقدمة من النهار ، ويسمرنى على هذا الكرسى لا أريم ؟ !

أقول : شيطان ؟ . . عجباً ، عجباً ! . . إنه لا شيطان هنا ولا ظل شيطان ؛ وإنما هى هذه « النتيجة » المعلقة على الحائط ، قد وقعت عليها عيناى منذ سويعات ، فأثارت فى نفسى فواجع دامية ، وهيجت فى قلبى ذكريات دفينة ، كانت غافية نائمة ، فاستيقظت بطيئة متثاقلة ، ثم اندفعت نشيطة وثابة ، وأخذت تخايلنى وتجذبنى إليها ؛ وهى تتقارب وتتباعد ، ويتسّر بعضها ببعض ؛ ثم تستطيل وتمتد ، ويستوى منها عالم كامل حىّ ، من ماض مطوىّ غير منسىّ . .

ألا لعنة الله على هذه « النتيجة » ! إنها تقول إننا فى اليوم الحادى والعشرين من مايو . . وفى مثل هذا اليوم — منذ أربعين سنةً — وُلدتُ :

يا لله ! . . أربعون عاماً ؟ . . ما أطولها ! وما أعرضها ! . . كم رقص فيها فؤادى لموعد وصال ! وكم وجب قلبى لوشك ارتحال ! . . كم تمتعت فيها بالغيد الحسان ! وكم شربت من رهينة الدنان ! . . كم انطلق فيها لسانى بالغزل الرقيق يأسر القلب ، وبالنسيب العذب يملك الوجدان !

أربعون عاماً عصرت فيها حياتى قطرة قطرة فى كأس ، فلما رفعتها إلى فمى وجدتها سمّا زعافاً ؛ ورأيت الذى كنت أنشده ، ويظمأ إليه القلب ، لا يزال بعيداً بعيداً ؛ وألفيت كل ما بلغت بشبابى « عصارة آثام » ، و « باطل الأباطيل ، وقبض الريح » !

الأيام تكر ، والليالى تفر ، وكلما اغتسلت فى ندى الفجر ، مرّغنى الليل فى الأوحال ؛ وكلما تمنيت على فراشى أن يعزينى ، أقضت مضجعى الأطياف والأشباح ، حتى مللت نفسى وملتنى ، وكرهت الحياة

وكرهتني ، وتغنيت بالموت ، وعشت أنتظره ، وكأنه النازح العزيز !

وكم حاولت أن أنسي ، وأن أعيش ، فما وجدت فى نفسى إلا القدرة على نسيان السرور ، حتى أمسيت أنكر البهجة فى وجوه المستبشرين !

حينما كنت صبيًّا يافعاً توهمت الحياة فى الشباب؛ فلما صرت شابًّا خيل إلى أن الحياة ستأتى فيما بعد؛ فلما تقدّمت الأيام تبينت أن الحياة قد مرّت من قبل . . وا أسفاه !

لقد عشت أشعر دائماً شعورَ اليقين أنّ الحياةَ النشيطةَ الهائئةَ ليستْ حيث أحيا ، وإنما هى فى مكان آخر ، وعلى نمط غير الذى أحياه . .

إذا كنت هنا شعرت أنّ الحياة هناك . . هناك . . فى أىّ مكان غير الذى أنا فيه ؛ فإذا ذهبت إليه رأيتها قد تراجعتْ إلى حيث كنت ، بل تراجعتْ إلى المكان الذى زايلته ، وهربت منه ؛ وإذا هى قد فقدتْ لذتها وجمالها . .

ما أشبهَ الأمرَ بالفراشة ! تراها طائرة ، فتبدو فى عينيك جميلة ، ألوانها البرّاقة ، وأجنحتها الخلابة ؛ فإذا ما أمسكتها ، وأطبقت يدك عليها تبدّدت الألوان ، وتحطمت الأجنحة ، ومات الجمال ! . . بل ما أشبهَ الأمرَ بحال من تُقطع لهم ساق أو ذراع ، فلا يحسون ألماً ، ولا يستشعرون حزناً ؛ فإذا ما أفاقوا — بعد إجراء العملية — صاحوا ، وتوجعوا . . وبعد ساعات ، وأحياناً بعد أيام ، يشعرون بفقدان العضو الذى بتر ، فيحزنون ، ويعلو صياحهم وأنينهم !

فويل لى من الحياة ، وويل للحياة منى ! . . ويل لى من الحياة ، لأنى سأقضيها محطماً طليحاً ، وأجتازها نضواً جريحاً ! . . وويل للحياة منى ، لأنها لن تجدَ فىّ شيئاً تجاهد ضدّه ، أو شيئاً تجاهد من أجله !

* * *

خطرَ ببالى الليلةَ خاطر شرود . : خطر ببالى أنّ قصّةَ حياتى لو نشرَت لوجد فيها كثير من الناس ما يشبع نهمهم ، ويرضى فضولهم ؛ فإن الفضول ، والرغبةَ فى إشباعه ، أظهر صفات الإنسان فى كلّ زمان ومكان ؛ بل إن الفضولَ قد شاع فى هذا العصر وتضاعف ؛ فالناس اليومَ — بين الماديّات والنظريات العلمية — قد تخففوا من المبادئ النبيلة ، واجترءوا على القيم الأدبية والمثل الأخلاقية ، وأخذوا يحتفلون بحقائق العلم ، ويسعون وراء خبايا النفس ، وأسرار القلب ، يروْن فى هذه وتلك غذاءً لفضولهم ، وإشباعاً لنهمهم !

راقنى هذا الخاطر ، وألح علىّ . .

ثم صار الخاطر إرادة ، وانقلبت الإرادة إلى تخطيط وتنفيذ .

ولست أرتاب فى أن كثيرين ، ممن يقرءون هذه الحياة ، سوف يهزون أكتافهم ، أو يمطون شفاههم ، أو يبتسمون فى سخرية وازدراء ، ويقولون : هذه قصة قد نسجها ذهن سقيم ، وفكر مضطرب ، وخيال جامح . .

وسواء لدىَّ أعبس هؤلاء وارتعدوا ، أم ابتسم أولئك وسخروا ، فلن يحول هذا أو ذاك دونَ أنْ أسردَ قصتى ؛ فأنا — والحقّ — إنما أكتب عن نفسى لنفسى أولا ، ثم للناس أخيراً ؛ ومن ثمّ لن أسخر قلمى لإثبات نظريات معينة ، ولن أسعى إلى تملق الذّوق العام ، أو محاولة إرضائه ؛ ولن أعنى كثيراً بوصف البيئة ، واستقصاء الظروف الاجتماعية : إنْ أريد إلا كشفَ النقاب عما أحسسته فى أعماقى ، وإلقاء الضوء على مواضعَ مظلمة من نفسى ، وتصويرَ أحاسيسها المتناقضة ؛ ولهذا قد لا يظفر القارئ فى القصّة بالنظام الفنى المتكامل الذى يصل بين الأحداث ، ويجمع السببَ إلى الأثر ، والعلةَ إلى المعلول ، كما يقول أصحاب المنطق ؛ لكنه — مع هذا — لن يعدمَ فيها تحليلاً ووصفاً ونقداً ، وأشتاتاً تؤلف بينها وَحدَةَ الزمن ، ويجمعها معاً وَحدَةَ الفاعل !

إن قصتى — من ألفها إلى يائها — هى قصة الحب ؛ لكنها ليست قصة عادية ، وإنما هى قصة شاب كان المثل السوء فى الخسة والنذالة . . شاب قد قلبه من صخر ، وجرى الدم فى شرايينه لهباً سائلا ، فاستحال حيواناً يأكل ، ويبحث عن أنثاه . .

والقصة — فى الوقت نفسه — ليست قصتى وحدى ، لكنها قصة نفر على شاكلتى ، سلكوا السبيل التى سلكتها ، وانحدروا إلى الهوة التى انحدرت إليها ، غير أن الجرأة لم تسعفهم ، فيعترفوا بخطاياهم ، والفرصة لم تواتهم فيصوروا آثامهم . أما أنا فيريحنى كثيراً أن أبوح وأعترف ؛ ذلك أنى بالاعتراف أقدم نفسى للمجتمع — كما يفعل الخاطئ أمام كاهنه — فيقتص منى بالسخط والاحتقار ، وإن كانا مشوبين — كما أرجو — بالإشفاق والإغضاء ؛ وهذا من شأنه أن يخفف عنى وقر الندم الملحاح .

ولقد يشق على أن يلقانى الناس بالتعظيم والتكريم ، ونفسى تصيح من الأعماق : لا ، لست له بأهل ؛ ولقد يشق على كذلك أن يلقانى بعضهم بالتعالى والاستخفاف ، لأن إنساناً ما لا يرضى — ما دام حيًّا — أن ينازع ثوب الكرامة والتوقير . . وويل لنفس يكربها التوقير والتحقير فى آن !

فكأن هذا الاعتراف مصباح كاشف فى الطريق ، يقول للمتطاول : بعض هذه العجرفة ، فلقد أقر بوزره ، فأصبح أشجع منك ؛ ويقول للمتطامن : بعض هذا التهيب ، فلست دونه فى شىء ، إن لم يكن هو دونك فى كل شىء . .

ثم إنى أجد لذة أيما لذة فى إيقاظ ذكرياتى الغافية ، ونشر صحائف الماضى المطوية ، وأرى ساعات الذكريات هذه أوقاتاً سعيدة ، تزوى عنى الحاضر الكريه ، وتحملنى إلى الماضى بما فيه من لوعة وصبابة ، ومن أمل حبيب ، ويأس بغيض ، وتجعلنى أحس بلون من الألم العذب

فى بيداء الحاضر المقفر :

إنى لأشعر — حين أستغرق فى الفكر وحيداً — كأنى أنسلخ من واقعى ؛ وأتوه فى عالم آخر . . أتأثر بكل شىء ، وأتبدل مع الحوادث ، وتنعكس أمامى صور الأشياء ، فأصبح مرآة متقلبة لكل ما مر بى !

كيف جرى هذا ؟ كيف تصرفت هذا التصرف ؟ . . ولو رجعت عقارب الساعة إلى الوراء ، وارتددت شاباً ، أفكنت أفعل هذا الذى فعلت ؟ ! . . لست أدرى ! . . فالحياة تحولنا كما تحول الفراشة من حشرة زاحفة على الأرض إلى طائر ذى جناحين يحلق فى الفضاء ؛ وكل يوم يمر بنا يغير من أنفسنا شيئاً ؛ فلا تكاد تمضى بضعة أعوام حتى نتغير كثيراً ، وإذا الواحد منا لا يكاد يعرف نفسه بعد أن تطعن به السن .

وقد يكفى أحياناً حادث واحد كى يطردنا من أنفسنا ، ويضع فينا وجداناً جديداً ، وإرادة جديدة ، وأملاً جديداً ، ويخلق منا إنساناً جديداً غريباً ليس إيانا ولسنا إياه .

يا إلهى ! إنه لمريع هذا الأمر ، ورائع أيضاً ! . . لقد حسبت ذلك الماضى قد ضاع فى زوايا النسيان ، وظننت أنى أطرق باباً قد أغلقته إلى الأبد . . لكن . . كم ماضياً فى العمر حتى ننسى ؟

ولسوف أحاول أن أذكر الحوادث كما وقعت فى حينها . . وقد أروى أحداثاً تافهة كان الأليق أن أتحاشاها ، وقد أجمل أحداثاً كان من الأفضل أن أفصلها . وعذرى أنى أقص ما وعته الذاكرة ، ولم يطمسه مر الأيام .

هأنذا ألجأ إلى القلم والورق ، وأكتب عن نفسى ؛ وأكتب لأتيح لأصدقائى — الذين شجعونى على رواية هذه الذكريات — أن يقرءوها حيث يكونون ، وساعة يشاءون ؛ فإن الكلام مقيد بظروف المكان والزمان ، أما الكتابة فحرة طليقة . . والمرء حين يتحدث عن نفسه لا يفرغ !

٢

المشاهد تتزاحم في مخيلتي متقطعةً ملتوية ، كشريط سينمائيّ عفاه الزمان . .

الشريط يظلم ، والصوَر تضطرب ويختل ميزانها ، وقلبي يتأرْجح بين تضاعيف ذاكرتي . .

هذه سنونَ مرّت بطيئة ثقيلة ، كنت فيها كحيوان أكلَ حتى اتّخم ، فاستسلم للكسل ، وفقدَ كلّ إحساس بالمسئولية ؛ وتلك سنون انقضتْ هادئةً خاوية ، كنت فيها كمعبد مهجور بعُدَ عهده بألحان الذّكر والترتيل ؛ وهاتيك سنون كانت زوابعَ وأعاصير ، وحرباً عنيفةً بيني وبين الدهر ، يفجؤني كل يوم بجديد لم أتوقعه ، أو بعجيب لم أفكر فيه .

الشريط طويل ، والصوَر تتوالى متباينةً أشدّ التباين ، مختلفةً أبعدَ الاختلاف . . هذه مشرقة باسمة ، وتلك كئيبة باكية . . هذه واضحة ناصعة ، وتلك خافتة ناصلة . . هذه مستقرة هادئة ، وتلك مضطربة صاخبة . . صورَ للفرَح والحزن ، والزّهو والخزْى ، والعزّة والذّلة ، والأمل واليأس . . إنها صور الأحاسيس كلها ، والانفعالات جميعها . وهذه الصوَر — على تباينها واختلافها — متفقة في أن لكلّ منها في النفس أثراً ، وفي القلب ذكرَى لا تبرح تتراءَى لي صاحياً ونائماً ، حتى تكاد توردني مواردَ الجنون !

الشريط تتوالى صوَره ، والقلم في يدى يعجز عن تصوير ما يزدحم به رأسي ، وما تنفعل به نفسي ! . . وكيف يستطيع القلم أن يصوّر

انفعالين متضادّين ينفعل بهما المرء فى لحظة ، ويجريان معاً فى طلَق؟ !

آه ! . . لكمْ كنت أودّ لو تتابعت الصّوَر مرتبطةً متلاحقة ، فأستخلص منها جميعاً صورةً كبيرة تكشف معالم الماضى ، وتجلو ما صَدِئ فى طيات السنين !

من يدرى ؟ ! . . ربما كانت الصّوَر تترى فى ترتيب واتساق ، غير أن بُعْدَ العهد بها ، وغبشَ بعضها ، ونصولَ بعضها الآخر ، هو الذى يجعلها تبدو فى ذاكرتى مضطربةً متزاحمة .

ومن نعم الله علينا — أو من نقمه ، لا أدرى ! — أنه جعلنا لا نحسّ وزْرَ ما نفعل ، ووَطأة ما نحمل ، إلا بعد أن تنتهى التجربة ، ولا يبقى إلا آثارها وذكرياتها !

* * *

أرَى — أوّلَ ما أرى — كيف كنت صبيًّا هانئاً مغتبطاً ، نفسى وثابة بطموح الشباب المتفتح ، بعدَ سذاجة الطفولة البريئة المفعمة بحبّ المستقبل وكثرة الرجاء فيه ، وكيف كنت مؤمناً ، طاهراً ، أعشق الله فى صلاتى ، كلما تبسّم الفجر ، وعلا نغم الأذان .

وأرَى كيف رَغبَ أبى — صاحب الفضيلة القاضى الشرعى — فى تثقيفى ثقافةً دينية خالصة ، بعد أن تخرّج خمسة من أبنائه السبعة فى الجامعة ، فآثر أن يصنع منى تمثالا للصلاح والتقوى ؛ فعلمنى الصلاة قبلَ أن أبلغَ السابعة ، وألزمنى أن أهزّ رأسى بعبارات لا أفقه لها معنى ، وجعل يحدّثنى عن الله العظيم ، وعن نبيه الكريم ، فكنت أستمع إليه وقلبى يطفح بشَهوَة اللعب ، وخيالى تملؤه كرة أتقاذَفها وأترابى ، أو عصفور أشدّ ساقه إلى خيط ، وأطلقه مستمتعاً بطيرانه المضطرب ، دون أن يستطيع إلى الهرب سبيلا : :

كان أبي براً بي ، شفيقاً عليّ ؛ لأني أصغر أبنائه ، وألصقهم بشيخوخته ؛ فلم تشأ عواطفه الرقيقة أن يدخلني الكتّابَ مخافةَ أن ينالني عكاز الفقيه وعصا العريف ، فأدخلني المدرسة الابتدائية ، وأحضر الفقيه إلى البيت يقرئني القرآن . .

وكان — رحمه الله — يدعوني إلى الجلوس في حضرته حيناً بعدَ حين ويختبرني في ترتيل آيات مما حفظت ، وينبهني إلى إتقان مخارج الحروف ، وإلى مواضع الوقف والوَصْل .

ثم انتقل الفقيه إلى جوار ربه ، وقد حفظت ثُلثَي القرآن ، فقام أبي مقامه ، ودفعني إلى الدرس دفعاً ، تعاونه قوًى شتى ، من ذكاء غير قليل ، وذاكرة واعية ، إلى صحة جيدة ، ونشاط موفور ؛ فأظهرت من صفاء الذّهن ، ومن شدّة الانتباه ، ما استبشر به « الشيخ » ، وطابت به نفسه . .

وقبيل أن أتمّ الثانيةَ عشرةَ كنت قد حصلت على الشهادة الابتدائية — وكانت أيامئذ من الشهادات العامة — وختمت القرآن ، وأجدْت حفظه وأتقنت ترتيله ، وأصبحت مستعدًّا لطلب العلم في الأزهر الشريف ؛ فما أسرعَ ما وضعوا على رأسي عمامةً كعمامة أبي ! وما أسرعَ ما ألبسوني الجبة والقفطان ، وصاروا ينادونني بـ « الشيخ عبد الرحمن » !

لست أدري : أمِنْ حسن حظي كان هذا ، أم من نحس طالعي ؟!

لكنّ الذي لا ريبَ فيه أنّ العمامة التي توّجتْ رأسي الصغير ، وصيرتني مرْموقاً بعين الإعجاب والإكبار ، قد حرمتني ما يتمتع به أترابي من لهو ومرح ؛ فهذه دراجتي أمامي علاها الغبار ، والعمامة تحول دونَ أن أسابقَ بها أندادي ؛ وها هم أولاء أصدقائي وأترابي يتجمعون ، يلهون ويلعبون ، والعمامة تجعلني أمرّ بهم ، فأتجاوزهم متظاهراً بالخشوع والوقار ؛ وكأني أقول لهم بلسان الحال : إني قد صرت رجلاً ، وإنه لا يليق بي —

وهذه العمامة تُتَوِّج رأسى — أن أعبث عبث الأطفال !

فى تلك الأيام كان التعليم وَقْفًا على الطبقات الموسرة ، ولم يكن — كما صار فى عهد الثورة ،من المدرسة الابتدائية إلى كليات الجامعة — حقًّا يتساوى فيه المواطنون جميعًا ، كالماء والهواء؛ فكانت الطبقة الكادحة تعيش فى جهل مطبق ، وأمية عمياء ، وكان المحظوظ من أبنائها من يدخل الكتاب ويفك الخط . . فإن كانت الأسرة على شىء من « الستر » خطا صغيرها من الكتّاب إلى المعاهد الدينية ، أو مدارس المعلمين المجانية . وقلما تجاوز أبناء هذه الطبقة عتبات المدارس الثانوية ، لأن اليسر كان الطريق الوحيد إلى التعليم المأجور والعالى ، وكانت الجامعة لا تفتح أبوابها إلا لأبناء الطبقة الوسطى ومن علاها ..

وفى تلك الأيام أيضًا لم يكن الموسرون يقبلون على تعليم أبنائهم فى الأزهر إلا إذا كانوا قد أخذوا أنفسهم أخذاً قويًّا بتعاليم الدين : وأحبوا لأولادهم هذا اليقين الذى يجدون فى صدورهم ؛ فاختاروا لهم الأزهر حفاظًا على ما للأسرة من جاه دينى، ومركز علمى، ومن ثم رغب « الشيخ » — يرحمه الله — فى أن أعد لأصير مثله : قاضيًا فاضلا ، وعالمًا وقوراً ، وخلفًا صالحًا لسلف صالح ، كما كان هو لأبيه ؛ لكنه لم يلبث أن تبين أن الدراسة فى الأزهر طويلة قد لا يتسع لها عمره ؛ فهو قد أحيل إلى المعاش منذ عامين ، فعدل عن رأيه ، وقرر إلحاقى بالمدارس الثانوية . . فما أسرع ما نحيت العمامة ، وخلعت الجبة والقفطان ؛ والتحقت بمدرسة أسيوط الثانوية ، لأن بلدتى منفلوط لم يكن بها غير مدرسة ثانوية حرة تنقصها المعامل والأدوات ، وينقصها بعض المدرسين أيضًا .

وفى أسيوط عشت — كما عاش من قبل إخوة لى وأخوات — فى كنف أختى الكبرى « إحسان » ، وفى رعاية زوجها النبيل ، الطبيب

« فتحى » ، وفى رفقة أولادهما الظرفاء المهذبين .

وفى كل يوم كنت أجنى ثمرةَ اجتهادى وتمسكى بأهداب الدّين : تقدماً فى الدرس ، وقدوةً فى الخلق . فكنت الطالبَ المهذّب النجيب ، الذى لم يتخلف قط ، ولا جاء ترتيبه مرّة بعد الأول ، سواء فى امتحانات النقل ، أو فى الامتحانات العامة .

وأذكر أنى كنت أولَ الناجحين فى امتحان شهادة الثقافة — وكانت تسبق الشهادة التوجيهية بعام — وأذكر أن الفرق بينى وبين الثانى كان سبعَ عشرةَ درجةً ونصف درجة ، وهو فرق قلما يكون ؛ فأكرمنى أبواى وأهلى أيما إكرام ، وذهب ذكائى واجتهادى ، وكرم أخلاقى ، مثلا على ألسنة الأمهات والآباء ، ونشر بعض المجلات صورتى مشفوعةً بالتهنئة والثناء !

وأذكر — بين ما أذكر — أنّ « حسنى بك » — قاضى المحكمة الجزئية ، وصديق والدى الحميم — قد اشترك فى تكريمى وتشجيعى ، وأهدى إلىّ مصورة ، وكتاباً ضخماً بالإنجليزية يعلم التصوير ؛ وكتب فى صدْر الكتاب بخطه الجميل هذه العبارة المسجوعة التى ما زلتُ أحفظها عن ظهر قلب : « إلى فائق الأقران ، فى ميدان الامتحان ، ابنى العزيز عبد الرحمن » !

* * *

كان أبواى حريصَين على أن أعودَ إلى منفلوط يوم الخميس من كلّ أسبوع ، فأبيت بها ، ثم أصلى الجمعة مؤتمًّا بوالدى الذى كان قد أخذَ — منذ أحيل إلى المعاش — يخطب المصلين ، ويؤمهم يوم الجمعة فى مسجدنا الكبير ؛ وكانت شقيقتى « إحسان » حريصةً على سفرى هذا ، لما أحمله إليها فى عودتى من سمين الطير وألطاف الأمّ الحنون ؛ وكنت أنا أيضاً حريصاً عليه ؛ لأنى كنت أحبّ أن أضع رأسى على صدر أمى ساعةً أراها تعدل الدنيا !

مرّت بى فى أسيوط أربعة أعوام ، وأنا متحررٌ من رقابة « الشيخ » ، بعيد عن إرشاده وتوجيهه؛ ومع هذا ظللت طاهراً بريئاً ، لا أنقطع عن شهود الجماعة ، فى يوم الجمعة ، ولا فى غيره من الأيام . وفجأةً انقلبت دنياى ، وصار ذَنَبها فى رأسها ! فإنى ما كدْتُ أستعدّ لرحلات الصيف ومباهجه ، حتّى وَفدَ إلى البلدة شقيقى « حسن » وبصحبته « عزيز بك » الموظف الجديد .

كان « حسن » و « عزيز » زميلين أيامَ كانا يطلبان العلم فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ؛ وكانا زميلين أيضاً فى العمل بنيابة الفيوم ؛ ثم نقلا كلاهما . أما شقيقى « حسن » فقد نقل إلى نيابة أسيوط ؛ وأما زميله « عزيز » فقد نقل إلى نيابة بلدتنا منفلوط .

نزل بنا « عزيز » ضيفاً كريماً حتى وصلتْ أمتعته من الفيوم ، وقدمتْ عروسه القاهرية ، التى بنى بها منذ عام وبعض عام .

وشاء القدَر أن يختار «عزيز» ، أو أن يختار له أخى «حسن» ، أحدَ المنازل التى أعدّها « الشيخ » على الطرز الحديث ، وزوّدها بأنابيب المياه وأسلاك الكهربا ، وهيأها لسكنى كبار الموظفين . وشاء القدَر أن يكون هذا المنزل ملاصقاً لبيتنا الكبير . وشاء القدَر أيضاً أن أرى « هدَى » زوجة « عزيز » ، فتنحرف إبرَة حياتى انحرافاً عنيفاً ، وتتجه اتجاهًا معكوسًا ، ويتحول حالى ، ويتبدل منوالى .

وقع عليها بصرى — أوّلَ ما وقع — وهى فى بيتنا ، تزور أمى ؛ فلزمت مكانى لا أريم ، وقد اتسعتْ عيناى ، والتهب بدنى ، وخفق قلبى فى سرعة وعنف ؛ ووقفت أتأملها فى نهم ، وأصعد فيها النظر ، حتى فطنت « الحاجة » ، فصرَفتنى فى كياسة ، وأنا أحسّ أنّ فؤادى يوشك أن يمسك عن نبضه . ومن هذه النظرة انقلب كيانى رأساً على عقب ، فلم أعدْ ذلك الفتى الممراح ، المستبشر بالحياة ، المستشرف فيها كلّ

معانى الخير والبهجة، بل مسخت شابًّا كئيباً ، شارد اللب ، زائغ البصر ، طويلَ الصّمت ، مسلوب الفؤاد . .

ماذا ألمّ بالغصن الرطيب فلواه عن مداه ، وغاص به فى أعماق الوحشة ، فلا صَيحةَ اغتباط ، ولا بسمة ترفّ على شفة ؟ !

٣

كانت حياتى سلسلةَ حوادثَ عادية ، تدْفع إلى السأم ، حتى هزّ الغرام أوتار قلبى . .

والحقّ أنّ الفترة التى تسبق الحبّ ، فى حياة كلّ إنسان ، هى فترة خمود وخمول ، يتعلم فيها الإنسان قليلاً مما يفيد ، وكثيراً مما لا يفيد ، فإذا نزل بنا الحبّ تبدّلت حياتنا ، وأحسسنا — للمرّة الأولى — بخفقات قلوبنا — وبالدّم يرْكض فى عروقنا— وتعلمنا من فلسفة الحياة ما لا نجده فى كتب الفلاسفة والحكماء . .

ولقد أحسست الحب يغزو قلبى ، فى هجمة عنيفة قلبتْ حياتى ظهراً لبطن ، منذ رأيت « هدى » . . رأيتها وأنا أتهيأ لزيارة الريف ، فى صحبة شقيقى « عبد الحميد » ، الطالب فى كلية الطبّ ؛ فمن عادتنا كليْنا أن نقضى أسبوعاً بالقرية ، فى مطلع العطلة الصيفية ، نلهو هناك ونمرح ، نركب الخيل ، ونصيد الطير ، حتى يحين موعد اجتماع الأسرَة السنوىّ ، الذى يضمّ أولادَ « الشيخ » و « الحاجة » بنين وبنات ، ويجمع الأصهار والحفداء ؛ فحينئذ نعود إلى المدينة ، ونقضى جميعاً معاً فترة كانت — بلا ريب — من أسعد الأوقات .

لقد كان « الشيخ » يحرص على أن تجتمع حوله أسرته ، كباراً وصغاراً ،

رجالاً ونساء ، بضعة أيام فى صيف كلّ عام . وكان يبذل جاهه ليحصلَ أبناؤه وأصهاره على إجازة تحقق هذا الاجتماع ، بعد أن تنتهى الدراسة بالمدارس والجامعات ، وقبل أن تعلن نتائج الامتحانات ، حتى لا يعكر صَفوَ الجمع رسوب المتخلفين ، وحتى تتاحَ للأبناء والأصهار فرصة قضاء سائر إجازاتهم حيث يشاءون ، بعد أن يرىَ الإخوة والأخوات بعضهم بعضاً ، ويعيشوا معاً أياماً سعداء هانئين . ولولا هذه السنّة الحميدة لوجد أكثرنا عنتاً ومشقة فى رؤية الآخرين .

فى تلك الأيام كان البيت يعجّ بالحركة والضوضاء ؛ وكنت أرى أبوَىّ فى بهجة ضافية . فاجتماع هذا الحشد من البنين وزوجاتهم ، والبنات وأزواجهن ، كان عيدَ « الشيخ » و « الحاجة » ، وأثمنَ مكافأة يستطيع أبناؤهما أن يقدموها إليهما .

كان « الشيخ » الوقور يطرّح عنه تزمّته ، ويداعب حفدَته الصغار ، ويلهو معهم ، وهو ينظر إلى « الحاجة » نظرات الحبّ والتقدير ، وكأنه يقول لها : هؤلاء ثمارنا : أولادنا وحفداؤنا . . وكانت « الحاجة » تحتفل بهذا الاجتماع السنوىّ احتفالها بعيد كبير ، وتنشط له نشاطاً موفوراً ، وتظل طولَ النهار صاعدةً هابطة ، غاديةً رائحة ، متنقلة فى أرجاء البيت الكبير ، وحولها « الكتاكيت » الصغار ؛ وهى أشدّ ما تكون فرحاً وابتهاجاً . . إنها لحظات هانئة ، لا يستطيع أن يهيئها إلا حياة الأسرَة النامية السعيدة !

كان شقيقى « عبد الحميد » يعتزم — بعد هذا الاجتماع السنوىّ — أن يسافر إلى المنصورة ، فيقضىَ أياماً فى ضيافة شقيقنا الكبير ، مفتش صحة المديرية ، الطبيب « مصطفى » ، وزوجته « خيرية » بنت عمتنا ؛ وهنالك يفيد فائدة مزدوجة : يستريح من عناء الدرس بتغيير الجو والمناظر ، ويرافق أطباء المستشفى « الأميرى » فى عيادة المرضى والكشف

عن أمراضهم تجريباً وتطبيقاً. أما أنا فكانت نيتي أن أسافر إلى الإسكندرية، لأمضي أياماً هانئة فى ضيافة شقيقتى الحبيبة «سميرة» ، رفيقة طفولتى ، وأقرب أخواتى إلى قلبى ، وأحبهن إلى نفسى .

و «سميرة» الحلوة اللطيفة، ذات الوجه الأزهر، والعينين الزرقاوين الصافيتين، لا تكبرنى إلا بأعوام ثلاثة، أو دون ذلك، لكن عقلها يسبق سنها.. إنها المهذبة الرشيدة التى زرعت فى قلبى كل ألوان العطف وضروب الحنان ، وبعثت فيه روح الإيثار والتعلق الشديد بحب الخير والإحسان .

كانت «سميرة» أيامئذ قد مضى عامان على زواجها من ابن خالتنا ، الشاب الرقيق الأستاذ «يحيى» ، المدرس بالمرحلة الثانوية ؛ وكانت رؤيتهما تشرح صدرى ، وتبهجنى أعظم البهجة .

وإلى اليوم كم يطربنى حديث «سميرة» ! وكم يحدثنى النسيم عن ضحكتها ، ويعيد إلى أذنى صدى صوتها العذب الحنون ! وكم أحب أن أخلو الآن إلى نفسى فى الأمسية والأصباح ، لأسمع من «الريكوردر» صوتها ناعماً رقيقاً ، يداعب روحى ، وينفذ إلى أعماقى !

وإنى لأذكرها — وأنا أكتب هذه السطور ، وهى قد صارت أماً لخمسة ، وجدة لستة — أذكرها طفلة لعوباً ، تثب إلى فى ذلك الزمن البعيد ، زمن الطفولة ، بثوبها الأبيض الأنيق ، فلا يلبث أن يتكسر على جسمها الصغير ، ويحمل آثار الماء والتراب ، إذ تلاحقنى فى الحديقة وألاحقها ، فلا هى تشكونى إلى أمنا ، ولا أنا أشكوها . .

أحلى أيام العمر تلك ! ولا أذكر مرة ذلك الزمن البعيد ، دون أن تهل صورة «سميرة» الجميلة متحدة اتحاداً وثيقاً بصورتى .

* * *

كنت أتهيأ لقضاء أيام فى الريف وأمنى نفسى برؤية «سميرة» ، وأعد عدتى لزيارتها فى الإسكندرية ، حينما رأيت «هدى» ؛ فأحسست

أنى أشدّ إلى البقاء شدًّا عنيفاً، وأخذت أتلمس المعاذير ، لأسوّغ ازْوراري عن هذه المباهج التى كنت أحلم بمتعها ، وألهج بذكرها . فما إن انفضّ اجتماع الأسرة السنوىّ ، وسافر « عبد الحميد » إلى المنصورة حتى جعلت مثواى إحدى حجرات الدّور الأعلى ، ونقلت إليها ملابسى وكتبى وأدواتى الخاصّة ، واتخذت السطح مكاناً مفضّلا ، أخلو فيه إلى نفسى ، وأطلق فيه العنان لخيالى ودموعى . .

وسطح بيتنا فسيح كأنه ملعب ؛ وفيه شقة صغيرة ذات حجرات ثلاث ، تطلّ على الشارع ، ولا تعمر إلا فى الصيف ، حين يتوافد أبناء الأسرة المغتربون ، من حيث يعملون أو يدرسون . إن البيت كله يصير حينئذ خلية نحل ؛ ولا يسكن ويعود إليه هدوءه الرّتيب إلا بعد أن يرْحل الوافدون .

هأنذا تظللنى النخلات الطيبات الضاربات فى السماء ، وهاتان يداى تكادان تلمسان فروع الأشجار ؛ وهذه أسراب الحمام حولى آمنة مطمئنة ؛ وها هو ذا بيت « هدى » لا يفصلنى عنه سوى حائط لا يحول ارتفاعه دونَ أن أكشفَ البهوَ كله ، بل لا يحول دونَ أن أرى بعض ما فى هذه الحجرة أو تلك ، لو رفعت عقبى ، ومددت عنقى . .

خمسة أيام قضيتها سابحاً فى بحار الفكر على أمواج الأحلام . . كيف أثير فضولَ « هدى » الجميلة ؟ كيف أجذب انتباهها ؟ ماذا أفعل لأراها وأحدّثها ؟ !

ثم هدانى التفكير الصّبيانى إلى الاستعانة ببندقية الصّيد ؛ فكلما حطّ غراب أو حدَأة على شجرة أو نخلة لاحقته بطلق نارىّ ، قد يصيب وقد يخطئ ، لكنه — فى كلتا الحالين — يفزع الحمام فيطير إلى أبراجه مذعوراً .

ونجحت الحيلة، وحدث ما توقعت ، فقد لفتتْ هذه الحركات

والأصوات انتباه « هدى » ، وأثارتْ فضولها ، فصعدت إلى السطح تستجلى خبرها . .

والتقتْ أعيننا . . وكانت نظرة ، فابتسامة ، فسلام . . فسؤال وجواب !

٤

تكرّرت اللقاءات إنْ مصادفةً وإن عمداً ؛ وتناجت القلوب فى صمت أولا ، ثم تجاذبنا أحاديث طفلية يقنعها الخجل ، وتغشيها الرّهبة . . ويوماً بعد يوم جعلتْ قلوبنا تخفق بالمرح والبهجة ، وشفاهنا تفيض بتمتمات المسرة والهناءة ، وأحاديثنا يزخرفها عبث المراهقة وأطياف النشوَة :

وكلما مرّ يوم كان كلانا يطول وتمتد قامته . وبارك الله فى قوالب اللبن والآجرّ المتناثرة على السطحين ، فبفضلها أخذنا نعلو ونرتفع ، وجعل الحائط الذى يفصل بيننا يهبط ويقصر . .

ثم رتبنا لقاءنا كلّ مساء فى وقت معلوم ، حين يغفل الرقيب ويغيب العذول . ففى ساعات الغروب والمساء كانت « الحاجة » تنشغل باستقبال زائراتها من قريبات وجارات ، أو تغادر البيت لقضاء حقّ هذه الزيارات ؛ وفى هذه الساعات كان « الشيخ » يتخذ مجلسه فى البهو صيفاً ، وفى « السلاملك » شتاء ، وينهمك وضيوفه الكثر فى أحاديثَ متنوعة ، كنت أحرص على الاستماع إليها ، وأجد فيها متعةً ولذّة ، وأفيد منها طرائفَ أدبية ، ولطائفَ فكاهية ، وثقافةً عامة ؛ إذ كانت « دائرة معارف » ، تتناول ما ضَمت أمهات كتب الدّين والأدب ،

وما تنشره الصّحف والمجلات. وفى هذه الساعات أيضاً كان « عزيز » يترك زوجته « هدى » ، ولا أنيسَ لها غير خادم صغيرة ، ويذهب إلى نادى الموظفين ، ليلعب « البليارد » و « البوكر » و « الكونكان » ؛ ثم ينتقل إلى خمارة « قسطندى » ، حيث يلتقى هناك بأمثاله من الحكام والشبان الأعيان ، فيلهون ، ويسكرون إلى مابعد منتصف الليل . .

فى هذه الساعات التى يشغل فيها الرقيب ، ويغيب العاذل ، كنا نلتقى . .

وكنت أصغى إلى أحاديث « هدى » وأنا مسحور بها مفتون ؛ وكأنَّ محدّثتى أعلم أهل الأرض طرًّا ، وأكثرهم حكمة ، وأوسعهم معرفة . .

حدّثتنى عن القاهرة وجمالها ، ورغادة الحياة فيها ، حتّى لكأنما قد رسمتها فى خيالى واضحةَ المعالم والمغانى . . وحدّثتنى عن خيبة أملها فى زواجها . .

إن زوجها ليس غريباً عنها ، فهو ابن خالتها ؛ وحبها إياه قد نما فى قلبها منذ حداثتها ؛ وقد عاشت تمنى نفسها بالزواج منه ، لجمال طلعته واعتدال قدّه ، ودماثة خلقه ، واستقامة سيرته ، وإشراق مستقبله ؛ ولكنه — بعد أن تخرّج فى كلية الحقوق ، وعين وكيلَ نيابة ، وتغرّب عن أهله وذَويه ، وتحرّرَ من رقابة أبيه — اختلط بأشباهه من الشبان الموظفين ، وأبناء « الذوات » العاطلين من حلى الفضل والعلم ، ففسد خلقه وساءت سيرته ، وفجر وانفجر ، وعاقرَ وقامر .

كانت « هدى » تحبه ؛ وقد صوّرَ لها الوَهم أنها قادرة — بحبها — على أن تردّه إلى سواء السبيل ؛ غير أن الطبعَ الفاسد ، والقدوةَ السيئة ، ومعاشرةَ السفهاء ، قد غلبتها على أمرها ، فباءت بالخيبة والحسرة ؛ وتحوّل حبها إلى نفور ، وانطوت ضلوعها على حقد دفين ؛ ذلك أن المرأة قد تنخدع أحياناً ، فتظنّ — وهى تمنح من تحبه جسدَها — أنها

موشكة أن تظهرَ على سرّ الحبّ ، وتنعم بالتحليق فى آفاقه العليا ، فى حينَ أن هذا الرجل قد لا يكون أهلاً لمرافقتها خطوةً واحدة فى كشف هذا السرّ العظيم ، فتشعر حينئذ بالإخفاق ، بل بالبغض والاشمئزاز ؛ فإن بكارة الإحساس قد تبقى ظمأى بعد أن تزول بكارة الجسد !

حدّثتنى « هدى » عن هذا كله . . وحدّثتنى عن الحبّ . .

إى وربى ! عن الحبّ حدّثتنى . . كم قالت وأعادت إن الإنسان ما خلق ليشقى بحبه ، ويعانى كبح جماح لذاته . . إنما خلقنا لننعم بأطايب الوجود . . والحبّ من الأطايب المريئة ، بل هو زهرةَ الطيبات !

وإلى اليوم ، وبعد مرور ما يقرب من ربع قرْن ، لا يزال صوت « هدى » يرن فى سمعى ، ويتردّد صَداه فى خاطرى ، وهى تقول فى عبارة عميقة تقصر عنها هذه العبارات :

هل غاب عنك لماذا يغرّد البلبل وتتألق الزهرة ، ويجرى النّهر حثيثاً إلى مصبه ؟ ! . . إنه الحبّ يدفعها إلى التغريد ، والتألق ، والانسياب . . فالبلبل لا يسترسل فى أنغامه إلا صَبوَةً منه إلى أليفه ؛ والزهرة إنما تتفتق ، وتتبرّج ، هياماً منها بصدر يترصّع بها ، أو بنسيم ينشر أريجها ؛ والنّهر إلى البحر ينطلق ، لفرط ما يتشهى الذوبان فى أحضان معشوقه ، خدين الأبد ! . الحبّ . الحبّ فى كلّ شىء ، وفى كلّ زمان ، وفى كلّ مكان . . ما العالم غير عباب من كلف ووَجد ! وأين تبدو المسرة إن لم يكن حب وعشق ؟ ! وما قيمة الذّكريات لا تملؤها أحاديث الحبّ ؟ ! وما الشباب ، الشباب الجميل ، لا تحركه ثورات الحبّ ؟ ! وما القلب ، القلب الحىّ ، لا يخفق لترانيم الحبّ وموسيقاه العذبة ؟ ! ما الحياة كلها بدون حبّ ؟ ! . . إننا ما تهادَينا إلى الحياة لنشيح عن مواردها العِذاب ، بل لكى نلتذّ بخير ما فيها ، ونستمتع بما نهوَى ونحبّ . .

كانت « هدى» تحدثني عن الحب ، فتطنب وتفيض ، وتتغنى باللذة الموفورة ، وأنها لايتورع عنها غير البله والعاجزين ! . . وكنت أنا أبيت أفكر فى أحاديثها ، وفيما تعرض به ، أو تقصد إليه ؛ وأسائل نفسي : أأبله أنا ؟ ! أعاجز أنا ؟ !

ثم هاج الشوق الطماع ، واستبد بى الهوى القهار ، وثارت نزوة الوله القاصم ، وأخذت على الرغبة الطاغية كل تفكيرى ، فما شعرت بما فعلت ، حين وجدتني — ذات مساء — أقفز الحائط بين السطحين ، وأحتضن « هدى » . وكانت هذه أول مرة تلتقى فيها شفتاى بشفتى امرأة ؛ فغمرتني نشوة وسعادة ، وأحسست ساعتها كأنى أعرف « هدى » منذ زمان بعيد : أعرف حبها ، وطعم قبلاتها ، وطيب أنفاسها .

وشدتني إليها الغريزة الخفية الكامنة فى أعماقى ، فضممتها إلى فى قوة ، حتى كادت ضلوعها تتقصف بين ذراعى الفتيتين . ثم . . ثم أفلتت فجأة من بين يدى ، وضحكت ضحكة كشدو الطيور ، لكنها أفزعتني ؛ وهرولت تهبط السلم ، وتركتني حائراً مأخوذاً !

كانت الحنكة لم تتمكن من البرعم الرخص . وأنى لى أن أعلم — وأنا الحدث الغر ، الطاهر البرىء — أن ضحكتها دعاء ، وهربها نداء ؟ !

إن الحنكة لا تكون إلا بعد نضج واكتواء !

ضاقت الدنيا فى عينى ، واختنقت بأنفاسى ، وأخذت أقلب زائغ البصر فيما حولى ، وأنا أرتعش تحت وقر الإثم ووخز الضمير . . ثم اندفعت إلى مخدعى لساناً من نار ، فاغتسلت وتوضأت ، وركعت أستعيذ وأستغفر ، وقد فاضت بالدمع مقلتاى ، وتطاير النواح من شفتى ، وخيال الإثم ما يبرح ينهش روحى ، فأحس أنى أحقر من التراب !

أأهوى إلى الوحل ، وأتسفل إلى الحمأة ، وأغيب فى أوضارها ؟ !

يا لسفالة الجسد ! . . آه مما فى اللحم والدم من قبح وشين !

فلتتصاعدْ أنفاسي من بين أضالعي ، ولتهمد نبضات قلبي الذي يستحلُّ الزّنى الفضّاح !

إلهي ؛ إليك أتضرّع فقوّني . . إياك أدعو ، فأغثني من شهواتي الدنيئة . . بك أستجير من نشوات الإثم الصياحة . . أنقذني من الرغبة الداعرة المتغلغلة في دمي . . قوّني يا ربّ ، لأدرأ كبوةَ الجسد عن عفة الروح . . ربّ ، (إلاّ تصرّفْ عني كيدَهن أصبُ إليهنّ وأكنْ من الجاهلينَ) !

٥

كنت واحداً من قوم موسى ، إذ قالوا له : (اذهب أنتَ وربُّكَ فقاتلاَ إنا ها هنا قاعدونَ) ! فليفعل الله وحدَه ما شاء لصيانتي من الإثم ؛ أما أنا فقد كنت أدعوه بلساني ، لينتشلني من الهوّة التي أوشك أن أتردّى فيها ، على حينَ كان قلبي يتوسل إليه ألاّ يحول بيني وبين قرارها السحيق ! فقد كانت كلّ دقيقة من الدقائق العشر التي مرّت على ميعاد لقاء « هدى » ، في اليوم التالي ، جبلاً صلداً من الزّمن يجثم على صدري ، فيكاد يوردني موارد الهلكة الهلكاء !

وقلت أعلل نفسي في التنصّل من يمين قطعتها ألاّ ألقى « هدى » بعدُ أبداً — قلت : أواجهها بالقطيعة ، ثم أعود لا ألوي على شيء . لكني حين افتقدتها في مظانّها ، زاد حرصي على لقائها ، موهماً نفسي بأني لا أفعل هذا إلا لأستطلع طلعها وحسب ؛ فلبثت في مكاني ينشرني القلق ويطويني ، حتى إذا سبقها إليّ عطرها الفوّاح لم أحس إلاّ وأنا أضمها بين ذراعيّ ، فإذا هي تريح رأسها على صدري وتهمس : أحبك

يا « عبد الرحمن » ! . .

وأجابتها دموع الفرح والسعادة تنهمر من عينيّ ، فتصيبها منها قطرات !

ولم تطلْ وقفتنا ؛ فقد كفانا — على ما يبدو — ما فلنا من هناءة تضيق عنها الأرض والسماء ، والأعمار الطوال !

* * *

ثم صال الجمال صَوْلته ، وتفنن في الإغراء ؛ وتناهت « هدى » في استهوائي بما تلألأ فيها من الصّباحة الريّاً ، وبما أسبغ عليها الخلاق العظيم من فاتن الآيات ؛ فاستباحت لي بحور عينيها ، ونضْرَة قسماتها ، وجيَد عنقها ، ورقة خصْرها ، وبضاضة ذراعيها وساقيها . . ولا عجب ! فقد جمعتْ « هدى » من الفتون ما لا يتماسك حياله ذو خفقة من جنان . . ففي روحها خفة ، وفي قوامها فتنة ، وفي حديثها سحر ، وفي صوتها أرْخم الأنغام . . قد علا جيدها ونهدها وجبينها ، وضَحكت الصّباحة في قسماتها . . نجلاء العينين كأنّ في نظراتها نصالاً رهافاً عجالَ الفتكات ؛ أسيلة الخدّين كأن وجنتيها ما خلقتا إلاّ للقبل الماتعة القطاف . أما شعرها الأسود العاري فثلة من دجى لم يتسعْ لليل المفترّ الثغر أن يحوشها ، وهو يلملم نفسه فراراً من ضوء النّهار !

ولم تكن « هدى » لتحجبَ عنى فتنةً من هذه المفاتن ، بل لقد طالما زَهتْ بها وافتخرت !

وتمرّ الأيام . . ويمسى قفز الحائط بين السطحين أمراً سهلا ، لا أنا أهابه ، ولا « هدى » تجزع منه ، أو تضطرب له . .

وكان على سطح بيتنا — عدا الشقة الصغيرة التي أقمت في إحدى حجراتها — حجرة أخرى كبيرة ، يتكدّس فيها الأثاث القديم والفائض عن الحاجة ، ويعلوها برج الحمام ؛ فنقلت منها إلى سطح منزل « هدى »

أريكةً من الخيزران ، وضعتْ هى عليها وسادةً أغنتْ عن الحشيّة ، كنا نتناجى عليها ، فى حمى نخلتين متعانقتين !

وفى ليلة من ليالى أغسطس الملتّهبة ، وكان القمر بدراً ، هاجنى الشوق الملتاع ، فلم أنم ، وهاجت « هدى » الشّهوة القاهرة ، فنفرَتْ إلى السطح . . ؛

أحسست حركتها ؛ بل أوشك أن أقول إنى شممت ريحها ؛ فما إن رمتْ شباك حجرتى بحصية حتى قفزت من فراشى ، وهرولت إليها ، فإذا سناها — فى وهمى — يكسف نورَ البدر !

جعلتْ تنظر إلىّ بعين ذليلة ؛ ويدها البضّة البيضاء ، الطويلة الأنامل ، اللماعة الأظافر ، تداعب شعرى الأسود الغزير ، وهى تقول فى صوت أغنّ : « عبد الرحمن » . . لم أستطع النوم من شوقى إليك . . حبك عذّب قلبى ، وطرّدَ الغمضَ عن أجفانى . . تعالَ . . تعالَ يا حبيبى نسهر معاً . . أنا وحدى الليلة ، فقد ذهب « عزيز » ليحقق فى حادثة قتل ، فى قرية بعيدة ، ولن يرجع إلا فى الصباح ؛ وذهبتْ « فطومة » الشغالة إلى أمها من المغرب ، وستبيت معها ؛ وأبيت أنا ليلتى كئيبةً وحيدة ؛ فتعال آنسْ وَحدَتى . . تعالَ أسعدك وتسعدنى . .

وأمسكتْ بيدى تجذبنى نحو السلم . .

* * *

كثيراً ما كنت أتمنى فى أحلام اليقظة أن تقع « هدى » بين أحضانى . وإن أحلام اليقظة لتحلل الحرام ، وتدوس المقدّسات ، وتستهين بالأعراف ؛ فكأنها الانتقام السلبىّ للفرد من ممنوعات الدّين والأخلاق والأسرة والجماعة ؛ ولكنها تظلّ أبداً أحلاماً ، بل أبعد من أحلام ، لا ينهض لتحقيقها حتى رؤى المنام ! فإذا أنا وجدتّها الساعة تتحقق

فجأة ، وبغير مقدّمات ، فإنى قد شعرت فى اللحظة نفسها بهذه الممنوعات من الدّين والأخلاق والأسرة والمجتمع تذهب جميعها متكاتفة ، لتقف سدّاً منيعاً يحول بين تلك الأحلام والنفاذ ؛ وإذا أنا أجدنى تمثالا صخريّاً فقدتْ كلّ ذرّة من ذرّاته القدرةَ على التحرّك والاستجابة . .

بهتّ ولجلجت ، وتقهقرت كالبغل الحرون ، وقد تندّى جبينى عرقاً ، فاستطردتْ : إيه . . ما لك ؟ . . أنت خائف ؟ ! . . لا ، لا . . اطمئنّ ، ولا تخف ، فقد دبرت أمرى . . اطمئنّ ، و « حطّ فى بطنك بطيخة صيفى » !

لكنى لم أزْدَدْ إلا جموداً ! . . وأخيراً تكلفت أسلوب « الشيخ » فى النصح والإرشاد ، لأخرج من هذا العىّ الذى استبدّ بى ، فقلت وأنا أسحب يدى من يدها : « لا ، يا « هدى » . . تبصّرى فيما تقولين ، يا حبيبتى .

اهتزّتْ فى وقفتها ، وارتجفَ بدنها ، وتهاوَتْ يداها إلى جانبيها ، وكمد لونها ، وتقلب على وجهها ألوان شتى ؛ وخيل إلىّ أنها تكاد تسقط مغشياً عليها ، ففتحت لها ذراعىّ ، فارتمتْ على صدرى تضطرب وتشْهق . .

كنت مشغوفاً ولهان ، لكنى خائف مرتْبك ، تطير نفسى شعاعاً ، فتمتمت فى لطف وعطف بهذه المعانى : « هدى » . . ما أسعدنى وأنا أضمك إلى صدرى ، وأنشقَ أرجك . . إنّ فيك لشذّى فاتناً يغيب فى تلافيفه الحسّ مخدّراً ! . . واحنينى إليك يا منى القلب ! ولكن . .

قاطعتنى قائلة : وما يمنعك يا حبيبى ؟

وردّ عليها منى التهيب واتقاء الفضيحة : العفة الفاجرة ، والإيمان الملحد !

فتابعتْ : ما يناديك قلبك ؟ !

فاصطنعت التعقل ، وقلبي يقذف بالحمم ، فحاججتها مموّهاً : هناك — ويا للأسف ! — ما هو أقوَى من القلب . .

— أنا لا أعرف شيئاً أقوَى من القلب . .

— صحيح ؟ ! . . ألا تعرفين العقل ؟ !

— العقل ؟ ! . . عقلي يسألني : ما يصْرفك عني ، وهأنذا قد هِتُّ لك ؟ !

ولم أشأ أن أعترف بالخوف من ضبطي متلبساً في مخدعها ، فتسمني بالجبن ، ويفتر الحبّ ، فاسترسلت : حرام أن نطمس وجه الفضيلة بالخطيئة . . حرام يا « هدى » . .

رفعتْ رأسها في دَفعة ، ومسدَت شعرَها ، وحدَقتْ إلى وجهي برهة ، ثم أطبقتْ أجفانها ، وضربت بيدها على صدري ، وقالت في صوت يفيض بالذّلة والغيظ ، ويرشح بالكبرياء والإنكار : أتصدّ عني يا « عبد الرحمن » ، وأنت مصْدَرُ لوعتي وغرامي ؟ ! أيّ قلب من صخر يستقرّ في صدرك ؟ !

— لا ، يا « هدى » . . أنا لا أصدّ عنك . . ليتني أستطيع أن أشقّ صدري ، لترَيْ مكانك في قلبي . . إن قلبي لا يخفق إلا بحبك ، وإن عيني لا تهوَى إلا مرْآك . . فيك وحدك أماني وأحلامي . . فيك وحدَك لذّاتي وأوهامي . . آه ! . . لو عرفت يا « هدى » ! . . من علّمَ القلبَ شهيّ الهوَى ؟ ! من هدَى العينَ روائعَ الفتنة ؟ ! من لقن الأذنَ شجيّ النغم ؟ ! من ألهمَ الفمَ حلوَ هاتيك القبل ؟ !

— ما أحلى كلامك يا « عبده » ! يا ليت قلبك مثل لسانك ! هيه ! زدْني من كلامك الحلو يا « عبد الرحمن » . .

— أنت الوَحي يا « هدى » ، ومنك الإلهام . . يا لسحر الأنوثة

المنبثّ فى أعطافك ! ما أروعه ! . . يا لصراخ الهوَى المنبعث من أجفانك ! ما أبلغه !

— هأنذا ، يا حبيبى ، بين يديك . . أنوثتى ، أعطافى ، عيونى ، قلبى . . كلى لك يا « عبده » . .

— لا أقوَى ، يا « هدى » ، على شدّة حنينى إليك؛ فأنت جارتى ، وفى حماى . . حرام يا « هدى » ، حرام !

وأنطقها لهيب النزوة العارمة بهذا التزييف : أين الحرام فيما أدعوك إليه ؟ . . أنت تنظر إلى الأمر بعين الوَهم ، فيخيل إليك أنك تخرج على العفة والطهارة ، وأنك تطعن جارك طعنة قاتلة ، إذا جلستَ إلى زوجه ساعة ، تهوّن عليها غربتها ، وتؤنسها فى وحدتها . . لا ، لا . . الحرام أنك تعذّب جارتك وحبيبتك ، وتعذّب نفسك يا « عبده » . . وإذا كنت أنا فى حماك فهل يصحّ أن تقسوَ علىّ ، وتتركنى وحيدة كئيبة لأجل زوج عربيد مستهتر ، مثل « عزيز » ؟ ! . . تعرف ؟.. ولا ليلة يرجع إلى البيت إلا بعد أن ينتصف الليل . . وكم ليال كثيرة باتها بعيداً عنى ، بحجة التحقيق فى الحوادث ، ولا يسأل عن الكلبة الحارسة شرفه ، تبيت وحدها ودمعها على خدها !

اضطرب جسمى وقلبى وعقلى ، وأحسست — و « هدى » تدعونى إلى الوقوف منها موقفَ العشيق — أنى أُدعى إلى عالم لا صلةَ لى بمعالمه ، فتقهقرت إشفاقاً ، وقلت مراوغاً : لنظلّ فى حبنا على وضاءة ، فننعم بوصال الروح.. إنّ فى عناق الأرواح من اللذة ما يمّحى بإزائه التصاق الأجساد بالأجساد . .

وجهرت فى عنف : لماذا تريدين أن نسقط فى هاوية الإثم ، ونتمرّغ فى وحل الخطيئة ؟ !

ساءها ما أعرض عليها من حبّ جافّ ظمآن ، فاغرورقت مقلتاها ،

وقالت : لمَ تلقى حبى بالصدّ والنفور ؟ ! . . أنا لك الينبوع النمير ، والضوء المنير !

وهزّتنى بيديها كلتيهما ، وحدّقت إلى عينىّ ، وقالت : انظر . . أما تغريك عيناى الدّعجاوان ، وقد ارتسمتْ فيهما جواذب السحر الحلال ؟ ! . . وجبينى المشرق هذا ، أما تنبسط لك فيه دنيا من أنس وصباحة ؟ ! . . وشعرى الفاحم المسدول على خصْرى ، أما تفوح منه فى أنفك رائحة معطار ، تجذبك إلى الاستزادة من أعرافها ، وتدعوك إلى الالتحاف به ؟ !

وارتمتْ فى أحضانى ، وقبلتْ شفتىّ ؛ وعادت تهزّنى ، وأنا مأخوذ بسحر جمالها وحديثها ؛ وقد أمسك بى شىء عن الكلام والحراك ، فغدَوْت تمثالا للأسَى لا يتزحزح عن ربضَته . . فهزّتنى ، وقالت : ما لك ؟ . . خرست ؟ !

ونهضتْ وقد قبضتْ على يدى ، وأخذتْ تجذبنى وهى تقول : قم . . تعال ، تعال انزل معى . .

وقفت وقد أطرقت برأسى إلى الأرض ، وصحت فيها — وكأنى أصيح بنفسى الجبانة : لا أستطيع يا « هدى » ، لا أستطيع . . أنا لا أستطيب هذا الحبّ الملطخ بالدّرَن . . نفسى تنبو عن الخيانة . . لن أدنس حبك بشهوة محظورة . . هذا حرام ، حرام يا حبيبتى !

نظرتْ إلىّ نظرةً ارتعشتْ لها أعماقى ، وقالت فى غيظ حبيس : كنت أظنك « رجلا » ذا عقل راجح . . لكن يا خسارة ! تغير رأيى فيك . . ما أنت إلا « ولد » جاهل أحمق ! . . أضحى من أجلك ، وأعرض عليك مفاتنى ، فتخاف وترتعش ؟ ! . . هذه بلاهة أعيذك منها . .

وترقرقتْ عيناها ، وارتجفتْ شفتاها ، وقبضتْ بيد مرتعشة على ذراعي قبضةً قاسية ، وصاحت وقد تنمرت ، وانقلبت سحنتها ، وغاضت رقتها : أيكون نصيبي منك الاستهانة بعاطفتي ، يا أبله ؟! . . أضامن أنت أن تلقى واحدة في جمالي وحبي وإخلاصي ؟! . . أضامن أنت أن تقابل حسناء مثلي تعرض عليك نفسها وقلبها ؟!

وحدّقتْ إلى ناظريَّ ، فقرأتْ فيهما خشيتي منها ، وتبينت تقهقري عنها ، فهتفت : تهرب مني ؟! . . ماذا يخيفك من التي تحبك وتستعطفك ؟ . . أتراني أتجنى عليك ، وأنا أصارحك بحبي ؟! . . كن منصفاً يا « عبده » ، ولا تقتلْ قلباً يحبك ويشتاق إليك . . أنت صغير تجهل الحبّ ، وتجهل عذابه . . وأنا أحبك ، فارحم فؤادي . . إني لأعجب لنفسي أن أحببتك في ومضة ، وأنا التي كنت في القاهرة أسخر من المتعبدين بجمالي ، وأنفر منهم كلهم ، وأضحك ضحكة السخرية والاستخفاف ! . . ما كنت أظنّ الأيام تنتقم مني ، وتقضي عليّ أن أحبك أنت ، فتذلني هذا الذلّ . . « عبده » ، كن كريماً يمنح ، ولا تكن جلاّداً يذبح !

كنت أيامئذ — كما قالت « هدى » — أجهل وقع الحبّ في النفوس ، فما اهتزّ قلبي من قبل بدبيب الوله ، ولا ذلّت نفسي لحسناء ؛ فشدّدت في استبقاء برقع الحياء ، وربّتّ ظهرها ، وحدّقت إلى عينيها الدامعتين ، وقلت قولاً لا أدري أجادّ أنا فيه أم هازل ؟ أكان مأتاه استهوال الفضيحة وازدراء العشير ، حين ينكشف المستور ؟ أم كانت دوافعه ترفعي عن خيانة من يراني أهلاً للثقة والإجلال ؟! . . قلت : « هدى » . . أنا أهواك . . ولن يتفقَ لي أن أقعَ على من تساويك في الجمال ، أو تدانيك في البهاء ؛ فإن الطبيعة تعجز عن صوْغ نظيرتك ، بعد أن استنفدتْ وسعها ، وبذلت جهدها فيك . . غير أني — مع اضطرام

الفتوّة بين أضالعي — أراني لا أميل إلى الفاحشة ؛ فليس الحبّ عندي مرادف الخطيئة والمعصية . . حسبنا هذا اللهو البريء يا « هدى » . . إن للأرواح أن تتصابى ، بدون أن تنحدر إلى بؤرَة الغواية . .

قالت وقد رَجفتْ على أهدابها دمعة حارت بين التعلق والهميان : أنت تزيد كرْبي . . . نفدَ صبري يا « عبده » . . أحبك . . أحبك . . فلا تعذّبني . .

ودّل مظهرها اليائس على مقدار تداعيها ؛ وراعني أن أبصرها في هذا الانهيار الأسيان ؛ وصَمّ عزمي على أن أهمّ بها . . غير أني لم أكد أنقل رجلي حتى خذلتني كلّ ذَرّة في كياني ، وتكوّمتْ ركاماً يسدّ عليّ الطريق ، فلم أستطع حراكاً . .

ونشبتْ في أعماقي حرب عنيفة بين نزْوَة البدن ، وفوْرَة الروح ؛ وأحسست روحاً تجنح إلى الشرّ تتماكني ؛ فأنكرت نفسي ، وأبيت روح الفساد التي تعصف بوجداني ، وتعبث بإيماني ، وتزلزل القيمَ في عقلي ، وتدفعني إلى الخطيئة . . ورأيت ألاّ مهرَبَ من هذا الصراع الصاخب إلا في الفرار من هذا المكان . .

وبقوة شماء بدّدت عني كل ونية وتردد ، تسلقت الحائط ، وهرولت إلى حجرتي حائراً كئيباً ؛ لا الحسن يجذبني ، ولا اللهو يشوقني ؛ ولا أصغي إلى هتافها الذليل ، أو أبالي بالدمع الهامي ؛ واللوعة الصياحة . .

٦

الحيرة تتملكني . . الحيرة من نفسي ، والحيرة من مصيري ، والحيرة من هذا الغرام الذي لا يخبو له سعير . . وكم حاولت أن أجد في قرارة

نفسي مكاناً للراحة والاطمئنان ، وأن أصل إلى حل يحفظ لى حبى الأول طاهراً نقياً ، فلم أفز بشيء ، وإنما كانت تتراكم على عقلى وقلبى ظلمات بعضها فوق بعض ، فإذا ما أفقت إلى نفسى علمت أنى أوشك أن أنزلق إلى الهاوية ، فأستغفر وأستعيذ ، وأقف بين يدى الله خاشعاً متضرعاً . .

كنت أقضى الليل أبكى وأصلى ، فقد علمنى أبواى — يرحمهما الله — أن الصلاة تقصى عنا نوازع الشيطان ، وأن أكبر الكبائر — بعد الشرك بالله — القتل فالزنى ؛

ونهكت نفسى فى الصلاة ، وفى ترويض جامح هواى ، أحاول أن أطرد من نفسى الشعور الجديد الذى يهدد عزيمتى بالخور والتردد ؛ فلا أكاد أحس الفوز والظفر حتى أتعثر وأكبو ؛ ويطوى القهر جناحى ، فأبكى وأصلى .

كنت أيامئذ قد قطعت ربع عامى السادس عشر ، فتى وسيماً ، سوىّ الخلقة ، قوىّ البنية ، ممتلئ الجسم ، يحسبنى الرائى قد جاوزت العشرين . وعلى فورة دمى والتهاب فتوتى كنت من المتجانفين عن الخلاعة ، طاهر القلب والجسد ، لم أدرج فى نهج الصبابة ، ولا سرت فى درب الهوى . . . كنت أعشق بخيالى لا بجسدى ، وأحب بروحى لا بثورة اللحم والدم ؛ لكن « هدى » لم تكن لتقنع بهذه المتعة البتراء ، وإنما تصبو إلى اللذة الكاملة ، والنشوة الدهاق !

أكذب إن قلت إنى لا أشتهى « هدى » كما تشتهينى ؛ فإنها قد أضرمت فىّ ناراً موقدة . . ولقد جهدت جهدى لأتقى هذا الحب الفاجر ، فإذا هى قد سدت علىّ سبل النجاة . .

تتزاحم الصور فى عينى ، وتتتابع المعانى فى فكرى ، وتتوالى الأحاسيس على قلبى ، ثم تذوب كلها ، وإذا « هدى » فى عينى حسن ، وفى فكرى

سحر ، وفى قلبى فتون ؛ وإذا طيفها رفيقى وقائدى أينما اتجهت خطاى ؛ وإذا هو يشاطرنى طعامى وشرابى ، وأرقى ومنامى ، لا ينصرف عنى حتى فى خشوعى وصلاتى . . ولكم حاولت سلخه من ذهنى ، فإذا هو يرسو فى جنانى ، ويستقر أثبت من الجبال ! . . يا له من عشق شرير نهيم !

* * *

وطال أمر الهوى المشدود العنان . . وكلما مر يوم على هذا الوصال المعتلّ ، الواهب من اللذة أطرافها ، المانع غواليها ، شعرت « هدى » بضرام غرامها ، واسترسلت فى خنوعها ، ترضى كظيماً بالمتعة المبتورة ، ولا تستطيع أن تغرف من الهوى إلا بمقدار !

ثم . . ثم قهرت حلاوة المعصية حرمة الطهارة والعفة ، فإذا كل ما يختلج فىّ من حس يهيب بى أن ألبى نداء الإثم !

حقاً إن القلب يرجح العقل قوة واندفاعاً !

* * *

وما أرانى أمهد العذر لنفسى حين أقرر أنها بدت أمامى أجمل من دمية ، وأسنى من كوكب ، وينبوع رواء يفيض بالسحر ، ويزخر باللألاء ، وروضة معطرة بأنفاس الربيع ، ينتشى منها القلب والجسد . . نعم ؛ كانت الحياة كلها تضحك فى عينيها ، فتسلم النفس إلى الرؤى الجميلة ، وتحيطها بالأحلام اللذيذة ؛ وكان صوتها يتناهى إلى أذنى عذباً ناعماً ، فى جرس مختلف ، يفيض حيناً بالقوة الدافقة ، ويشبه حيناً حنين الريح المتلاشية ؛ لكنه فى كلتا الحالين يشبه الأنين الحزين الذى يعلو حتى يصير صيحات مدوية ؛ فاستولت على فؤادى ، ومست أوتار قلبى ، وهزت كوامن نفسى ، حتى أمسيت جسداً نشيطاً ، وعقلاً سليباً يهمس إلى القلب ، وينسى كل القيم والمثل ، ويطرح كل أوامر الشرع ونواهيه ،

فلا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يفهم شيئاً مما يراد به !

وقرأت « هدى » فى قسماتى الاضطراب الذى غمر نفسى ، والوهن الذى نزل بصلابتى ؛ وعلمت — بغريزة الأنثى — ما ملأ عينى من رغبة تضج وتصرخ ؛ فجذبتنى إليها فى دلال رفيق ، وقبضت على يدى ، وتهادت بى إلى السلم ، وهى تقول : تعال يا « عبده » . . تعال . . لا تخف ، ولا تخش شيئاً . .

وتبعتها كحمل يساق إلى الذبح ، وهو لا يدرى !

وفى حجرة مزركشة الجدران ، وأمام سرير صقيل من خشب الورد ، رصعه براق الصدف ، ونقشت عليه التصاوير ، ونشرت فوقه أغطية من الحرير الأحمر ، كأنه أتون يتضرم — وقفت مرتبكاً ، خائفاً ، تائهاً . . دقات قلبى تعلو وتسرع ، وبدنى كله يرتعد وينتفض كأنى محموم ، ونظراتى قد انعقدت ، كأن الذهول يأبى على الأهداب أن ترفّ !

وقفت لا أعرف ما سأصير إليه ، ولا أدرى كيف أستحل ما ليس يندّ عن ذى بصيرة ، مهما ران على حجاه الصدأ ! . . وقفت وقد رسخ فى قلبى أن الحب ذليل ، وأن الجسد — على ما يتحلى به من زهادة — يطفئ وضاءة الروح ، ويهيض جناح الزهو فى أعطاف الضمير !

ومضت الدقائق كأنها دهر طويل ، و « هدى » واقفة أمام غلائلها المنشورة فى خزانتها كقوس قزح ، حتى انتخبت غلالة حمراء شفافة . .

ها هى ذى ساعة نحر المقدسات قد علا رنينها ! . . سينتصر الحب ويسود ، وتنتشى الأنفس الوالهة ، وتنعم الحواس جميعها ! . . فلتنقشع عن محياى هذه الغمامة الدهماء ، ولأنفض عن خاطرى الأكدار والمخاوف ؛ فليس لقلب يخفق برعشة الحب أن تعترضه الحواجز والسدود ! . . لتصفق الحمائم بأجنحتها ابتهاجاً ، ولتخشع النخيل والأشجار إجلالا

للحدث المرموق الوشيك الوقوع ؛ فالحب هو مضرم وهج الشمس ، وهو دعامة الوجود ! . .

تمايلت « هدى » فتنة ودلالا ، وطوقتنى بذراعيها ، وضمتنى إلى صدرها فى شوق ولهفة ، وأدنت فمها من فمى ، واستراح خدها على خدى . . . .

ولست أرانى أستمتع — على الدهر — بمثل ما نعمت به ، فإنى لم أعرف ساعة ألذ من تلك الومضات الخفية على صدر « هدى » ، وفى أحضانها . أقول « ومضات » لذوبانها على عجل ، فطالت وتهصرت ، وكأنها شرارة ما إن تلتهب حتى تنطفئ !

ما عسى أن يقول الشاعر ؟ وماذا فى وسع الفنان أن يرسم بريشته المبدعة الصناع ؟

اللغة . . اليراعة . . الريشة . . النغم الحنون . . كل أولئك — فى هذا الموقف — عقيم ، وكل أولئك قاصر لم يبلغ الرشد ، وما هو ببالغه ! . . وكيف تصور رقصات القلوب بين الجوانح ؟ !

إن هذه اللحظة قطعة من الخلود ، وفلذة من النعيم ، لها لغتها الخاصة التى حسب الناس أن يحسوها ، أما الإفصاح عنها فلن يكون إلا من قبيل تلك الشطرات الشعرية الوجيزة التى يهتف بها الكروان ، أو من قبيل تلك الأشجان المطولة والمآسى الضافية ، تقصها بنات الهديل فى الأسحار والآصال . . إنها لحظة يلتقى عندها الإنسان بالطير والحيوان ، فهى ذوب الحياة كلها ، والتقاؤها عند ألفها الأولى !

ووقفت أحدق إلى « هدى » وهى تتمطى فى فراشها جذلى ، وشفتاها تهمسان بألفاظ لم أتبينها ؛ لكنها كانت — ولا ريب — ألفاظاً عذبة ، تنغمها النشوة والوله والانشراح ؛ فأحسست كأن دماغى قدر تغلى . .

فهذا الذى أقدمت عليه ليس حباً . . إنه رجس من عمل الشيطان . .

إنه أنكر معصية أرتعد هولا لقباحتها الصادعة ، وشناعتها الدميمة . .

يا لفجيعتى ! .. طارت طهارتى فى الزنى الزنيم ! .. ألا ليت حياتى كلها قد طارت فى تلك النشوة ، لئلا أكابد تبعة ما أقدمت عليه من شناعة ، وإن كانت مبطنة بصفى الرغد !

وزخر صدرى بأحاسيس شتى ، وتزاحمت فى رأسى خواطر متباينة ، حتى اشتبهت علىّ السعادة بالشقاء ، فتلقيت بشفتى لآلئ غالية تحدرت على خدى . .

عفوك يا رب عن لاحس المبرد ، وما يمتص سوى دمه !

وضعت يدىّ على عينىّ ، وصرخت . . وعدوت إلى السلم حزيناً أعول وأنوح . .

وقد أبت علىّ الاستقرار الحرقةُ الآكلة جنانى ، كأن فى صدرى جمرات تلسعنى ، وتذيب أنفاسى ؛ فما إن أجلس حتى أنهض ، وما إن أنهض حتى أحس أنى أشتعل كبركان ثائر . . ووددت لو أموت ، وأنجو من هذا العذاب !

كيف غرتنى هذه المرأة ، وغررت بى ، وانتصرت علىّ ؟ ! كيف استحلت دفعى إلى المنكر القبيح ، أغوص فى أدرانه ، وأغور فى أوحاله؟! بل كيف خضعت أنا لها وذللت ، وأطعتها فسقطت ؟ ! . : لا ، لا . . أنا الجانى الأثيم ، وبيدى خرقت عصمتى ، وشوهت فضيلتى ، وهدمت كرامتى ، وأهنت البراءة فى خدرها الحرام ! . . نعمْ ، أنا الجانى الأثيم ، فالناس لا يدفعون إلى الإثم دفعاً ، ولا يرغمون عليه إرغاماً ، بل ينقادون إليه راضين . . نعم ، إن سقطتى هذه من باب الإرادة ، لا من باب الضرورة ، فأى جناية جنيت على نفسى ؟ ! .. لا عزاء ، ولا سلوان !

ولا أزال — بعد تلك السنين الطويلة — أذكر هذه السقطة الشنيعة وكأنها قد وقعت بالأمس القريب ؛ فمنذ تلك الفعلة أحسست تبدلا يصيب

أعضاء جسدى ، وخلجات عروقى ، ومخ عظامى ! . . ولست أشك فى أن البلبلة التى ظهرت فى حياتى ، واستمرت إلى اليوم ، قد نجمت عن الانطباعات التى دفعتها إلى نفسى هذه السقطة الشائنة !

* * *

اتكأت على رفراف النافذة ، وأسنانى تصرف وتدمدم ، وعيناى تسحان الدمع هتاناً ، والعرق المحموم يسيل قطرات غزاراً . .

كيف أمشى بين أهلى بعد اليوم ؟ . . كيف أرفع عينىّ إلى محيّا أمى الطاهرة وأبى التقى ؟ !

ألا لعن الله ساعة حبوت فيها إلى مدرج الحياة ! . .

وثرت حنقاً على نفسى ، وعلى « هدى » ؛ وأيقنت ألا نهوض من هذه العثرة ، وتراءى لى أننى أمسيت من النتن بما تسد دونه الأنوف كرهاً واستقزازاً . .

وماتت فىّ وضاءة الخيلاء !

أسفاً عليك أيها الصبى البهى ، التقى ، الذى كنته ! . .

لهفى عليك ! . . ما طلبتك ؟ ما الذى يرد إليك هناءتك وبهجتك ؟ ماذا يمسح الدمع عن عينيك اللتين تشبهان الماء والسماء ؟ ! . . من يستطيع — أى خيال الماضى الطاهر — أن يقشع عنك همومك ، ويكشف عنك غمومك ، ويرد إليك طهارتك الضائعة ، وسعادتك الفقيدة ، ومرحك السليب ؟ !

ليتنى أعرف كيف أطهرك بدموع الندم ! ليتنى أستطيع أن أفجر عليك حنانى ، وأغمرك بلوعتى ، لتعود بى طاهراً نقياً ، طروباً سعيداً !

لقد مت أيها الصبى البهى ، وضاع ما كان لك من طهارة وبراءة ، وأضحت ذكراك أطلالا أعودها كلما استلهمت الألم ، وأعوزنى البكاء !

وأسفا عليك ! . . أسفاً على نفسى لا ينتهى !

٧

كانت ليلة نكراء ، من تلك الليالى التى تخرج فيها الشياطين هائمة ، تبحث عن أرواح تقتنصها ، أو أجساد تتلبسها .. ليلة قضيتها صاحياً إلى الفجر ، لا يكاد يغمض لى جفن ؛ فقد كانت خواطر شتى تملأ رأسى ، وتشغل قلبى ، فتطرد النوم عن عينى ..

كنت أفكر فى سقطتى ، وفقدانى طهارتى و براءتى .. وكنت أفكر فى « هدى » وفى الشهوة التى تجذبنى إليها ، والتى أراها لا تنام ! .. وكنت أفكر فى أبى وأمى ..

كنت غريق الفكر ، عميق الهم ، شديد الخوف .. وكان خوفى من أن يكشف ما جرى بينى وبين « هدى » يقلقنى إقلاقاً شديداً ، ويؤرقنى تأريقاً لا صبر عليه ، وكأننى نائم على شوك حاد !

وأحسست أن أنفاسى قد احتبست فى حلقى ، وأنى أوشك أن أختنق ، وأن كل عضلة فى جسدى ترتعد ، وأن موجات الهم والقلق تتدافع إلى قلبى تدافع أمواج البحر الهائج ، فأخذت أبكى بحرقة وغزارة ، وجعلت الدموع تتقاطر على خدى ، وتنحدر على ثيابى ، وأنا فى حيرة من أمرى ..

ارتميت على فراشى متعباً مكدوداً ، مريض النفس ، كئيب القلب ، حتى هبت نسمات الفجر ، وغلبتنى عيناى ، فنمت ..

وأصبحت بادىَ الجهامة ، رخو العزيمة ، دامى الروح ..

تطلعت إلى المرآة ، فإذا لونى قد شاعت فيه كمدة التراب ، كأنما أعانى صعقة داء عضال .. فلم تنته آلامى بانتهاء الليل ، بل زادت حدة

وشدة ، وقد أدمى الحزن قلبي ، وأنضج الأسى كبدى ، حتى رأيتني غير قادر على شيء . .

جعلت أجلس إلى المكتب ، وأتناول القلم ، وأعبث به على الورق ، فأخط هذيان محموم . . ثم أنتفض ، فأذرع الغرفة إقبالا وإدباراً ، وفؤادى من الكرب فى جحيم !

وخرجت إلى السطح ، فإذا أشعة الشمس تملأ الدنيا ، وإذا الجو يعبق بعطر الزهر ، وإذا الأشجار يداعبها النسيم ، فترقص على غناء الطيور وزقزقة العصافير ، وإذا الحمائم حولى تطير وتسف مبتهجة بالصباح الوليد واليوم الجديد !

عجباً ، عجباً ! . . كيف تبزغ الشمس ؟ وكيف يغرد الطير ، ويتضوع الزهر ، وتترنح الأشجار ، وأنا قد فقدت براءتى ، ودنست طهارتى ، وقوضت صرح زهوى وسعادتى ؟ ! . . كيف لا يتسربل الكون كله بلباس الحداد ، ويشاركنى فجيعتى ومصابى ؟ !

كنت أشعر أنى قد تحطمت حقاً ، وأن قلبي قد عصر عصراً ، وانسحق ؛ فاهتز بدنى كله فى بكاء عنيف متصل لا يكاد ينتهى . .

وتحاميت أن ألقى أبى وأمى ، وجنحت إلى العزلة لا أطيق مرأى إنسان ؛ وأوصدت باب الحجرة ، لا أريد أن يفجأنى فى وحدتى خيال . . حتى « دادة قدم الخير » التى أرضعتنى طفلا ، ورعتنى يافعاً ، والتى كنت أجاهرها بما أتحرج من الهمس به فى حضرة أبوىّ ، قد اتقيتها ، وأبيت أن أفتح لها الباب ، لتغير أغطية السرير . .

ثم سمعت من تنادينى ، فهزتنى النبرة فى دقيق عروقى !

هذه أمى . .

لكم أود لو ألقى رأسى على صدرها ، وأبوح لها بما جنيت !

لكن هذا مستحيل . .

. ماذا أفعل ؟ . . أأفتح الباب ؟ أم أبدو غارقاً فى رقدتى ، لا أعى ؟ وإن فتحت فبماذا أسوغ عبوسى وحزنى واكفهرار وجهى ؟ !

لن أردّ — إذاً — على النداء . .

وقلقت أمى ، وأمعنت فى النداء ، وفى دق الباب ؛ فقلت فى لهجة خزياء : من ؟ ! فقالت أمى بجزع الملهوف : ما بلك تنام حتى هذه الساعة ؟ ! . . الشمس تملأ الدنيا . . هل تحس شيئاً ، أو يؤلمك شىء ؟ !

أجبت : دعينى يا أمى . . لقد بليت فى ليلتى بأرق طويل ، وأرانى بحاجة إلى الهجعة . .

فأصرت أمى على أن أفتح الباب ، لترانى ، ويطمئن قلبها . .

نفذت عيناها إلى أساريرى ، وأوجعها ما رأت من كمدة لونى ، واحمرار عينى ، وآمنت بأنى قضيت ليلتى مسهد الجفن ؛ فسألتنى عما ألمّ بى ، فتنكرت لكل إيضاح ، وأجبت خزيان خجلا : يا أمى ؛ شربت أمس كثيراً من أكواب الشاى ، فبت الليل مؤرقاً مفتوح العينين !

ماذا أقول غير هذا ؟ . . إن ما عرانى لا يسوغ فيه بيان ، ولا يجوز أن يطلع عليه إنسان ، بل يجب أن يبقى دفيناً فى صدرى، محبوساً بين جوانحى ، لا ينفرج عن إفشاء . . إنه ملمة مجتاحة ، وعهر قاصم ، وإثم وخيم ، لا يليق أن أنضو عنه الستار . . إنه لطخة سوداء ستظل تحجب عن ضميرى كوى النور !

ربتت أمى رأسى وظهرى ، وأنا متكوم فى سريرى ، ثم قبلتنى طاهر القبلات ، وتهادت عائدة مطمئنة ، تتمنى لى نوم العوافى !

* * *

لقد ذهبت السكرة ، وعادت الفكرة ، وفطنت إلى ما انحدرت إليه ،

وشعرت أن كل ذرة فى دمى قد تلوثت ، وتعفنت ، وشممت الرائحة القذرة تتصاعد من أعماق روحى ؛ ولم يعد لى سوى أمنية واحدة ، تتردد فى خاطرى : أن أتطهر من خطيئتى ، وأدخل الدنيا من جديد ..

كيف أطرح عنى وزرى ؟ كيف أعود طاهراً نقياً ، وأنا كلما أنهكت نفسى فى الصلاة والاستغفار ارتفع تأنيب ضميرى ، وازددت شعوراً بثقل إثمى ، وشدة وطأته ؟ !

أخذت فى وحدتى أناجى وساوسى الدهم ، وأنا أرى الدنيا الرحيبة تضيق عما يزخر به صدرى الطرى من أشجان ، وكأنما الأرض قد زلزلت زلزالها ، وكأنما السماء قد تصدعت دعائمها !

وحننت إلى جلسات أبى وحديثه ، وشعرت بحاجتى إلى استلهام ورعه وتقواه . . وحننت إلى صدر أمى ، ألقى عليه رأسى ، وأشكو إليها بثى وحزنى ، وأهمس فى أذنيها بفجيعتى وغمى . . لكن كيف أرفع بصرى إلى أبوى ، بعد أن أقدمت على هذا العهر المنكر ، وتمرغت فى حمأة الفحش الأخرق والرجس الدميم ؟ ! كيف أرفع بصرى إليهما ، وأنا أرى رأى العين كل عرق من عروقى ، وكل نسيج من أنسجة بدنى ، تجرى فيه لذائذ الإثم والخطيئة ؟ !

ألا ليت الأرض تنشق ، وتبتلعنى ، وتدفننى فى مطاويها الفاحمة ، قبل أن يعلم أبواى أنى زان أثيم ، وهما قد أحسنا تربيتى وتهذيبى !

* * *

ثلاثة أيام قضيتها فى جحيم ، مختبئاً فى حجرتى ، لا أبرحها إلا ساعة الطعام . .

رضىَ الله عنك يا أمى ! . . ما كان أطيب قلبك ، وأرقه ، وأحنه ! . . لقد أنقذتنى من الحرج الذى أحسسته حينما التقيت بأبى على مائدة الغداء ، وسألنى عما بى ، وقد رآنى شارد اللب صامتاً ،

فأسرعت تعللين له هذا العارض بأنى قد أرقت ليلتى ، وأنى فى حاجة إلى الراحة والاستجمام . . ثم أردفت تقولين : التعب بدأ يحل به ، نتيجة للسهر فى الدرس والاستذكار . . أنت نسيت يا « أبا مصطفى » أن « عبد الرحمن » أول زملائه فى الثقافة ، وأنه سيأخذ التوجيهية فى العام المقبل ، ويكون الأول أيضاً بإذن الله ؟ !

ما أطول هذه الأيام الثلاثة ! . . لقد قضيتها حليف الحزن ، والندم ، والرغبة !

نعم ؛ كانت تتنازعنى انفعالات متباينة : إقبال وإدبار ، توبة ومعصية ! . .

لكم حدثنى الشيطان ، بلسان الأمارة بالسوء : ما هذا الحزن الذى تلف فيه نفسك ؟ . . أتظن أنك كئيب لفعلتك ؟ . . لا ، لا . . لا تخادع نفسك . . إنما أنت تخاف أن ينكشف أمرك ، ويفتضح سرك ، وتحرم ما تذوقت من لذات . . ألست ترى لوائح الحسن تخايل عينيك ؟ فماذا لو التمست نهلة أخرى من هذا الينبوع النمير ؟ . . ماذا لو قطفت زهرة ثانية من هذا الرونق الزاكى الأريض ؟ . . أما تشوقك الكأس السائغة ، وسلافتها الشعشاع ؟ !

وفى هذه الأيام الثلاثة كانت « هدى » لا تفتأ تضرب شباك حجرتى بالحصيات غير مرة . . فى الصباح والضحى ، وفى الأصيل والمساء . . وكلما رمت حصيّة ارتعشت أنا ، وانكمشت فى إهابى ، وعصرت مآقىّ ، فتنهال دموعى حارة غزيرة !

وكان أخشى ما أخشاه أن تقع عيناى فى عينيها ، فتضعف عزيمتى وأنهار ، وأعود إلى ما تحنّ إليه نفسى من هوى رجيم .

وكان أخوف ما أخافه أن تصعد إلى السطح أمى ، أو « دادة قدم الخير » ، أو واحد ممن يزدحم بهم البيت ، ويروا « هدى » وهى تستدعينى

بهذه الوسيلة التى انتهجتها ، أو يرونى معها ، فتكون الطامة الكبرى .

وفى اليوم الرابع أحسست أنى أشد صبراً ، وأوفر جلداً ، فتهيأت لمغادرة البيت ، والشمس تنعطف على الأفق الغربى فى قبلة الوداع ، فتصبغه بحمرة شفتيها ، والصيف ما برح محموم الأنفاس ..

نزلت من صومعتى ، ومررت بأمى ، فقبلت يدها ، وقضيت معها حيناً ، وقبضت منها ما تيسر ؛ ثم استأذنتها فى زيارة خالتى ، وهممت بالنهوض . .

فى هذه اللحظة كانت « دادة قدم الخير » قد خطت بضع خطوات نحو باب « السكة » الذى يفصل « السلاملك » عن البيت .. ولم تلبث أن فتحت الباب ، وأعلنت مقدم « هدى هانم » حرم « عزيز بك » !

والتقت أعيننا . .

لكم ساءنى ، وآلمنى أبلغ الألم ، أنها كانت تبدو مثال الطهارة والعفاف والنقاء ، وأن مظهرها يشف عن براءة ناصعة ، فلا تلوح عليها خفة أو زيغان أو خيانة ، بل كانت توحى إلى نفس من يراها أنها كريمة الحفاظ ، نبيلة المهزّة !

تركت أمى ترحب بها ، وانقلبت إلى صومعتى ، وعقلى يلعنها .. فلولاها لم تبلغ بى العثرة هذا المنقلب المهين !

وقلت فى نفسى : كيف انقلبت على وضاءتها ؟ ! . . كيف استباحت حمى الفضيلة ، وشمم العفة ، كأنها لا عاصم لها ، ولا ضمير يردعها ! . . ثم عدت فقلت لنفسى : ومن أنا حتى أتحدث عن الفضيلة والرذيلة ؟ ألست شريكها فى الخطيئة ؟ !

٨

كان لا يفوتنى شهود الجماعة ، وأداء الفريضة لوقتها ، فى مسجدنا الكبير القريب من بيتنا ؛ فصار الناس لا يروننى بينهم ساعات الصلاة إلا نادراً . . وارتسمت على وجهى أمارات الهم والاكتئاب ؛ وحالت نظراتى الهادئة المطمئنة ، الملأى بالبراءة والإيمان ، إلى نظرات زائغة مضطربة ، تنعكس من خلالها هواجس تعاسة ممضة ، لا تدرى أيان تستقر ؛ وبدا علىّ نحول عصبى نكرنى لنفسى ولمن حولى ؛ وصارت حركاتى بطيئة قلقة ، وكأنما أمسك الغم الذى يقلقنى بكل عصب من أعصابى ، أو كأنما شلّ القلق الذى يغمنى سلطان إرادتى ، حتى قعد بى عن أن أريد ، وعن أن أعمل !

وكان الكل من أمرى على عمى ؛ فلم يعرف أحد سبب هزالى وامتقاع لونى ، ولا سبب هذه النبرات الحزينة التى تغشى صوتى ، والتى يلمسها فى حديثى كل متحدث إلىّ . . ولم يطلع أحد على السر الذى يجعلنى أضع يدى على قلبى ، وكأننى أحس الألم فى قرارته وأعماقه !

والحق أنى كنت أحس — كلما واجهنى إنسان وحدثنى — أن قلبى يوشك أن يثب من مكانه ، وأن مواجهى سيقرأ فى وجهى السر الذى أطويه فى هذا القلب الباكى الحزين !

أخذ الأهل والأقارب يتطوعون بالرأى والفتوى . . هذا يقول إن الشبان — فى سنى — تنتابهم بعض الأمراض النفسية ، وإن ما بى لا يعدو عارضاً يزول عما قريب ؛ وهذه تزعم أن « العين » قد أصابتنى لذكائى وفطنتى ، ووسامتى وفضيلتى ؛ وتتنصح أمى أن تبخرنى — ساعة

أذان الجمعة — من شر الحاسدين وأعين الناظرين !

ومر أسبوع ، وأنا أجاهد نفسي أعنف الجهاد ، كيلا أرى « هدى » ؛ وهى لا تبرح تضرب الشباك بالحصيات صباح مساء.. والأسبوع فى دنيا العشاق دهر طويل !

وفى أصيل اليوم الثامن ، وأنا أغادر حجرتى وأهم بالهبوط ، رأيتها تضع يديها على الحائط الفاصل بين السطحين ، وتميل برأسها عليهما فى ذلة وانكسار ، وهى تتطلع إلى حجرتى فى شوق ولوعة . .

وما إن وقعت عليها عيناى حتى رُدَّت الروح إلىّ ، وانتعشت انتعاش الزهرة كللها ندى الفجر البسام ، ورقص قلبي وهلل ، وتدفقت إليه الحياة ، وركضت الدماء فى شرايينى تروى كل خلية فى بدنى ، وسالت نفسى حنيناً إلى شهوتها الجموح ، وتغلب علىّ الظمأ إلى نهلة الوصال ؛ فقفزت السور فى خفة ونشاط ، وارتميت على صدر «هدى» وأنا أقول : « هدى » . . حبيبتى . . حياتى . . أحبك يا « هدى » ولا طلعت على شمس يوم لا أراك فيه !

ورددت كلمة أحبك . . وكنت أشعر بها خارجة من أعماق قلبي ، صاعدة إلى شفتىّ ، متطايرة إلى جمالها وظرفها وسحرها . .

وقلت لها ، وكأنى أسمع نصاً من النصوص : « هدى » . . أحبك يا « هدى » . . أحبك حباً أعلى من السحاب ، وأعمق من البحر ، وأصفى من المزن ، وأحر من النار !

وضعت ساعدها فوق كتفى فى صمت ، وألصقت خدها بخدى ، وقبضت على أناملى ، وجذبتنى إلى السلم . . . .

* * *

كانت « هدى » تكبرنى بأربع سنوات ، وتحمل شهادة التوجيهية التى سأتقدم أنا إلى امتحانها فى عام قابل ، وكانت بنت النعمة والحضر ؛

فهى ليست ساذجة فى معيشتها ، ولا غبية فى حديثها ؛ بل كانت ناضجة كل النضج فى جسدها ، وعاطفتها ، وتفكيرها ، وقد وجدت فىّ عجينة طيّعة ، فصاغت منها عاشقاً على هواها ، يؤنسها فى وحدتها ، و يسد الفراغ الذى يخلفه زوجها فى أكثر الليالى ، فقد كنا إذ ذاك فى موسم تكثر فيه جرائم القتل ، وقلع الزرع ، وتسميم الماشية ..

وتركت الصلاة ، واستمرأت هذا اللون الآثم من ألوان الحياة ، وانطلقت فيه متمرداً مجنوناً !

ثم انتهت العطلة . . وفارقت « هدى » وبقلبينا كلينا حسرة ولهفة . .

وتركت بيت أختى الكبيرة « إحسان » وزوجها الطبيب النبيل ، وأقمت مع أخى « حسن » وكيل النيابة ، وزميل « عزيز » زوج الحبيبة « هدى » . .

ليتنى ما تحولت عن بيت أختى ! وليتنى ما أقمت مع أخى ! . . ليت ! . . وهل تنفع شيئاً « ليت » ؟ !

* * *

هؤلاء هم أصدقاء أخى يجتمعون فى شقتنا . . وها هم أولاء يشربون الخمر ويلعبون « البوكر » و « الكونكان » ، وأنا فى حجرتى أتظاهر باستذكار دروسى ، وأذناى تنصتان إلى أحاديثهم الفاجرة ، ونكاتهم الداعرة ، يطلقونها عالية فى غير خجل ، ويقهقهون لألفاظها البذيئة ، وصورها العارية ، فى لذة واستمتاع . .

ومرت الليالى ، وألفت أذناى هذه النكات ، وضحكت لها كما يضحكون ، وطربت كما يطربون ؛ بل لقد تمنيت أن تتكرر هذه الجلسات ، وتتوالى .

وعدت يوماً من المدرسة ، فإذا شقيقى مشغول فى تنسيق الأثاث ، وإعداد المائدة ، وتوجيه الطباخ إلى ما يُعد من صنوف المقلىّ والمشوىّ ..

وعلمت أن لفيفاً من أصدقاء أخي سيتعشون عندنا ، قبل أن يبدءوا سهرتهم ولعبهم . .

ثم بدأ الضيوف يتوافدون مثنى مثنى ، أو ثلاث ثلاث . . كانوا أحد عشر ضيفاً : رئيس النيابة — رئيس أخي — ووكيل « الحكمدار » ، والمأمور ، ومفتش الصحة ، ومفتش الزراعة ، والمفتش البيطرى ، وأحد مدرسى المدرسة الثانوية التى أتلقى دروسى بها ، وأربعة من أعيان أسيوط الأثرياء . .

تحلق الضيفان حول نضدين فى بهو « الشقة » الفسيح ، و بدءوا يلعبون الورق حتى أعدت المائدة ، فانتقلوا إليها فى زيطتهم وضوضائهم ، وجعلوا يأكلون و يشربون ، و يهزلون و يقهقهون ، حتى سكروا وعربدوا . . ثم وقف أحدهم يترنح ، و يهز بطنه كأبرع الراقصات !

منظر كريه مؤلم ، كان أبشع وأشنع ما وقعت عليه عيناى . .

لقد حدث مرة — وأنا فى التاسعة — أن أصابت ابن عمى رصاصات ، فهوى أمام عينى يتخبط فى دمائه ؛ وكنت رديفه على فرسه ، ونحن فى طريقنا من المدينة إلى القرية ، ساعة الغروب ؛ فجرى الذين كانوا فى رفقتنا ذات اليمين وذات الشمال يطاردون الجناة ، وانقطع المرور على الجسر ، وبقيت وحدى بجوار القتيل أعول وأبكى ، وإذا أربعة غلاظ شداد ، يخرجون من بين حقول الذرة ، فيهجم أحدهم علىّ ، ويحتضننى فى عنف يحرمنى الحركة ، فى حين ينهال الثلاثة الآخرون بعصيهم الغليظة على رأس القتيل ، حتى تناثر مخه . . ثم مضوا ما نال رجلا منهم كلم ، ولا أريق لهم دم !

منظر بشع ، لا ريب . . لكن منظر الموظف الكبير وهو يرقص مخموراً ، كان فى عينى أبشع من منظر ابن عمى الشاب السرىّ الفتىّ ، وهو يقتل أمامى هذه القتلة الشنعاء !

لقد نال منى هذا المنظر ، وعقّد نفسى ، وأصابنى بأسوأ مما أصبت به بعد سقطتى . .

وانتقل خيالى فجأة إلى منظر آخر . منظر أبى وهو فى مجلسه الهادئ الذى يضم ذوى العلم ، وأرباب الفضل ، ويعبق بنفحات الإيمان والتقوى ، وأرج المجد والأدب . .

كان أبى عالماً متنسكاً ، كثير الصلاة والصيام إلى حد لم أشهد له مثيلا ، وكان أنيقاً فى هندامه ، وقوراً فى قعوده وقيامه ، ذا جاذبية دائمة فى حديثه . .

وكان — رحمه الله — يستيقظ والفجر ، فيتوضأ ويصلى ، ويرتل بعض آى الذكر الحكيم ، ثم يرتد إلى فراشه ، فينام حتى السابعة ، ثم يصحو ، ويتوضأ ، ويرتدى ثيابه كاملة ، ويتناول فطوره وحده ، ثم يجلس فى « السلاملك » يتصفح جريدة « المقطم » ، الصحيفة المسائية التى كانت توزع فى بلدتنا صباحاً ، ثم يأخذ يقرأ كتب الدين والأدب ، أو يتعبد بتلاوة القرآن ، أو يستقبل الزوار الذين لا يبرحون يتوافدون ، وفيهم رجالات المدينة ، وأعيان القرى المجاورة وعلماؤها . .

وكثيراً ما كان « الشيخ » يستبقى بعض زواره للغداء معه ، فإن لم يكن ثم ضيف — وقلما كان ذلك — تناول غداءه معنا . .

وكنا نرحب باستبقاء « الشيخ » زواره للغداء معه ، ونفرح بمقدم الضيوف ؛ لأن هذا كان يشغله عن الغداء معنا ، ولا يضطرنا إلى تناول الطعام ونحن سكوت لا ننطق ، إلا ما يكون من سؤال قصير وجواب أقصر !

وبعد الغداء يتخفف « الشيخ » من ثيابه ، ويأوى إلى مضجعه ، فيغفو سويعات القيلولة ، فإذا ما استيقظ توضأ وصلى العصر ، وكرر ما كان فى الصباح ، فيجلس فى مقامه يقرأ صحيفة « الأهرام » التى كانت

تصل إلى منفلوط ساعة العصر ، ثم يأخذ يتعبد ويسبح ، حتى يبدأ الزوار يقبلون ؛ وهم طبقة خاصة ، تضم العالم الفاضل ، والمربى الحكيم ، والتاجر الأمين ، والعين السرىّ .. وكلهم يجمع شملهم مجلس «الشيخ» ، حيث يتحدثون ويتناقشون ويسألون ويجيبون ، ويروون اللطائف ، ويقصون النوادر ، ويناقشون أخبار الدولة والعالم ، فلا يغادر أحدهم المجلس إلا وقد أفاد علماً ، واكتسب فضلا .

ولست أذكر أنى سمعت مرة فى مجلس « الشيخ » نكتة يخجل المرء أن يرويها للصغير والكبير ، وللذكر والأنثى ، فهو مجلس الوقار والرزانة ، ومجتمع العلم والأدب الرفيع .

لقد كان بيتنا الكبير يفتح بابه فى الصباح ، ولا يغلق إلا فى ساعة متأخرة من الليل ؛ ولم تكن ترى فيه أو تسمع إلا كل شريف نبيل . .

استغرقنى التفكير . . وفجأة رأيت « مفتش الزراعة » يسقط عن كرسيه ، ورأيت أخى و « المأمور » يتعاونان على نقله إلى السرير ، فى الحجرة المعدة للضيوف . . ثم ما لبث « المأمور » أن استلقى على الأريكة أمام السرير ، وهو فى ثيابه الرسمية ، وغاب فى الأحلام !

وثارت فى أعماقى حرب عنيفة من نوع جديد ، وهالتنى خبائث الحياة ، ونفرت من العيش ، مع كل ما يحفل به من رغادة ؛ وتمنيت لو كنت قطرة حقيرة ، فى مستنقع محجوب ، تبتلعها مراشف الشمس بخاراً ، لاترمقها عين ، ولا يكون لاختفائها صدى !

تكررت هذه الليالى الحمراء ، أو السوداء ، وصارت تقليداً أسبوعياً ، فكنت آوى إلى حجرتى ، وأطفئ أنوارها ، وأضطجع بحيث أرى وأسمع ، وقلبى يثب بين أضالعى ، ونفسى تثور بها الشهوات ، وروحى فى حزن ، وعقلى فى عذاب . .

وليلة مالت الخمر برؤوسهم ، وفقدوا صوابهم وتخدرت حواسهم ،

واعوجت ألسنتهم ، وخرج قيادهم من أيديهم ، وأنا لا أزال سهران أرقبهم . .

وسرت إلىّ العدوى ، وحدثتني الأمارة بالسوء أن أتذوق كأساً من هذه الخمر ، فلعلها تفعل بي ما تفعل بالمأمور ، فلا أعي ، ولا أبصر ، ولا أسمع !

تسللت إلى المطبخ ، وساومت الطباخ أن يأتيني بشيء من هذه الخمرة التي تفعل الأفاعيل؛ فشرط الخبيث أن يأتيني بزجاجة لم يفضّ ختمها ، إذا سمحت له أن يحمل معه ما تبقى بها !

واتفقنا . .

ورحت في غيبوبة لم أصح منها إلا عصر اليوم التالي . .

يا لي من فتى سيئ الحظ ، منكود الطالع ، أحاطت بي زُمَر الغواية والضلال ، فعرفت المرأة الأولى ، وشربت الكأس الأولى ، وأنا لم أتم عامي السادس عشر ! . . والشاب — بعد أن يعرف المرأة الأولى ، ويشرب الكأس الأولى — قل أن ينجو من شر ، أو يفلت من خطر !

٩

لم يصرفني ما حفلت به أيامي في أسيوط عن قضاء عطلة آخر الأسبوع في منفلوط . . وكثيراً ما تمارضت اليوم واليومين ، ليهدأ القلب الولهان ، حتى تأخرت في دروسي ، ولحق بي من كان يعرج ورائي ، وسبقني من كان يلهث ليلحقني ؛ وأخذ النصح والتأنيب والتوبيخ ينصبّ عليّ من أبي ، ومن الناظر والمعلمين ، وأنا سادر في غيي لا أبالي . .

وقبل امتحان التوجيهية بحوالي شهرين فوجئت — وأنا أستعد للعودة إلى

أسيوط ، بعد عطلة نهاية الأسبوع ، بأن « الحاجة » مسافرة معى ، لتزور أختى وأخى ، ولتستشير طبيباً إخصائياً فى «مستشفى الأمريكان».

وأمى — رحمها الله ، ورضى عنها — كانت سيدة جديرة بالاحترام ، خليقة بالتقدير والتبجيل ؛ فهى كريمة الخلق ، سوية الطبع ، معتدلة النفس ، سخية الكف . . . إنها أم فاضلة ، كنت أركع أمامها راضياً مبتهجاً . .

وكانت أمى تؤثرنى على سائر بنيها ، وتخصنى بموفور حبها وعطفها ، غير أنها كانت تعاملنى ، حتى ذيالك العهد ، وكأننى ما زلت هذا الطفل الصغير الذى كانت تدلله وتؤنبه فيما سلف !

حدثتنى أمى — ونحن فى القطار — أنها قد شاءت أن تريحنى من عناء الذهاب والإياب كل أسبوع ، لأتفرغ لدروسى ، وأحقق أملها فى أن أكون الأول فى امتحان الشهادة التوجيهية ، كما كنت الأول فى شهادة الثقافة ، وأنها قد رأت — ووافقها « الشيخ » — أن تسافر معى ، وتبقى إلى جوارى حتى ينتهى الامتحان . .

كان كلام أمى الهادئ البسيط أبلغ من كل نصح وتأنيب ، وأقوى أثراً فى نفسى التائهة ؛ فصحوت من غفلتى ، وجعلت أوازن بين صبرى على « هدى » ومستقبل دراستى وحياتى . . وكنت أملك بقية من عزم ؛ فعلمت أن فى استطاعتى أن أصبر على فراق « هدى » وإن فى مرارة وألم . .

عكفت على الدرس والتحصيل ، وأنا أغالب مراودة النفس ، ولوعة القلب ، وتحرق الجسد ، حتى أديت الامتحان واثقاً بالنجاح ، مطمئناً إلى التفوق فيه . .

ثم عدنا إلى منفلوط . . وعادت « ريمة » إلى عادتها القديمة ! فاستأنفنا — أنا و « هدى » — حياتنا الآثمة فى شوق وصبابة ، وفى تهور واندفاع . .

ثم رأتني أمي . .

كانت أمي قد صعدت إلى السطح ، ومعها « دادة قدم الخير » لتعدا الحجرتين المجاورتين لحجرتي ، استعداداً لاستقبال إخوتي وأخواتي الذين سيفدون إلى البلدة عما قريب ، لحضور اجتماع الأسرة السنوى ، ولقضاء فترة من إجازاتهم في البيت الكبير .

ألقت « الحاجة » نظرة على حجرتي ، ورتبت ثيابي وكتبي المبعثرة ، وهمت بالهبوط ، وهي تظنني أقلب كتب « الشيخ » في « السلاملك » ، أو أشذب الأشجار ، وأروى الأزهار في الحديقة . . لكنها لم تكد تستقبل فضاء السطح حتى رأتني أقفز الحائط كاللص ، عائداً من سطح « هدى » !

فهمت أمي كل شيء ، فقد كان مظهرى أبلغ دليل على جنايتي ، لكنها تظاهرت بتصديق ما زعمته من أن ورقة تهمني قد طارت إلى سطح الجيران ، فقفزت وراءها لالتقاطها ، غير أن الهواء قد ذهب بها . .

وأغنتني نظرتها عن كل كلام ؛ وكان سكوتها أقسى عقاب ؛ لأنه ترك خيالي في حيرة يقدر ما يدور في ذهنها .

منذ ذلك اليوم بدأت أنكر مهد طفولتي ، وملعب صباى ، وأخذت أضيق بما أحيطت به من رعاية ورقابة ! وأهاب بي الارتياع إلى استعجال الهرب ، فحزمت حقيبتي ، وذهبت إلى القرية ، حيث يقيم شقيقي « سيد » ، وسائر الأهل والأقربين . .

و « سيد » هو رابع الإخوة الذكور السبعة ، وقد وقف في تعليمه عند شهادة الكفاءة — وكانت تسبق « البكالوريا » بعامين — ورغب عن الدرس ، ومال إلى الحياة الحرة في الريف ، فوكل إليه « الشيخ » الإشراف على الزرع والضرع . .

وقد تزوج « سيد » فى سن مبكرة ، فحفظ طهارته لزوجته ، ورزقا أربعة أولاد ، يعيش اثنان منهم مع جدتهما « الحاجة » فى « البندر » ويدرسان فى المدرسة الابتدائية . .

و « سيد » مثال يحتذى للمالك الطيب ، ورب الأرض النشيط ، والتاجر الأمين ؛ فهو عف صالح كريم ، يتجر فيما تحت يده من الحلال ، وينفق من سعته ، ويعين الفلاحين ، ويعطف على الأجراء ، ولا يضيف إلى مال الأسرة قرشاً فيه شبهة أو ريبة ؛ فبارك الله له ، ونمت الثروة على يديه ، وأحبه الجميع ؛ ووهب له « الشيخ » عشرة أفدنة مكافأة وتشجيعاً ، ولكى يصير « عمدة » القرية ؛ فقد كان القانون يحتم يومذاك أن يملك العمدة عشرة فدادين مسجلة باسمه ، وإن كان تسجيلا « صوريـا » .

وكان سائر الإخوة يلجئون إلى العمدة فى أزماتهم المالية ، يرجونه ويتملقونه حتى يفرج ضائقتهم . وكان هو يسخر منهم قائلا : « إن الموظفين كل عشرة بقرش » !

* * *

فى القرية رحت على حرب ضروس بينى وبين نفسى ، وبينى وبين الناس أجمعين . . فأنا دائماً ناقم متبرم ، شارد اللب ، حزين النفس ، لهيف القلب ، آهاتى تترى ، وزفراتى متوالية ، ولا من أسمعه شكاتى ، فيصغى إلى بثى . .

هل يهى عزمى عن مرتبة السلوان ؟ ! . . لست أدرى ! . . فقد مرت بى الأيام كأنها دهور !

ثم عدت إلى « البندر » لأشترك فى اجتماع الأسرة ؛ فأنا أصغر أولاد « الشيخ » و « الحاجة » ، وأصغر الأعمام والأخوال ؛ و « آخر العنقود » له فى محيط الأسرة مقام أى مقام . فلما هممت بالصعود إلى

حجرتى فى الدور الأعلى ، قالت لى أمى : اسمع يا « عبد الرحمن » . . أنا نقلت حاجاتك إلى الحجرة التى تجاور حجرة « الشيخ » . .

وأضافت ، كأنما تعلل لما قالت : أختك «إحسان» وزوجها وأولادها يصلون غداً ، وأنا اخترت لهم الشقة العليا . .

كانت مفاجأة أذهلتنى ، بل صعقتنى ! . . فما إن دعانى شقيقى الأكبر « الدكتور مصطفى » ، مفتش صحة مديرية الدقهلية ، إلى قضاء العطلة فى المنصورة حتى عددت دعوته نعمة جليلة ، تعلقت بها كأنها طوق نجاة يخلصنى من الضيق الخانق الذى كنت أعانيه !

١٠

فى المنصورة عقدت صداقات مع أندادى من الشبان وأبناء الحكام والأعيان ، واندمجت بينهم ، وترددت على نواديهم وملاعبهم ، وشاركتهم فيما يأتون من ضروب اللهو والرياضة ، والمرح والسمر ، وزالت بينى وبينهم الكلفة ، وصرت كأنى أعاشرهم منذ سنين ؛ فقد عرفت بفرط لباقتى ، وبذخيرتى من اللطائف والطرائف والنوادر ، وبفنون الثقافة التى كسبتها بمطالعاتى ، وبالاستماع إلى ما كان يدور فى مجلس «الشيخ» — عرفت بهذا كله كيف أنسجم وشباب المنصورة ، من طلاب المدارس الثانوية والجامعة ، وأبــرز بينهم ، وأملك الدالة عليهم ، حتى أطلقوا علىّ لقب « الجوكر » ، وودت كل طائفة منهم أن أكون بينهم . .

وفى المنصورة رأيتها . . كانت جالسة إلى مائدة منعزلة ، أو تكاد ، فى أحد أركان حديقة النادى ، ترشف كأساً من العصير ، وتضاحك فتاة

صغيرة ، وعيناها تائهتان فى أفق بعيد . .

سألت رفيقى : من هذه الحسناء النافرة ، والغزالة الشاردة ؟

فنظر إليها نظرة تطفح بالغيظ والحقد ، وقال : هذه المغرورة المتعجرفة ؟ ما أثقل دمها! وما أبرد طلعتها ! .. إنها «نعيمة» بنت «شرف بك عبد التواب» .. ما أشد غرورها ! وما أسخف اعتدادها ! .. إنها تظن نفسها أذكى بنات المنصورة ، وأوفرهن جمالا ..بل تعتقد أن ليس على الأرض أنثى تعدلها ، أو تدانى حظها من الرقة والجمال..إنها لا يملأ عينها شاب من كل هؤلاء الفتيان .. لا يعجبها العجب ولا الصيام فى رجب !

كنت أتأمل رفيقى ، وشفتاه ترتجفان ، والألفاظ تتطاير منهما فى حنق مكتوم ، وغيظ مكظوم ، فعلمت أنه يثأر بجرح خفىّ عميق .

وطاب لى أن أزيد فى غيظه ،فقلت : أهذه هى «نعيمة» بنت «شرف بك عبد التواب» ؟! ما أجملها ! وما أبهاها ! . كم ذكرتها زوجة أخى « الدكتور مصطفى » ، وكم حدثتنى عنها ، وكم أثنت عليها الثناء العاطر ، وخصتها بفيض من الصفات الطيبة ، وقالت : إنها « بنت ناس » ، ذكية مجتهدة ، هادئة وديعة ، عاقلة أريبة . . وإنها بلغت الغاية فى الجمال والكمال ، ثم دعت لى : « ربنا يجعلها من قسمتك ونصيبك » ! . .

فأسرع رفيقى يقاطعنى مهتاجاً : « حيلك ، حيلك ! . . كان غيرك أشطر » !

* * *

كنت قد رأيت « شرف بك عبد التواب » حينما زار أخى فى بيته ، بعد يومين من وصولى إلى المنصورة . . وكان لطيفاً معى يوم ذاك ، وعاملنى كأب ، ودعانى إلى داره ، لرؤية أبنائه ، قائلا : إنكم متقاربون فى السن .. وستقضى معهم أوقاتاً طيبة .. إن حديقة قصرنا واسعة ، وفيها صيد كثير ..

ومرت أيام بعد أن رأيت « نعيمة » فى حديقة النادى . . ثم زرت قصر « شرف بك » فى صحبة شقيقى وزوجه ، وهنالك التقيت بأولاده : « طارق » و « نعيمة » و « فائزة » ، والطفل اللطيف « أحمد » ، وبأمهم السيدة الفاضلة ، الجميلة الأنيقة .

وما لبثت عرى الود والصداقة أن توثقت بينى وبين الشاب « طارق » ، الطالب بالفرقة الثانية بكلية التجارة ، بجامعة القاهرة ، وشقيقته « نعيمة » التى أدت — مثلى — امتحان التوجيهية هذا العام . وقد آثرنى الإخوة بودهم ، وآثرتهم بصحبتى ، فكنا نلتقى كل يوم غير مرة ، فى النادى ، وفى « الكازينو » على شط النيل ، أو فى قصرهم المشيد ، وحديقته الفيحاء . .

أكانت « نعيمة » حسناء ؟ . . إنها أكثر من حسناء . . إنها وافرة الحسن ، فياضة الظرف ، خليقة أن تكون إلاهة من إلاهات اليونان القدامى ! . . وجهها كثير الجاذبية ، بالفم الصغير ذى الشفتين الشهيتين العاريتين عن كل طلاء صناعى . . بالجبهة العريضة الملساء . . بالعينين الزرقاوين الفاترتين ، ترسلان سهاماً تصمى الأفئدة . . بالأهداب الكثيفة تسكب السحر والفتنة . . بالشعر النحاسى ، تتصاعد منه شرارات براقة ، فيخاله الناظر تاجاً من الذهب ، يكلل هامة هذه الفاتنة الساحرة . . ثم بشرة فى لون الورد ، وهالة من الجاذبية والكبرياء تحيط بحركاتها ولفتاتها ، وحديث ناعم يجذبك إلى شركها ، فتندفع إليه اندفاعاً ، وتلقى بين يديها قلبك صاغراً !

إن « نعيمة » فتاة قلما تجود الأرحام بمن تعدلها ، فهى جميلة بثقافتها ، وحديثها ، وأناقتها ، ورقتها ورزانتها ، قدر ما هى جميلة بجسمها ، ووجهها ، وشعرها ، وابتسامتها . .

* * *

كنت أظن – بعد تجربة « هدى » – أنى فى مناعة من الحب السريع ، لكن القلب الإنسانى – كما تبينت – لا يستطيع التحصن ضد أنواع معينة من الحب ! فقد ملأت صورة «نعيمة» خيالى ، وطفقت أهمس باسمها فى يقظتى ، وأراها فى أحلامى ، وأخاطبها كأنى أخاطب حاضراً أمامى . .

وكانت رؤيتها تحرك فى نفسى شعوراً داخليًّا عميقاً ، وتجعلنى أحس متعة هنيئة ، وبهجة متجددة ، تحيي القلب ، وتبعث على النشاط فى وداعة ورقة ، وتشيع فى كيانى الحياة الزاخرة بالعاطفة والنشوة .. غير أنى كنت – مع هذا – أراها لغزاً يستعصى علىّ فهمه ، فهى مزيج من مكر وسذاجة ، وربة مداعبات بارعة لم أكن أدرى : أهى مداعبات بريئة تدل على صفاء النفس ، ونقاء القلب ، أم ملاعبات جريئة تبعثها خطة خبيثة ، تبغى إذلال نفسى ، والسيطرة على قلبى ؟!

لم أستطع فى الماضى أن أصل إلى جواب عن هذا السؤال ، وما استطعته إلى اليوم ، وربما لا أستطيعه غداً ! . . فبعد خطيئتى مع « هدى » تبدلت القيم فى نفسى ، وتغيرت نظرتى إلى الأمور ، ولم أعد أفرق بين الحب والجنس !

١١

الليلة ليلة العيد . . عيد ميلاد « نعيمة » . . وها هى ذى أسرتها تحتفل بهذا العيد احتفالا بهيًّا ، وتدعو بعض الأهل والأصدقاء إلى وليمة شهية ، ومجلسة سمر لطيفة . .

وكنت أنا وشقيقى « الدكتور مصطفى » وزوجه من بين المدعوين : :

والأعيان فى ذلك الزمان كانوا — مثل « شرف بك » — يحرصون على أن تتوثق صلتهم بالحكام ، فينتهزون كل فرصة تسنح ، بل كانوا يخلقون المناسبات ، ليقيموا الولائم والحفلات ، يدعون إليها كبار الموظفين ، تمكيناً لجاههم ، وتسهيلا لقضاء مصالحهم ، وزيادة فى هيبتهم ، وتثبيتاً لسلطانهم على العمال والفلاحين وصغار الموظفين !

ضمتنى والإخوة الثلاثة : « طارقاً » و « نعيمة » و « فايزة » ، وأصدقاءهم ذكراناً وإناثاً ، مائدة واحدة ، فى حجرة نائية عن حجرة الكبار ، فتناولنا العشاء فى بهجة وانشراح : الطعام شهى ، والحديث طلى ، والوجوه صباح ، واللهو مباح . .

وفيما نحن نغادر الحجرة همست « نعيمة » فى أذنى قائلة : الزمْنى ، لا تتركنى . . سيلاحقنى « فاروق » ويضايقنى بسخافاته . .

ثم تفرقنا فى الحديقة مثنى وثلاث ورباع ؛ وصحبت أنا « نعيمة » ، و« فاروق » يلاحقنا . . وكنت قد تحدثت إلى « فاروق » هذا غير مرة ، لكنى لم أكشف إلا الليلة أنه — حقاً — ثقيل الظل ، جامد النسيم ، وغبى أيضاً . . وكان يضاعف ثقله أنه يحاول أن يستر غباوته وراء الادعاء والكبرياء ، ناسياً — أو متناسياً — أن الكثيرين يجاملونه ، لأنه ابن « سعادة الباشا » المدير !

ضربنا فى أرجاء الحديقة الواسعة ، ونحن نتحدث عن المستقبل ، وآمالنا العريضة فيه . .

وفجأة أقبل خادم يصيح : « يا فاروق بيه ، يا فاروق بيه . . التليفون يا فاروق بيه » . .

ارتد « فاروق » إلى القصر ، وسرت و « نعيمة » ، حتى انتهينا إلى كوخ خشبى قديم ، بقرب سور الحديقة الغربى ، تحيط به شجيرات قصيرات ، فوقفنا حياله . .

قالت « نعيمة » : هذا « الكشلك» كان مأوى بواب القصر ، فى عهد جدى « عبد التواب باشا » . . والباب الرئيسى للقصر كان هنا . . هذه آثاره .. فلما عبِّد الشارع الجديد فى الجهة الشرقية ، جعل والدى الباب الكبير هناك ، وبنى المدخل الجديد وما فوقه . .

ونظرت إليها ، ونظرت إلىّ . .

كانت الطبيعة قد تبرجت من حولنا ، ورقصت أمامنا ، وخدرت حواسنا بنشوة عطرها الفاسق ، ولم أكن فكرت فى هذا الموقف ، ولا رتبت له . .

ماذا يفعل عاشق صغير يصور له خياله الغنىّ الجامح ما خفى من مفاتن غانيته ، تصويراً جذاباً ، كله إغراء بجمال القلب ، وترغيب فى جنة الحب ؟!

إنها للدنيا عاطرة فاغمة ، تترامى طيوبها من كل صوب ، فتضاعف عندى الشعور بالجمال ، وتحرك فىّ الإحساس بالفتنة ، وتبعث فى صدرى الأمل بنعيم الحياة ، وتناديني إلى التمتع بها !

فى وجه هذه الدنيا — دنيا الحسن ، والعذوبة ، والرقة ، والحب — وقفت مشدوه اللب ، قد صرعتنى الفتنة الغامرة ، ونعم قلبى المطل على رواء الحياة باللطف الحالم ، والنفور الحلو ، والإقبال الظريف . .

انبسطت أمام الطبيعة ، والحب ، والحياة ، والأمل . . وانطلق لسانى فاندفعت أنشد « نعيمة » من شعر الغزل والحب ما ينشرح له صدرها ويضطرب به فؤادها ، والدم يغلى فى عروقى ، ويتصاعد إلى وجهى . وهى تصغى مبتهجة راضية . .

رفعت إلىّ عينيها الفاترتين بأهدابهما الطويلة ، وتبسمت ، فمسحتُ على شعرها بيد ، وربتّ كتفها بيد ، واحتضنتها . .

فوجئت « نعيمة » بهذه الحركة مفاجأة أذهلتها ، وشلت أعضاءها ،

وحالت دون عقلها أن يفكر ، ودون لسانها أن ينطق ، فارتمت على صدرى ، وأمالت رأسها على كتفى . . وتعانقنا عناقنا الأول ، وتلاقت شفاهنا فى قبلة حوت كل عذوبة اشتهتها العاطفة !

ثم أفلتت من بين أحضانى ، وركضت بين الأشجار فى خفة تغرى ، ودلال يثير ، وارتمت على البساط الأخضر . .

كنت قد أدركت بعض الحنكة ، وفهمت بعض ضروب الإغراء التى تتقنها حواء فى كل سن ، وفى كل مكان ، وتدل بها على الرغبة ، وهى تظهر التمنع والجموح !

وعدوت وراء « نعيمة » . .

كان ثوبها قد انحسر عن ساقيها البضتين ، وكان صدرها يعلو ويهبط . . فوقفت أنظر إليها نظرة السبع إلى فريسة مشتهاة . .

وفجأة لاح فى خيالى طيف « هدى » ، وتيقظت فى خاطرى صورة شبح لعين . . ما أقبح هذا الشبح ! شبح الخيانة والخطيئة !

ارتعشت . . وصرت صنماً لا يتحرك . . ودار رأسى ، وأوشكت أن أفقد وعيى . .

وكان يتنخل من بين الغصون شعاع رقيق شاحب من نور القمر ، فرأيت « فاروقاً » عائداً إلينا ، فى صمت وهدوء ، وكأنه يتجسس علينا ، فرفعت صوتى أناديه ، فأطلق شفتيه بصفيره المعهود . .

كم حمدت لهذا الغبى عودته ، وكم حسبتها مكرمة غفرت له بها كل ثقل دمه ، وغباوة عقله ، فلقد أنقذنى من خطر كبير !

ثم أقبل علينا « طارق » ، وبرفقته فتى لم أره من قبل ، بين من التقيت بهم فى المنصورة ، وقدمه « طارق » قائلا : المهندس « محسن » . . ابن عمتى . . وصل الآن من الإسكندرية ، ليشارك خطيبته « نعيمة » فى عيد ميلادها . .

ويلى ! . . « نعيمة » — إذاً — مخطوبة .. وهذا « محسن » ابن عمها . . خاطبها اليوم ، وزوجها فى الغد !

وتبددت أحلامى اللذيذة، وتكسرت أطيافها فى حنايا نفسى المتألمة، فكبتّ ما فى قلبى من حب ، وأمسكت على ما فيه من أسى عميق . .

ثم ظهرت نتيجة التوجيهية ، ونجحت . . ونجحت « نعيمة » . .

وفارقت المنصورة موجع القلب باكياً !

* * *

على طول الطريق بين المنصورة والقاهرة ومنفلوط كنت مأخوذاً ، مسلوب اللب ، قد ضاع منى كل رشد ، وخانني كل جهد ، وأنا مخمور بمرارة الألم ، أبحث عن نفسى فى تيه الزمان والمكان على حد سواء . .

يا لقسوة الأيام ! إنها لتعبث بالإنسان كيف تشاء ؛ فبينما يرى الواحد منا أن الأمور تسير سيراً حسناً ، وأن كل شيء على ما يرام ، إذا الأقدار تتدخل فتغير مجرى الحوادث ، وتهدم الأمانى والأحلام ، ثم تعود فتمنحنا فرصة نمنى فيها أنفسنا ، ونبنى آمالنا من جديد، لتعود فتهدمها . . وهكذا دواليك ! ..

آه ! لو أستطيع أن أقاوم أهواء نفسى ، وأقتل ميولها ، وألوى عن جميع أماني العذاب ، لكنت — إذاً — سعيداً !

إن ما سُكب فى نفسى أيامئذ من الهوى والصبابة ، وما نزل بقلبى من الهم والأسى ، كان أكثر مما فى وسعى أن أحتمل .. وبرغم ما كان يملأ صدرى شعرت فى أعماقى بذلك الحنين الملح إلى الحب والرغبة فيه ..

وتحركت فى خاطرى ذكرى « هدى » . . وأحسست نحو هذه الفاتنة شوقاً جديداً يتمشى فى كيانى ، وأنشأ خيالى وقلبى يذيعان محاسنها وفواتنها موّاجة بالروعة والرواء . .

أواه ! . ألا تزال حمرة الورد تصبغ خديها ، وزهو الفراشات يرف على ثغرها الباسم ؟ ! . . وعيناها المليحتان . . ألا تبرحان تنظران فى حنان ودفء ، وتتألقان بالدعة والإغراء ؟ ! . . وصوتها الحنون . . أيتحدث أيضاً عن متع الحياة ، وهناءة الحب ؟ ! . . والمرح اللطيف والرقة الحلوة ، والجسد الريان العاطر .. من يكون ذاك الذى يلتهمها اليوم بأنظاره وقلبه ؟ ومن يكون الحبيب الذى تضمها ذراعاه غريضة الصبا ، عاطرة الأنفاس ؟ !

كثيرون يقوون على هذا كله ، لكنهم لا يقوون مثلى على الحب ؛ فالحب من شأن القلب الشاعر ، والحس الرقيق !

لجّ طيفها فى الإغراء ، ولج قلبى فى التساؤل . . وتمثل لى زوجها السكير العربيد ، فجننت بالغيرة . .

وأغمضت عينىّ على طيوف تنبع من نفسى ، وتجرى متلاحقة فى خيالى . .

لكم أود لو أختفى و « هدى » الفاتنة بين السحاب الأبيض الجميل ، أو يضمنا زورق يتوه فى عرض البحر البعيد ! . . إذن نقبل على الحياة ما اتسعت لنا الحياة ، أو نستغرق فى عناق محموم ، ونفنى معاً على قبلة طويلة تختصر العمر كله ، فى قلب الموج الموّار ؛ فلا فرق بين الحياة والموت ، إذا الموت وافانى و « هدى » فى قلبى وفى أحضانى !

١٢

وافجيعتى ! واحنينى إلى الأيام الخوالى ! وا أسفاه على ذلك العهد الحبيب ! .. أحقًّا تقضت تلك المباهج والأحلام ، ولم يبق منها إلا ذكرى نوّاحة ، جاثمة على صدرى ، تسكب على روحى اليأس ،

وتمد قلبي بالحسرات ؟ ! . . أحقًّا تركت « هدى » البيت؟ بل تركت البلدة كلها ؟ !

لا إخال حادثاً من حوادث الأيام كان أشد وقعاً على قلبي ، ولا أبلغ أثراً فى نفسى ، من هذا الفراق الذى لم أتزوّد له !

لقد رضّ روحى هذا الحادث رضًّا ، حتى أحسست كل صلابة فىّ قد تداعت ، وكل رجاوة قد تعست ؛ وركبنى الهم والغم ، وامتلأت نفسى كآبة وشجناً ، وضعضعتنى حمى جموح ، خلخلت لفائف الحجا ؛ فلزمت السرير كأنى مضغة فى أشداق النار !

وقلق أبى ، وناحت أمى ، وأطلقت الدمع السخين . . ولزمتنى « دادة قدم الخير » ترطب فودىّ وجبهتى بالخل البارد ، فاستمعت إلى ما تحرك به لسانى من هذيان ، وما تفجر على شفتى من كلمات ملتوية البيان . .

ومرت أيام . . ثم رحمت الأقدار أبوىّ المتداعيين هلعاً ، فسكبت على مهجتى نداوة البرء ، حتى دلفت إلى العافية . .

ويوماً حدّقت « دادة » إلى عينى مليًّا ، وفجأتنى قائلة : كيف تركت هذه المرأة تسرق فضيلتك ، وتشوّه طهارتك ؟! » . إنها استحقت ما جرى !

— ماذا تقولين يا « دادة » ؟ ! . . ماذا جرى ؟ ومن هذه المرأة التى تقصدينها ؟ !

صمتت لا تجيب . . فأخذت أتوسل إليها ، وأتوسل ، حتى انفرجت شفتاها ، وجعلت تقص الأمر كله . .

قالت : شكّت « الحاجة » فى صلتك بهذه المرأة « هدى » — لعنها الله ! — من يوم أن رأيناك تنط الحاجز بين السطحين ، وخافت عليك ، فنقلت حجرتك إلى جنب حجرة « سيدى الشيخ » . .

ولما حضر أخوك « الدكتور مصطفى » وصّته « الحاجة » أن يأخذك

معه إلى المنصورة ، لتقضى الإجازة هناك ، حتى تظهر نتيجة الشهادة . . سافرتم أنتم من هنا ، وسافر « سيدى الشيخ » وراءكم إلى مصر . . ولم يرجع إلا بعد ما صدر أمر رئيس النيابة الكبير بنقل المغفل « عزيز » إلى الصعيد الجوانى . . إلى قوص . .

وبعد لحظة صمت استطردت تقول : وكنت أنا أهوّن الأمر على « الحاجة » ، وأؤكد لها أن ابنى المؤدب التقى لا يعمل الشين والمنكر ؛ فكانت تقول : قلبى يحدثنى يا « قدم الخير » ، وقلب المؤمن دليله ، والوقاية خير من العلاج ، على كل حال ! . . وقد صدق ظن « الحاجة » . . فأنت فى هذيان الحمى كنت تقول : « هدى » ، « هدى » . . كنت تردد اسم هذه الملعونة ، فكشفت نفسك ، وأفشيت سر قلبك . . الحمد لله — يا ولدى — على سلامتك . . وألف حمد لأنه ما سمع هذيانك غيرى . . أتظن — يا ولدى — أن المرأة « هدى » كانت تحبك ؟ . . إنها ما كانت تحب إلا نفسها . . لقيت فيك ما يشبع دناءتها . . المجرمة طمعت فيك ، لأنك « قرص حلاوة » ! . . الملعونة ما كان يهمها ما يصيبك ، وأنت غصن طرى . . كان كل همها أن تروى عهرها . . سافلة ! ساقطة !

أخفيت وجهى بالوسادة ، وأنا كالمصعوق حيال هذه الويلات الطواحن وأرتج علىّ ، وتخلخل إدراكى ، وجاوز الهول مداه ، فما استطعت غير البكاء والنواح ؛ و « دادة » لا تنفك تهون علىّ الخطب ، وتحاول أن تخفف أساى وجواى .

و « دادة قدم الخير » هذه قد دخلت بيت « الشيخ » قبل أن ندخله نحن أولاده ، فقد دخلته كاعباً تصغر أمى بسنتين أو ثلاث سنوات . . جاءت مع « الجهاز » وكأنها قطعة منه ! إذ كان من عادات الأسر العريقة — عند تزويج بناتها — أن ترافق العروس جارية أو أكثر . .

ونهدت « قدم الخير » فزوجها « الشيخ » من « مرسال » ، آخر من بقى من سلالة « عبيد » جدى ، الذين ورثهم « الشيخ » فيما ورث من مال وعقار . .

وترقى « مرسال » ، وصار خادم « الشيخ » الخاص ، يعنى بخدمته ، ويرافقه فى إقامته وسفره ؛ وترقت « قدم الخير » وصارت مدبرة البيت الكبير ، تعين أمى ، وتشرف على الشغالات الأخر ، حتى عادت إلى البيت أختى « رقية » ، وقد ترملت ، وترك لها زوجها ولداً فى العاشرة ، ودخلا طيباً من معاش وأملاك ؛ فتولت هى إدارة البيت ؛ وقنعت « دادة » بأن صارت وصيفة « الحاجة » وأنيستها . .

رحم الله « دادة قدم الخير» ! لقد حملتنى ، وحملت إخوتى وأخواتى من قبل ، على يديها المباركتين ، وصدرها الحنون ، وأرضعتنى لبنها ، وكانت لى أمًّا ثانية ، أتوسد كتفها أو وركها أو ذراعها ، وأنام وأنا أصغى إلى حكاياتها عن « الشاطر حسن » و « بنت السلطان » ، و « طاقية الإخفاء » و « خاتم سليمان » !

وضاعف من حنانها علينا أن أولادها كانوا لا يكادون يبلغون الرابعة أو الخامسة حتى يتخطفهم الموت . . ولم يعش لها سوى « ياسين » و « عيشة » ؛ أما « عيشة » فهى فى مثل سنى ، وقد رضعنا معاً ؛ ولهذا كانت ذات حظوة بين أهل البيت . . وأما « ياسين » فيكبرنى باثنتى عشرة سنة ؛ وقد رعاه « الشيخ » منذ طفولته ، وأرسله إلى « الكتّاب » فالمدرسة « الأولية » ؛ ثم جعله معاوناً لشقيقى « سيد » فى رعاية الأرض وإدارة الأملاك . فلما صار « سيد » عمدة القرية اتخذ « ياسين » خفيراً خاصًّا يرافقه فى حله وترحاله . .

رحم الله « دادة قدم الخير » ! لقد أخذت تقلب معى الأمر على مختلف وجوهه ، حتى تبينت أن مصابى مصاب عام ، يعرفه الناس ،

وشرٌ يألفونه ، لكننا — إذ نتألم ونحزن — تطغى علينا أمواج التشاؤم ، ولا نعود نفكر إلا فيما يحيط بنا من أسباب الهم ، نلتمس فيها مادة لإذكاء التحرق والتلظى ؛ ونتخيل — من حماقتنا — أنه لا أحد أحس حزننا من قبل ، ونتصور — من غفلتنا — أنه لم يقع لأحد أن شهد ألمنا ، أو عانى حر همومنا !

رحم الله « دادة قدم الخير » ! لقد دلت على أنها ذات قدرة بعيدة على تضميد جراح القلب ، وبعث الحياة فى الضمير الميت ، وإضاءة ظلمات النفس الحائرة ، بما تبثه فيها من أمل مشرق ، ومستقبل بسام . .

١٣

جئت إلى القاهرة وأنا على رأى جديد ، وعزيمة قوية ، ورغبة صادقة فى أن أحيا حياة الطيبين الطاهرين ، وأنعم بلذة الفضيلة ، وأرفع الفضائل الحسية فى ذاتى إلى أوج العظمة . .

وكانت عادة « الشيخ » فى تعليم أبنائه ، أن الذين يتعلمون منهم فى أسيوط يقيمون بمنزل أختنا « إحسان » ، فى كنفها ورعاية زوجها الفاضل « الدكتور فتحى » الذى نكنّ له جميعاً أصدق الحب والتقدير ، لما يتحلى به من كريم الخلال ، ولأنه زوج أختنا الكبرى . .

أما الذين يتلقون دروسهم العالية فى الجامعة فقد شاء « الشيخ » أن يعد لهم شقة خاصة فى حى الدقى ؛ فالأولاد — كما قال — « قد صاروا رجالاً يعرفون حقوقهم وواجباتهم ، وفى استطاعتهم أن يرعوا أنفسهم » . . والحقيقة أن « الشيخ » لم يشأ أن نقيم فى منزل أخيه « إسماعيل بك » ، لئلا نقتدى بأولاده ، فى رخاوتهم وحريتهم ، التى

كان يسميها « قلة أدب » !

أثث « الشيخ » الشقة تأثيثاً عصريًّا ، لتليق بأن ينزل بها ، ويستقبل فيها زواره ، كلما وفد إلى القاهرة ؛ واختار أحد الأتباع الأوفياء ، الذين رعاهم منذ حداثتهم ، وقربه إليه لإخلاصه وأمانته ، وزوّجه فلاحة كان يودها ويتمناها ، ثم وكل إليهما القيام بأمر الشقة وخدمة أبنائه الذين يسكنونها . .

إنى لأذكر بالخير هذا « التابع محموداً » ، وزوجته « فاطمة » . لقد كانا أمينين نشيطين ، عنيا أشد العناية براحتنا ، فما شكونا منهما ، ولا تبرما هما بنا . .

أقام « محمود » و « فاطمة » فى الشقة الأنيقة ، يستقبلان الإخوة واحداً يلحق الآخر ، ويعيشان فى نعمة يحسدهما عليها الكثيرون ؛ فى تلك الأيام البعيدة كان راتب معلم المدارس الإلزامية أربعة جنيهات فى الشهر ، ينفق منها على نفسه وأسرته ، من مأكل وملبس ومسكن — فى تلك الأيام كان التابع « محمود » هذا يتقاضى جنيهاً ونصف جنيه فى الشهر ، فوق الغذاء والكساء والسكن . .

وقدر « محمود » و « فاطمة » هذا النعيم الذى كانا يتقلبان فيه حق قدره ، فصبرا على إساءة الإخوة ، واحتملا — بدون تذمر — ما كنا نوجهه إليهما من قوارص الكلم ، ولواذع التوبيخ ، وضروب الإغاظة . . بل كانا لا يزدادان إلا صبراً وجِلداً . .

واقتصد « محمود » مبلغاً من المال يعد — فى نظره — ثروة ، فنصحه الناصحون غير مرة أن يتخذ لنفسه مطعماً شعبيًّا ، أو مقهى بلديًّا ، فى أحد الأحياء الوطنية ، بدل ذل الخدمة ، وإمارة السادة ؛ فكان يرد عليهم بأنه تابع لا خادم ، وأنه مستريح فى حياته الراحة كلها ، وأنه يربح أكثر مما يدره المطعم أو المقهى ، بدون أن يعانى « إمارة الزبائن » وشجارهم ،

ومغالطاتهم . . فضلا عن أنه يعد نفسه ولى أمر السادة !

استثمر « محمود » مدخراته فى تربية الماشية وتجارة البهائم والحبوب ، فنمت ثروته وتضاعفت ، حتى ملك فدانين وثلاث جواميس ، وعلّم ابنه الأكبر حتى حصل على شهادة الكفاءة ، وأصبح كاتباً محترماً فى المحكمة الجزئية . .

و « محمود » اليوم شيخ هِمّ ، قد جاوز الثمانين . . وكان — إلى ثلاث سنوات مضت — يزور الإخوة الذين خدمهم زورة فى كل عام ، فيهشون للقائه ويبشون فى وجهه ، ولا يتبرمون بزيارته ، بل يبرونه ، وهو فرح بنا وبأولادنا ، يداعبهم ، ويدعو لنا ولهم ، ويترحم على « الشيخ » و « الحاجة » ، ثم يعود إلى زوجته وأولاده حاملا ما يفرحهم وينفعهم ، فيعلو حمدهم ودعاؤهم .. ولا يبرح يردد — ويردد معه زوجه وأولاده — أن برّ « الشيخ » به هو الذى رفعه من أجير يفلح الأرض بالفأس ، من مطلع الشمس إلى مغربها ، إلى مالك يستخدم فى أرضه الأجراء . .

رحم الله « الشيخ » و « الحاجة » ورضى عنهما وأرضاهما !

* * *

أقمت فى القاهرة مع شقيقى «عبد الحميد» الذى لم يبق على تخرجه فى كلية الطب إلا أشهر معدودات . .

و «عبد الحميد » — كأختى « سميرة » — أحب إخوتى إلىّ ، وأقربهم إلى قلبى ، فهو صورة مصغرة من « الشيخ » فى ورعه وتقواه ، وفى إعانته الضعفاء ، وبره الفقراء ، وحبه الخير ، وسعيه فيه جهد طاقته . .

والساعة — وأنا أكتب عنه — أذكر لسقراط كلمة مأثورة ، هى قوله : « أثمن هبة يحوزها الإنسان صديق وفى » ! . . والحق أن « عبد الحميد » — مد الله فى حياته — شقيق وصديق ، ضرب لى المثل الأعلى بسلوكه القويم ، وجده الفائق ، وطهارته المثالية ، فعالج نفسى

من بعض أدوائها علاجاً ناجعاً ، وأبرأني من جراثيم الشك ، وردني إلى نور الإيمان ، وحياة العفة والنقاء . . ولا أذكر أننا تنازعنا مرة إلا لانصرافي عن الصلاة أحياناً ، أو لتهاوني في إقامتها لوقتها . .

كان يوقظني يوم الجمعة من النيمة الحلوة ، لأغتسل وأتطهر ، ثم أصحبه إلى المسجد لنتعبد حتى نؤدي الصلاة . .

وكان يدعوني إلى مرافقته في تردده على « جمعية الشبان المسلمين » ، ويدفعني إلى الاشتراك في ضروب النشاط الديني والرياضي والاجتماعي ، حتى برزت في السباحة ، وعلقت المصارعة وكرة السلة ، وضاق وقتي عن التفكير في غير الدرس والرياضة . .

ولم يكن « عبد الحميد » يترك لي « راحة بيضاء » أتحرر فيها من رقابته إلا ساعات معدودات في الأسبوع ، بعد أن يعرف وجهتي وقصدي ، وبعد أن يأخذ علي العهد الوثيق ألا أتكاسل عن الصلاة ، أو يشغلني شاغل ما عن أدائها لوقتها . .

لقد وصته أمنا أن يرعاني ، ويراقبني ، ويحثني دائماً على القيام بشعائر الدين ، وأن يكتب إليها بأحوالي كلها بدون إبطاء ، وقالت له : « أخوك جميل وقوي ، والبنات سوف يعجبن به حتى الجنون » ! .. ووصته « دادة قدم الخير » قائلة : « فتح عينك عليه ، وأعطه بالك ، حتى لا تخطفه بنات مصر وتستهويه » !

ومن ثم كانت « راحتي البيضاء » ، التي أتحرر فيها من رقابة « عبد الحميد » وتوجيهاته ، لا تعدو مرافقة بعض الزملاء إلى دور السينما وملاعب التمثيل ، أو نزهة في حديقة على شاطئ النيل . . وأحياناً كنت أزور « نعيمة » ، التي التحقت — مثلي — بكلية الآداب ، واختارت القسم الذي اخترته ، وأقامت في « حي الدقي » حيث أقيم ؛ ولم يكن يفصل بين مسكنينا سوى بضعة صروح ضخمة .

لقد نزلت « نعيمة » — كما نزل شقيقها « طارق » من قبل — بمنزل خالتهما ، قرينة أحد كبار ضباط الشرطة ، بمحافظة القاهرة .. وقد زرتها وحدى ، وزرتها فى رفقة « عبد الحميد » ؛ وزارتنا هى وشقيقها ، وتناولا معنا الغداء أو العشاء غير مرة ، ولا سيما حين نتلقى هدايا أمنا الحنون .

وقد التقيت مرات بزوج الخالة الكاسف العبوس ، فما اطمأن له قلبى ، ولا انشرح لرؤيته صدرى .. فقد كان ضابطاً جافى الطبع ، غليظ الكبد ، أثر فيه عمله بين المجرمين ، ففقد — على الأيام — رقة اللفظ ، ودماثة الخلق ، فضقت به وبحديثه ومجلسه ، وجعلنا أنا و « نعيمة » نلتقى فى الحدائق ودور السينما .

وظلت « نعيمة » على كبريائها ؛ وانفردت عن زميلاتها بوقار لا تكلف فيه ، ولم تعدل لحظة واحدة عن تحفظها الرائع ؛ فلم يستطع زميل ما أن يتعرض لأى دالة عليها ، ولم يجسر ذو مطمع على مداعبة غير بريئة . وكان زملاؤنا وزميلاتنا يعجبون إذ يرونها تبادلنى وحدى عبارات الود والمجاملة ، بدون تأفف أو نفور ؛ وكأنها تريد أن تطلعهم على الطبيعة الخاصة التى تمتاز بها علاقتنا ، وما يربطنا من صداقة سابقة على زمالة الكلية .

وطالت الأيام ونحن ننطلق بين المرابع الضاحكة ، ونستطيب ذواق النعيم ، ونستزيد قبلات هائمة روعاء ، فقد كان كلانا يعشق رفيقه ، ويثق فيه ؛ غير أن هناك قضية كان علينا أن نراعيها ، هى أن « نعيمة » مخطوبة لابن عمها « محسن » المهندس بالإسكندرية .. أما ما خلا ذلك فإننا تركناه لمشيئة الأقدار !

* * *

كانت « نعيمة » فتاة طاهرة ، تحبنى حبًّا صافياً نقيًّا ، فى حين

كنت أنا فتى دنساً، أحبها حبًّا أنانيًّا شهوانيًّا ؛ فلم يعد الحب عندى سوى الجنس ! ولم أتبين هذا الضلال إلا أخيراً ، بعد أن علمتنى الحياة أن الأنثى ليست الحب نفسه.، وإنما هى موضوع الحب ! إنها الشيء الجميل ، الجوهرى فى الحياة ، الذى يهيئ لنا فرصة التمتع بالحب وتذوق آماله ، ومعاناة آلامه !

ويوماً فيوماً أخذت الغيرة من خاطب « نعيمة » تغمر روحى ؛ وشيئاً فشيئاً جعل قلبي يمتلئ عليه ضغناً خفيًّا ؛ وحقداً عميقاً . . . وما لبثت هذه الغيرة أن اتخذت فى نفسى طابعاً خطيراً ، نغّص علىّ هناءة هذا الحب الرفيع الذى كانت « نعيمة » تخصنى به ؛ وعبثاً حاولت هى أن تنجح فى تلطيف ألمى وتهدئة مزاجى الشرس العربيد الذى كان يدفعنى إلى التفكير فى سلوك كلّ مسلك يجعلها خالصة لى ، ويقصى خاطبها ، ويخيب أمله ، بل يفسد عيشه ، ويسمم حياته . .

لقد طفقت نفسى تحدثنى بأنى لم أعد طاهراً بريئاً ، تقنعنى ابتسامة تلقيها « نعيمة » إلىّ ، كما ألقى أنا بالقرش إلى سائل لحوح . .

والوحل لا يعتكر ، ومن كان فى أسفل الهوة لا ينحدر ! . . ومن ثم بدأت أراود « نعيمة » عن نفسها فى إلحاح وإصرار ؛ وهى تنفر منى ، وتهددنى بالقطيعة والجفوة ، وتتجنب الانفراد بى ؛ وأنا لا أبرح مأخوذاً بها ، تجتذبنى إليها عاطفة قوية جبارة . .

وعشنا فترة لا نلتقى فيها إلا فى رحاب الكلية ، أكاتمها ما فى صدرى حيناً ، وأجهر به حيناً ؛ وهى تسر نجوى قلبها عنى ، فما تهمس لى بكلمة من كلماتها العذاب ، إلا ما كان من نظرة هادئة ، أو تنهدة والهة ! . . وبسطت علىّ هذه البرودة فى علاقتنا ظلاًّ من الخيبة واليأس ، ودبّ الفناء إلى كل بهجة فى قلبي ، وأمست نفسى تسبح فى الفراغ والوحشة .

وبينما أنا فى هذه الغمرة إذا « الشيخ » و « الحاجة » يفدان إلى القاهرة ، ليقضيا معنا أياماً ، ويحتفلا بتخرج شقيقى « عبد الحميد» ، ويدبرا له أمر حياته العملية الجديدة . . ولم يكن بدّ من أن أسلك المسلك الذى يرضى أبوىّ ويطمئنهما علىّ ، فعدت أصلى وأقرأ القرآن، والقرآن يلعننى !

والحق أن نفسى لم تكن راغبة فى أن أرفع قلبى بالصلاة ! . . بل أتعس من هذا أن كنت أعتقد أنى مهما توسلت إلى السماء أطلب عونها ، فلن ألقى إلا سخطاً علىّ وإهمالا لتضرعاتى !

وا أسفاه ! . . فيما مضى — حين كانت نفسى متصلة بالله — كنت هانئاً سعيداً ، أرتع فى أرض خصبة غنية ، وكان كل شىء حولى دافئاً منيراً ؛ أما اليوم — بعد أن اختفى الله من حياتى — فقد انقلب كل ما حولى صحراء جرداء ، وطغى علىّ شعور بالوحدة والوحشة ، وانقلب الفرح كآبة وهمّاً ، وفقدت الصلاة لذتها ، وغرقت روحى فى ظلام دامس ! . .

يا أسفا على تلك الأيام ! . ويا جزعا !

* * *

تخرج «عبد الحميد» فى كلية الطب ، وعمل طبيب امتياز بمستشفى قصر العينى ، وطفق يبيت أكثر الليالى فى المستشفى . . وأصبحت حرًّا طليقاً ، أعيش فى شقة أنيقة ، ويقوم على خدمتى غير واحد، وأنا رغبة جامحة لا تعصمها إرادة، وشهوة عارمة لا يكبحها وازع ؛ فبتّ عاجزاً عن امتلاك قيادى ، والاهتداء إلى طريقى ! ونشب فى أعماقى عراك عنيف ؛ فعقلى يريد الاتصال بالله ، والتسلط على رغائبى الداخلية ؛ وجسدى يسلك الأسلوب الوثنى ، ويسعى إلى التمتع بما فى الحياة من لذة وجمال . . وهكذا سرت فى حياتى كمسافر يجهل أين يحطّ رحله ، أو كسفينة لا شراع لها ولا سكان ، تلعب بها الريح العاصفة ، والأمواج

العاتية ، فهى غارقة لا محالة ، إن لم تسعفها النجدة . .
وجاءتنى النجدة فى صورة الإيطالية الحسناء « ريتا » !

١٤

كانت تسكن الشقة المجاورة لشقتى أسرة إيطالية . . عروسان جديدان لم يرزقا أطفالا بعد : « جوزيف » المهندس بإحدى شركات المبانى ، وزوجه الحسناء « ريتا » . ولم يكن يفصل باب مطبخها عن باب مطبخنا ذراع ، ولا يفصل شرفتها عن شرفتنا باع .

و«ريتا» صبية فى ريعان شبابها، وغلواء ربيعها ، جميلة الصورة ، ممشوقة القد ، شقراء الشعر ، ناهد الصدر . . عيناها الزرقاوان تعكسان طيبة القلب ، وشفتاها القرمزيتان تفتران عن ابتسامة وصلاة ، وعن دعاء وإغراء . . إنها أنثى تلهم خواطر الحب ، وتثير رعشات الحس . . منها مادة ، ومنها دواء ، ومنها خيال !

كنت أراها كثيراً فى الشرفة ، فأتظاهر بأنى أغض من بصرى ، وأنا — فى الحقيقة — أعريها فى خيالى ، وأقيسها من فرعها إلى قدمها . .

وجرؤت يوماً وحييتها ، فردت تحيتى رداً رقيقاً ، وأرسلت إلىّ نظرة طويلة ، وبسمة عريضة . وإذا ضحكت المرأة لغريب فقد دلت على أن قلبها مفتوح ، مهيأ لاستقبال الحب !

ويوماً بعد يوم أخذت العلاقة بينى وبين « ريتا » تصطبغ بالألفة ، وتتشح بالارتياح ، وطفقت هى تصغى — بلذة وشغف — إلى عبارات الثناء ، ألقيها على مسمعيها ، وتقبل علىّ بروحها وقلبها ، وأنا أستعرض لها رغائب نفسى ، وأمانىّ قلبى ، وتظل صامتة تحدق إلىّ فى رفق وعذوبة ، مزهوة بهذا الإطراء لجمالها وسحرها . .

وكثيراً ما قالت لى « فاطمة » — الفلاحة الساذجة ، زوجة تابعى « محمود » — إن جارتنا «الطليانية» تسألها عنى ، وتتحسس أخبارى : وتثنى علىّ ، وتقول إنى شاب لطيف مهذب ، « ويظهر أنه ابن ناس طيبين » !

ورحت أناقش نفسى : أيتكرر حادث «هدى» ؟ أيحق لى أن أحب جـارتى ؟ أوَليس للحب شرائع وقوانين ؟ أوَليس للحب قواعد معينة ، وحدود مرسومة ؟ !

إن الحب — كما عرفت من قبل، وكما جربت من بعد — سر خفىّ وقوة عمياء من قوى الطبيعة الجبارة ، تُخضع كل شىء ، ولا تخضع هى لشىء . . ولو استطاع العقل ، أو الثقافة ، أو العزة والجاه ، أن تصد تيار الحب مرة ، أو تثبت لجبروته حيناً ، فإنها لا تستطيع أن تحطمه . بل لا تلبث أن تذل له وتخنع !

وبينما أنا أقلب وجوه الرأى ، وأفكر فى وسيلة أتقرب بها إلى « ريتا » إذا هى تجيئنى على استحياء وابتهاج . .

فيوماً — وأنا أتهيأ لمغادرة البيت إلى المسجد ، لأصلى الجمعة — أقبلت « فاطمة » تعلن أن جارتنا « الطليانية » تستأذن فى السماح لها بنشر غسيلها فى شرفتنا ، بعد أن ضاقت عنه شرفتها ؛ فأذنت نشوان مسروراً . .

وأقبلت « ريتا » وخلفها الغسالة تحمل الغسيل ؛ فقادت « فاطمة » الغسالة إلى الشرفة ، وانهمكتا معاً فى نشر الغسيل ، وتبادل الحديث . . ودعوت أنا « ريتا » إلى الجلوس ، فجلست على الأريكة فى بهو الشقة ، وجلست بجوارها ، أرحب بها ، وأحييها ، وألاطفها . . ويومها لم تستنكف أن تهبنى قبلة طويلة . . أطول من عهدنا بهذا التعارف القريب !

وفاتتنى صلاة الجمعة !

* * *

تحركت الألسنة ، وكثر الهمس حول المودة بيني وبين جارتي «ريتا» ، فأبدى كلانا بعض الميل إلى التحفظ ، وتضييق نطاق الأحاديث من الشرفات . .

ثم تصادقنا أنا والزوج «جوزيف» ؛ ودعاني إلى شقته ، ودعوته وزوجه إلى «الأوبرا» غير مرة ، وأخذنا نلتقي على أعين الناس ، ورآنا الجيران والبوابون والخدم نخرج معاً ، وندخل معاً ، فعلا الهمس وصار لغطاً ، ونحن لا نبالي !

و«جوزيف» شاب وسيم أنيق ، ذو مركز مرموق في الشركة التي يعمل بها ، والتي يسهم أبوه بنصيب كبير في رأس مالها . وهو سعيد بزوجه ، يحبها أعمق الحب ، ويثق بحبها وإخلاصها وأمانتها ، حتى لتنطق كل قسمة من قسمات وجهه بالسعادة والهناءة ، وتفيض كل إشارة من إشاراته بالحيوية والنشاط ؛ فإذا ما طاف بنفسه طائف من الهم والانقباض — وما يخلو أسعد الناس من بواعث الهم والكدر حيناً بعد حين — فإن ذلك الهم لا يقوى على محو آيات الطلاقة والمرح ، ولا تفتأ ابتسامته تتراءى من وراء التجهم والعبوس ، كما يتراءى قرن الغزالة من خلف السحب والغيوم . .

ولو أتيح لنا أن ننفذ من المظاهر البادية إلى الحقائق المستسرة ، لألفينا أن ما يشيع في قسمات وجهه من الدعة والسكون ، هو ظل ما يملأ فؤاده من الطمأنينة والرضا ؛ وأن البسمة التي ترتسم على شفتيه ليست إلا صدى ما يعتلج في صدره من الخواطر المشرقة ، والأفكار السعيدة ؛ فما يتلألأ بمثل هذه الابتسامة غير ثغور السعداء الهانئين .

* * *

في ليلة من ليالي الربيع عدت إلى البيت بعد منتصف الليل . ولما صرت أمام باب شقتي تبينت أنني فقدت المفتاح ؛ فأخذت أدق الجرس ،

وأطرق الباب ، ولا مجيب . . وهل يسمع أهل الكهف الرقود ؟ !

وقفت أمام الباب حائراً ،وأشعلت سيجارة ، واستندت إلى الحائط ، وأنا أصفر بصوت خفيض ، وأعاود الدق والطرق لحظة بعد لحظة . وفجأة فتحت « ريتا » باب شقتها ، وهي في قميص نوم أبيض معطر ، وابتسمت ابتسامة واسعة هادئة ، وكأنها ترحب بي ، أو كأنها توبخني لهذا السهر الطويل خارج البيت . .

دعتني إلى الدخول ، وأغلقت الباب ، وقالت : إيه ! . . تأخرت كثيراً هذه الليلة . . أين قضيت سهرتك ؟ ! .. يا بختك ! . . أنت تسهر تلهو وتمرح ، وأنا أسهر مع الأفكار التي طيرت النوم عن عيني . .

وقفت ساهماً لا أجيب ، فاستطردت : ما لك؟ ! . . لماذا تضطرب وتسهم هكذا ؟ . . أنت خائف ؟ . . لا تخش شيئاً . . أنا وحدي . . ادخل . . « جوزيبي » سافر إلى الإسكندرية ، ولن يرجع إلا بعد يومين . . أنا وحدي . . ادخل . .

قالت هذا كله ، وأكثر منه ، وأنا صامت ذاهل ؛ فلم يكن يخطر ببالي أن يتيح لي الشيطان — في سرعة — هذه الفرصة الفريدة لأخلو إلى « ريتا » في سكون الليل ، وفي غفلة العيون !

لا بأس أن يخلو فتى أعزب ، ملتهب قوي ، بامرأة أذابتها تربية الأولاد ، مثل « فاطمة » الفلاحة الساذجة . . أما أن يخلو بغادة فاتنة يشتهيها ، مثل « ريتا » فأمر لا يقوى عليه إلا الأولياء والقديسون ؛ ولست ولياً ولا قديساً ! .. فما كدت أستفيق من دهشتي حتى ضممت « ريتا » إلى صدري . . وعشنا ساعة في نشوة تفتحت لها عيون الظلام !

ما أجمل أن يضيع المرء مفتاح شقته بعد منتصف الليل ! إن هذا المفتاح الضائع قد فتح الطريق المغلق ، وجعلني أنط — في الفجر — من

شرفة « ريتا » إلى شرفتي . .
كانت « ريتا » حتى هذه الساعة نجمة بعيدة المنال ، فنزلت عن عرشها ، واختفى ذلك الطلاء اللطيف الذي يصطنع الحشمة ، والذي نسعى إلى الاتشاح به ، لنحجب وراءه حقيقتنا كلما ظهرنا إلى الناس !
ومنذ تلك الليلة اتخذت صلتي بهذه الإيطالية الحسناء طابعاً غرامياً خاصاً ، ونعمنا معاً بأشهى ما يسعد به إنسان . .
وغدت « ريتا » متعة في عيني ، ولذة في قلبي . .
ما أعذبهن أولئك النساء الخائنات !

١٥

كنت قد قرأت كثيراً عن عذاب الحب وأهواله ، وعما يلقى المحب من صدود المحبوب وتأبيه ؛ فلما استسلمت قلعة « ريتا » بدون مقاومة ، فقد الحب في نفسي ما كان يحيط به من هالة قدسية ، وضللت ضلالا مبيناً طريقي إلى الحب الذي يتجاوز شهوات الجسد ، ويصل بالعاشق إلى مشارف الشفافية الوضاءة ، والذي كان في المستطاع أن أنعم به ، وأعرف كنهه ، لو أنني حددت من شهواتي ، وأدركت الفرق بين الحب والجنس ؛ لكن .. ماذا أفعل ، وقد خانني الاعتماد على النفس ، وتخلى عني ذكائي وثقافتي ، وافتقرت إلى رقيب داخلي ، وإلى إقناع عقلي بأن سبيل الإنسان إلى إثراء تجاربه العاطفية هو الارتقاء بالجنس ، وليس بالانغماس فيه ؟ !
ولقد أشحت في صلف وعناد عن سبل الخلاص التي حاول شقيقي « عبد الحميد » إغرائي بها ، وأهملت تحذيره إياي مغبة اجتناء اللذة الحرام ، أو السعادة على حساب خيانة الآخرين ، وأصررت على استجلاء التفاصيل التي يغلفها التهذيب المنافق بصورة تخفي ما فيها من فظائع .

وبشاعات ، وأقبلت على « ريتا » كما أقبلت هى علىّ ؛ وانغمسنا معاً فى وثنية خالصة ، لا تعرف التوبة ، ولا تعرف معنى الخلاص ، بل لا تعرف مجرد الشعور بالإثم .

وكيف أفكر فى التوبة والخلاص ، و « ريتا » جميلة ساحرة ، تتمتع بالعاطفة الملتهبة ، وبقدر من الذكاء غير قليل ، وبموهبة فائقة فى إقامة العلاقات الخاصة . . واجتماع هذه الصفات فى امرأة خليق بأن يجعلها ذات خطر عظيم على من يعرفها . . وما نجوت من خطرها هذا إلا لأنى كشفت — بعد حين — أن جمالها كجمال التماثيل التى تجذب العين ، ولا تحرك القلب . . نعم ، كذلك كانت « ريتا » : لذة ومتعة ، ومسرة عين ، لكنها لا تغذى العقل ، ولا تنشى الروح !

كانت ذات ذوق ملتو ، ومعرفة سطحية بشئون الحياة حولها ؛ تستغرق وقتها فى الاستماع إلى الموسيقى الصاخبة ، والرقص العنيف ، وقراءة الروايات التافهة التى لا أثر فيها لعبقرية الفن والفكر . . فهى لا تشعر بقيمة الجمال ، ولا تدرك عظمة الحياة والحب . . حتى مغازلتها كان ينفر منها الحس الرقيق .

إن هذه المرأة التى سحرتنى ، حتى توهمتها مادة ودواء وخيالا ، لم تنسنى « هدى » ، ولا صرفتنى عن التفكير فى « نعيمة » . ؟ ولقد سيطرت علىّ العاطفة التى تجعل العاشق يرغب فى أن يغذى معشوقته بأفكار الحق والخير والجمال ؛ لكن انطلاقاتى بها إلى الآفاق الرفيعة لم تكن لتلاقى صدى فى نفسها . .

ومن أعالى نفسى ، الرقيقة حتى البكاء ، القاسية حتى الغضب والاحتقار ، فارقت « ريتا » فى نهاية العام الجامعى ، وأنا لا أعلم : أأحب فيها امرأة حسناء ، أم أمقت فيها رفيقة من رفيقات اللهو ؟ !

* * *

فى منفلوط انتابتنى نوبة قلق نفسى وهبوط جسمانى ، جعلتنى أجنح إلى العزلة ، وأرغب فى الوحدة . وزاد الحر فى انفعالاتى ، حتى تداعت فىّ عزيمة الصبر ، وأنا أفكر فى مهرب من سأم هذه الحياة ، ومن خوائها الذى لا يطاق ، ومن العراك المستمر فى أعماقى بين رغبتى فى العودة إلى العفة والتقوى ، ورغبتى فى « نعيمة » . .

كنت آوى إلى فراشى كل ليلة وأنا أتعثر فى أحاسيس متناقضة ، وقد ازدحمت أروقة حياتى بصورة « نعيمة » . .

إنى متفائل مسرور لكونها غير متزوجة ، ولأنها بليدة العاطفة ؛ لكنى متشائم حزين ، لأنها مخطوبة ، ولأنى — كطالب — لا أستطيع أن أطالب بها لنفسى : ومع هذا أود ألا يتم زواجها بابن عمتها .

ولا شك أن هناك أناسىّ مثلى يقضون حياتهم فى هذا الألم عينه : فهم لا ينفكون يفكرون فى أنثى ، مرتبطين بها بالأمل والخيال ، ولا يهنأ لهم عيش بدون تملكها ؛ وهم — فى الوقت نفسه — لا يحبون أن تنشد سعادتها مع غيرهم !

كنت أتعذب بخيال « نعيمة » ، وأنا أستعيد فى خاطرى حركاتها البطيئة الموزونة ، وأحاديثها الشهية الطلية . . كل تصرفاتها كانت تتزاحم كالدوامة فى ذاكرتى . . وكل كلمة قالتها كان يتردد صداها فى خاطرى . . جمل غامضة ، كلمات تحمل فى حد ذاتها أقل ما يُظن من رقة وعاطفة ، كانت تتدفق فى فكرى محمّلة معانى غزيرة ؛ فتهز نفسى هزّاً عنيفاً .

فلما تم اجتماع الأسرة السنوى صحبت شقيقى « الدكتور مصطفى » فى عودته إلى المنصورة ؛ وقضيت فى ضيافته حيناً نعمت فيه بلقاء الزملاء الذين عرفتهم من قبل ، ومنهم من لم تنقطع الرسائل بينى وبينهم ، نتناجى فيها ، ويفضى كل منا إلى صديقه بذات نفسه

ودخائل قلبه، حتى باتت رسائلنا هذه ذخيرة طيبة فى كشف الانفعالات، وعلاج المشكلات التى تصدم الشبان وتثيرهم . . والأفضل من هذا كله أنى استطعت أن أسترد ثقة « نعيمة » بى ، وأعيد الصلة بيننا إلى عهدها الأول : عهد الود الصافى ، والحب النقى الطاهر . .

لقد حاربت نفسى حربًا لا هوادة فيها ولا لين ، حتى تقنع بالضم والتقبيل ، ولا تتجاوزهما ؛ فاستطعت أن أحتفظ بتلك الصلة نقية بريئة ؛ وأضحت النظرات بيننا تحمل الحب والثقة ، ولا تضطرب بشهوة أو رغبة .

ما ألذ تلك الساعات ! وما أعذب أولئك الأيام ! . . كم كنت سعيداً بقربها ، ناعمًا بأحلامى فيها ! كنت أسترسل إلى أشهى الأحاسيس وأنا أنظر إلى وجهها الفاتن تتجلى فيه آيات الوقار الطبيعى، وقوة الإرادة ، وإلى شعرها النحاسى يتناثر حول خديها ، ويكوّن إطاراً جميلا لوجهها الصبيح . .

ثَم جمالٌ وجلال ، وروعة وبهاء ، وسمو عاطفة ، وخفة روح ، ولطف ملاينة ، فأنّى يعتصم العاشق أمام سحر هذه المفاتن كلها ؟ !

وفى الليل كانت تُجن بى الأحلام ، وتمور قلقًا واضطرابًا ، فأستيقظ غير مرة فى الليلة الواحدة على إثر حلم بهيج أضم فيه « نعيمة » إلى صدرى . .

آه ! . . لو أن الجمد يخرق ذاتى ، ويوغل فيها ، لغبطت نفسى ! أما أن أرى أمامى كل كنوز النفس ، وكل جمالات الجسد وجاذبيته وسحره ، ثم أقف مكتوف اليدين لا أجرؤ على الإقدام ، فأمرٌ فوق طاقتى وجهدى .

وللنجاء مما كنت أعانيه ، ومما أوشك أن أقدم عليه ، وأنحدر إليه ،

فزعت إلى الإسكندرية ألتمس فى جوار أختى الحبيبة « سميرة » ما يعين على البلوى .

* * *

أوشكت العطلة أن تنتهى ، فرجعت إلى منفلوط ، وتزودت من حنان أمى ؛ ثم قفلت عائداً إلى القاهرة : إلى الكلية ، وإلى « نعيمة » ، وإلى « ريتا » . . وعدت أستأنف حياتى : أداعب « نعيمة » إلى الحد الذى سمحت به ، وأواصل « ريتا » إلى أقصى الحدود .

وأتم شقيقى « عبد الحميد » فترة الامتياز بمستشفى قصر العينى ، وعين طبيباً بمستشفى دمنهور ؛ فأقام فى الإسكندرية مع أختنا العزيزة « سميرة » وزوجها الأستاذ « يحيى » ، وأضحى لا يزور القاهرة إلا لماماً ، فيقضى معى ليلة ثم يعود .

اتسعت دائرة حريتى ، وخلت لى الشقة ، أو كادت ؛ فقد عادت « فاطمة » وأولادها الصغار إلى منفلوط ، وأخذ « محمود » وابنه الأكبر « حمدان » يتركان الشقة عصر كل يوم إلى حى « السيدة زينب » ، ليستذكر « حمدان » دروسه مع أنداده ، ويقضى « محمود » مع أقاربه وبلدياته وقت فراغه . .

وصار لى غزل ودعابة ، وصلات جمة بصديقات كثيرات . . لكن صلة من تلك الصلات كلها لم تبلغ مبلغ العشق والهيام ، ولم تشرف بى على مصائب الحب وأهواله ، فقد عصمنى تعدد الصديقات من أن تستبد بى إحداهن .

وكثر ترددى على بيت عمى « إسماعيل بك » ، ورافقت أولاده إلى حيث يلهون ويمرحون ؛ فرقصت وعببت الخمر ، وغرقت فى عرق « بنات الليل » ؛ وجعلت ملاهى القاهرة تلوكنى بين شدقيها ؛ وعرفت رجلاى الطريق إلى « عمارات الخديو » وأوكار « عماد الدين » ؛

فتلونت الحياة فى نظرى بألوان ساطعة جذابة خداعة ، وعشيت عيناى ، وتبلبلت أفكارى ، وهويت إلى القاع !

وقد اتسعت حياتى لهذا اللهو والمجون ؛ واتسعت لإقامة صداقات كثيرة فى مختلف البيئات والطبقات ؛ واتسعت لأن أفوق زملائى فى دراستى بالكلية ، ولأكون من أبرز شباب أحد الأحزاب السياسية . أتردد على ناديه ، وألتقى بزعمائه ، وأدعو إلى مبادئه .

كانت حياتى عريضة عريضة ، وكنت أتمتع بمزاج فنى قادر على الاستمتاع بالإسفاف والسوقية ، وبأرقى ما يصل إليه الوعى الإنسانى من أفكار ومشاعر . .

إنى لم أخضع رغباتى لرقابة أو قانون : وأية رغبات هذه ؟ ! . . هى كثيرة لاعداد لها . . أقلها أن أسعى إلى العيش كما أهوى وأشتهى ، وأن أحب ، وأتدله فى حبى ، وأتيه فى أحلامى ، وأضيع . . ثم أجد نفسى حيث يمكننى أن أجدها بعد الضلال والضياع !

١٦

السماء زرقاء حالمة ، كأنها فى غفوة الحلى ؛ والشمس ساطعة تستنكف من اللذع ؛ ونحن سكارى النهى بما يغلى فينا من جذل الفتوة ، نثب ونجرى ، وننشد ونغنى ، ونضحك ونقهقه ، وننشر البشاشة حيثما سرنا ، ونخلق الحياة أينما حللنا : .

كنا ثلة من الزميلات والزملاء طلاب « الليسانس » بكلية الآداب ، قد جمعت بيننا المودة ، وألفت الزمالة ، وقرب توافق الطبع وتلاؤم الميول ؛ فتحلقنا حول « أبى الهول » ، نريد أن نقضى سحابة النهار فى لهو ورياضة ، ولعب واستراضة . .

وأثار ضجيجنا فضول السياح الذين قطعوا آلاف الأميال « اشتياقاً إلى ما خلد الفانى» ، فأخذوا يتجهون نحونا ، يسألون ويستفسرون .

كانوا مختلفى الجنسيات واللغات ؛ وكانت مصر وبريطانيا أيامئذ فى نزاع حاد عنيف ، وعلى أبواب مفاوضات جديدة ؛ فاتفقنا فيما بيننا على أن نبصر هؤلاء الأجانب بقضية شعبنا العريق المجد ، الأصيل الحضارة ؛ ونبين لهم كيف أدى الفراعنة ، والعرب من بعدهم ، واجبهم الإنسانى على أتم وجه ؛ وكيف اضطلعوا بدور عالمى فى نشر ظلال المعرفة والمدنية ، وأضاءوا الدنيا بأنوار الحكمة والهداية ، ورفعوا المستوى العقلى والخلقى والاجتماعى للإنسانية جمعاء ؛ وكيف أن حفدة هؤلاء الأماجد جديرون بأن يحيوا الحياة الحلوة الكريمة التى يريدون .

وقد تخلفت « نعيمة » عن هذه الرحلة ، وازمت البيت تشكو التهاب الحنجرة واللوزتين ؛ وكنت ضيق الصدر لتخلفها ، كئيب النفس لمرضها ، غير أن مرح الزملاء ، وتلطف الزميلات ، قد نجحا فى طرد هذا الضيق ، وفى تخفيف كآبتى النفسية ؛ فاستجبت إلى الزميلة « ليلى » وهى تقترح على أن أشاركها الحديث إلى السياح المقبلين إلينا . .

كانوا أربعة فى ريعان الشباب : حسناوات ثلاثاً ، وفتى وسيماً أنيقاً . .

وقفنا نتحدث : . وطال الحديث وتشعب . . يسألون فنجيب ، ونسأل فيجيبون : . وطفقنا نتجادل ونتناقش ، ونضحك ونمرح ، وقد تم بيننا التعارف ، وسعد كل منا بلقاء الآخرين .

أولى الحسناوات وأوفرهن جمالا : « أليس » . . فرنسية الجنس ، باريسية المولد والمنشأ ، وطالبة بكلية الطب فى جامعة باريس ، وشقيقة أحد الكبار فى السفارة الفرنسية بالقاهرة ؛ وقد وفدت إلى

بلادنا منذ يومين ، لتزور شقيقها ، وتقضى أعياد الميلاد ورأس السنة ، تستمتع بشتائنا الدفىء ، وشمسنا المشرقة ، وتشاهد آثار أسلافنا الخالدة .. إنها لمظهر لطيف ، وصباً غض ، وطراوة جذابة . واعتداد بالنفس فى ثقة وطمأنينة ، وهدوء حركة يضفى على أسارير المحيا الباسم روعة رائعة .

أما ثانية الحسناوات فهى « مرجريت » . . فرنسية الجنس . باريسية المولد والمنشأ أيضاً ؛ تحمل من نبعتها الباريسية الأصيلة . ومن عملها ، رقة الحديث . وعمق الثقافة ، وصفاء الروح ، وبهاء الجسد ؛ وقد غادرت مدرجات الجامعة منذ عامين لتعمل فى « سكرتارية » سفارة فرنسا فى القاهرة .

وأما الثالثة فهى « مارجو » . . فرنسية الجنس كرفيقتيها ، لكنها قاهرية المولد ، وموظفة فى إحدى الشركات الكبرى فى القاهرة . ومخطوبة إلى « إميل » ، الشاب الأنيق الوسيم الذى يرافقهن ؛ وهو لبنانى الجنس ، إسكندرى المولد ، وموظف فى سفارة فرنسا فى القاهرة ، مع الحسناء « مرجريت » :

انهمكت زميلتى « ليلى » فى الحديث مع « مرجريت » ، وأخذ الشاب « إميل » وخطيبته « مارجو » يتحركان فى بطء غير ملحوظ ؛ ورأيتنى وحدى مع الحسناء الفاتنة « أليس » .

ودارت بيننا الأحاديث فنوناً ؛ وعرضت عليها أن تتخذنى رفيقها ودليلها والمترجم لها فى جولاتها بالقاهرة ، فسُرَّت وابتهجت ، وشكرت لى هذا الفضل ، وقالت : أرجو ألا تثقل عليك مرافقتى : .

زرت معها دور الآثار المصرية والقبطية والعربية ، والجامع الأزهر ، وخان الخليلى ، والقلعة ، ومسجد « الرفاعى » ، وجامع « ابن طولون » ، وكثيراً من أحياء القاهرة وضواحيها : .

وتلك الساعات الهنيئة التى قضيتها فى رفقة هذه الحسناء ، ذات الوجه « الرومانتيكى » الجميل ، والقلب الرقيق ، والحس الرهيف ، والذوق الرفيع ، قد جذبت كلينا إلى رفيقه جذبًا قويًّا ، ورفعت الكلفة من بيننا ؛ فكنت أستمع منها ، وأتحدث إليها ، كما يكون الأمر بين إلفين قد بعُد العهد بما بينهما من المودة والحب ، فليس بينهما تصنع ولا تكلف ، ولا عناية بما يقولان . .

وأضرمت « أليس » أحاسيسى بجذوة فتنتها ، وألهبت خيالى بسحرها ورقتها ، وأثارت فى أعماق نداء الحب . وقد حاولتُ أن أكشف فيها ثغرة أو عيبًا ؛ ثغرة فى الجمال ، أو عيبًا فى التفكير ، يساعدانى على التقليل من إعجابى بها ، وانجذابى إليها ؛ فعدت من البحث الدقيق بالإخفاق التام . إنها — ويا للعجب ! — بدون عيب . . حقًّا إنها تنقصها بعض الحرارة التى تزين الفتاة المصرية . لكنها تموج فى جاذبية تفوق مرات جاذبية كل من عرفت . . وقد اتفقت آراؤنا فى كثير من المسائل ؛ واتفقنا فى أن الحب لا يعرف دينًا أو جنسًا ، ولا يعترف بقيد من قيود المجتمع ، وأنه ينقضّ على الإنسان انقضاضًا ، فلا يستطيع له صرفًا ، ولا يملك له دفعًا ؛ وأنه إذا ما تفتّق وصاح جرف صاحبه ، وأذل فيه التيه ، وحرمه القدرة على مكافحة سورة الأهواء . .

وبدأت أستغرق فى أشياء وأشياء من مختلف صور الحب ، تملأ وجدانى ، وتحتشد فى خيالى ؛ لكنى — مع السعادة التى أحسستها أيامئذ — كنت أستشعر الحرج ، وأهاب الإقدام . . كان طيفها يخايلنى ، ويداعب أحلامى كل ليلة ، ثم أفيق ، ويصدمنى الواقع الأليم ، وأغيب فى تحرق قاس ، وعذاب لا يطاق . .

يا إلهى ! . . كم كان مؤلمًا ، وقاسيًا فى ألمه ، ذلك الصراع

العنيف بين عقلى وعاطفتى !

ثم ذهبت إلى محطة القاهرة لأودعها ورفاقها ، وهم مسافرون إلى الأقصر . . قلت لها : أرجو أن يسعدنى حظّى فأتمكن من اللحاق بك ، بعد ثلاثة أيام أو أربعة . فأشرقت أساريرها ، وافترت شفتاها عن بسمة حلوة عريضة ، وقالت : أرجو ذلك ؛ فإنى أرتاح إلى صحبتك ، وأعجب بأخلاقك الدمثة ، وعقلك الذكى ، وقلبك النقى . . فإلى اللقاء ، يا صديقى العزيز !

وفعلت عبارتها هذه فى نفسى فعل السحر ، وقلبت كيانى ، ودفعتنى إلى أن أكذب على أبوىّ ، وأزعم أنى مسافر فى رحلة جامعية إلى الأقصر وأسوان !

* * *

ها هم أولاء الرفاق الأربعة : « أليس » ، و « مرجريت » ، و « مارجو » ، والفتى « إميل » ، قد جلسوا يستريحون فى بهو الفندق بمدينة الأقصر ، بعد أن جالوا ساعات بين ما ترك القدامى من آيات بينات ، تنطق بما كان لهم من أمجاد وحضارات ، أيام كانت الدنيا تحيا فى حالك الظلمات . .

ما إن رأونى حتى هبّت « أليس » مغتبطة القلب ، مشرقة الوجه ، باسطة نحوى يديها ، وكأنى قريب عزيز ، أو صديق حبيب ، يعود بعد غيساب طويل ؛ وقد بانت البهجة فى وجوههم أجمعين ؛ فأيقنت أن سرورهم بلقائى لا يعدله إلا سرورى بلقائهم .

فى النهار كنا نطوف بالأطلال ، ونزور الآثار ، ونلهو على صفحة النيل ، ونتنقل بين القرى على ضفتيه ؛ وفى الليل كنا نرقص ، ونسمر ، ونتسلى بلعب الشطرنج أو الورق ؛ وعيناى على « أليس » تنقلان إليها الرغبة والنشوة ، وعيناها علىّ ترسلان إلىّ نظرات عذبة ،

تحمل معانى الود والحنان .

كنا نتلاعب معًا ونتضاحك ؛ لكنى كنت أخص « أليس » بفيض من رعايتى وودى ، كما كانت تختصنى ، حتى بانت الغيرة فى عينى رفيقتها « مرجريت » وفى تصرفاتها .

وفى ليلتى الثالثة بالأقصر ، وكان بردها قارسًا ، أسرفنا فى الشراب وفى الرقص ، فسيطرت الرغبة على القلب ، وانطلق اللسان . .

موسيقى وخمر ورقص . . أمل وهوى وشباب . . أحلام تستيقظ ، وعناق رقيق ، وضم عنيف ، ووسوسة قبلات مخنوقة . . ماذا وراء هذا الطوفان الطاغى سوى الإثارة والإغراء !

وبعد منتصف الليل وقفنا أنا و « أليس » أمام حجرتينا المتجاورتين ؛ فما إن ألقيت عليها تحية المساء ، وتمنيت لها الأحلام السعيدة ، حتى تبسمت ضاحكة ، وقبضت بيمناها على يسراى ، ووضعت يسراها على كتفى ، وقالت : لا أجد نفسى راغبة فى النوم ؛ فهل لك أن نسمر بعض ساعة ؟ ! وجذبت يدى ، فدخلت خلفها ، وتركت الباب مفتوحًا فتحة تطرد الريبة ، بدون أن تمكن السائر فى الممر أن يرانا .

كانت عاطفتى الملتهبة ترى فى « أليس » — عدا جمالها الرائع — شيئًا ساحراً غريبًا ، يجعل هذه الصبية غرضًا للإعجاب ، وموضعاً للفتنة . . وكانت عيناى الراغبتان تريان فيها كل ما تحبان أن ترياه فى ذلك الجسد الفاتن ، وذلك القلب الودود !

آه ! . . كم أخشى أن يخلو قلبها من رغبة محمومة كرغبتى ! . . فهنا البؤسى وسوء المصير !

قالت فى دلال واسترخاء : سنبقى هنـــا خمسة أيام أخرى ، ثم نعود إلى القاهرة ، فأقضى بها أسبوعًا ، قبل أن أرجع إلى باريس ،

فحتّام تبقى أنت هنا ؟

— « أليس » . . يا حبيبتى الغالية : . أنا ما جئت إلى الأقصر إلا لأراك ، ولأكون تابعك المخلص وحارسك الأمين ؛ ولن أبقى بعد سفرك دقيقة واحدة . . أوه ! . . كم أتعذب يا فاتنة !

— وما يعذبك ، أيها الصديق العزيز ؟

— أنت ! . . أنت يا « أليس » من أتعذب بها . .

— أنا ؟ : . أنا أعذبك ؟ ! . . وكيف ؟ !

— أحبك يا « أليس » . . أحبك حبًّا لم أحببه أحداً من قبل . . وهذا ما يعذبنى أشد العذاب . . ما لقلبى يخفق فى عنف لمرآك ؟ ما لعينى لا تقويان على النظر طويلا إلى عينيك ؟! ما لى أبهت حين تنظرين إلىّ ، ويعجز لسانى عن البيان ؟ !

— يا لك من غزل رقيق !

— بل يا لى من بائس شقى ! . . إنى لأحس تجنى الأقدار علىّ منذ ألقت بك فى طريقى . . ويضاعف ألمى وعذابى ذلك المجهول الذى يخبئه مقبل الأيام . . سيرافقنى عذابى إلى آخر أنفاسى ، ويبقى حبك يملأ قلبى ، فلا يتسع لحب جديد . .

— وماذا أستطيع أن أفعل يا صديقى العزيز ، كى تسعد وتهنأ ؟ أتظننى طفلة صغيرة ؟ ! أوترانى غبية جاهلة ؟ ! . . لا ، لا ، يا عزيزى . . لقد قرأت فى عينيك — منذ أن تلاقينا أمام « أبى الهول » — كل ما حاولت أن تكتمه ، وكل ما لا تفصح الآن عنه . : ولكن ماذا أستطيع ؟! . . أصدقك القول يا « عبد الرحمن » إنك قريب إلى قلبى ، أثير لدى نفسى . . وهأنذا مدلك : . وقد منحتك ما أملك منحه ، فى رضا وسماحة ، فماذا بعد ؟ !

— سعادتى بين يديك ، وهناءتى رهن مشيئتك . . « أليس » ،

ستعودين إلى وطنك ، وفى خاطرك أنى عابر سبيل التقيت به مصادفة . . وستنسين فى باريس — بين مباهج الحياة، ومرح الأصدقاء — أنك عرفتِني يوماً ما . . أما أنا فسأفقد بسفرك كل متع الحياة وهناءة النفس . . أنت الحياة . . أنت الحب . . ستظل نفسى حزينة ، وسيظل قلبى مغلقًا لا ينفتح للحب أبداً . .

تبسم البشر فى عينيها الحالمتين ، وأخذت بشفتىّ بين أصابعها ، وعقدتهما وقالت : إنى لأبادلك عاطفتك : . ولكن . . ماذا أفعل ؟ !

— سينقطع عنى بسفرك مدد الحياة : . لكنك لن تبرحى شعورى لحظة يا « أليس » . . ستبقين دومًا فى سمعى وبصرى وحسى وخيالى : . لقد بثثت حولى دنيا من الجمال والحب والسحر الحلال ، وكنت لروحى مرآة مجلوة ، تتواثب عليها رؤى الحياة وطيوف الأحلام . . وا أسفاه يا « أليس » ! . . حينما رأيتك ، وعرفتك ، توهمت أن الحظ قد وافانى ، وأن الحياة قد نزلت عند رغبتى : . فإذا أنا أستنشق نسيم الخيبة ، وأتنفس هـــواء الخذلان . . إنى لكما قال الشاعر العربى :

فكنت كالمتمنّى أن يرى فلقاً   من الصباح فلما أن رآه عمى!

ترجمت لها البيت العربى ، ثم استطردت : لن أرى الحياة بعد سفرك — أيتها الحبيبة — إلا سلسلة آلام وعذاب ، وسأحس ثقل هذه السلسلة ، وشدة ضغطها ، كلما توغلتُ فى سبيلى . .

— وىْ ! لا تبالغ يا عزيزى ! . . ألست ترى أنى قد أعطيتُ الكثير ؟ ! ألا أستند الآن إلى صدرك ؟ ! أما أبادلك الضم والقبلات ؟ ! فماذا تستطيع العذراء أن تسخو به بعد ؟ ! . . إنى لتسعدنى الساعة التى تجمعنا ؛ لكننى عذراء ، وأحب أن أحتفظ بزهرتى ناضرة . . إن زهرتى كنز ثمين : . وقد علمونى أن واجبى أن أحافظ عليها ناضرة ، وأنه

لا يجوز أن أبيح لأحد اقتطافها . . إلا لزوجى . . لقد شاع بينكم – معاشر الشرقيين – أن الفتاة الأوربية تستهين بعذريتها ، ويسهل عليها أن تضحى بها فى لحظة جنون ، وهذا خطأ صراح . . إن الفتاة الفرنسية لا تهب زهرتها إلا لمن تحب : زوج المستقبل . . حقاً إنه لاعار عندنا على من تتأجج فيها لواعج الهوى إذا هى اختارت من وقع منها موقع الفتون . . فالفتاة الأوربية – ولا سيما الفرنسية – ربة مصيرها كالرجل ؛ وليس لأب أو أخ أو ذى سلطان أن يميل بها عن مطامحها ، ما دامت طليقة من قيود الزواج . . إن قلوبنا تملك حرية الانطلاق بلا رقيب ولا حائل يقف بها عن مضاء الوسع . . ولو كنت فرنسياً ، أو كنت مقيماً فى وطنى ؛ أو كنت أنا مقيمة فى وطنك ، لأملت أن نتزوج . . فلست أخفى عليك أنك رجلى المنشود ، الذى أتخيل أنه يجعل أيامى نشيد حب خالد . . والحب هو حياة حواء . . آه ! لو أنك جئت يوماً إلى باريس لوجدتنى أنتظرك . . .

وقلتُ ، وقالت . . « وخلصنا الكلام كله » !

ومضت لحظة صمت وجمود وصراع داخلى فى نفسينا كلينا ، قطعتها بأن ضممت « أليس » إلى صدرى ؛ فدفعتنى عنها ، وقد غضّت من بصرها ، وخفضت من صوتها ، وهى تقول : كفى ، كفى . . إننى عذراء . . حذار ، حذار . . أنا عذراء ، وباب الحجرة مفتوح !

انتفضت انتفاضة العقل ، وقهر النفس ؛ ونهضت وأنا أقول فى رعشة واضطراب : حسناً ، حسناً . . سأذهب الآن . . أرجو لك نوماً هادئاً ، وأحلاماً سعيدة ، يا ملاكى . .

وفزعت إلى حجرتى ، وأوصدت بابها إيصاداً ، وصدرى يكاد

ينشق عن قلبي ، ورأسي يزدحم بأفكار سود تحرمنى المنام . .
والذى يشكو الحب يسهر !

* * *

— . . .   .

— . . .   .

— لكأنك لم تنم ليلتك ، يا عزيزى . . تفتير عينيك شاهد ودليل . .

— لقد امتد بي الأرق طول الليل يا « أليس » ، ولم يكن رقادى إلا سلسلة طيوف يبعثها سهاد الهوى . .

— هوّن عليك ، يا صديقى العزيز . . لماذا عجلت أمس ؟ كنت أود لو أحدثك كثيراً ، لكنك تركتنى ، وعدوْت .. إنى لن أدعوك الليلة إلى حجرتى . . إلا . . إلا إذا وعدتنى أن تكون ولداً طيباً . .

— سأكون أطيب الأولاد : ولن تجدى منى غير ما يرضيك : . عذراً جميلا يا « أليس » إذا كنت لم أستطع أن أملك قياد نفسى حيال فتنتك الطاغية ! لن أضايقك الليلة بحماقتى . .

ثم قضينا يومنا فى غبطة عميقة ، وبهجة غامرة . .

ما أروع أولئك الساعات تنقضى بين العناق والقبلات ، والضم الوثيق ، والنظرات الساحرة ، والأحاديث الشهية الطلية ! ما أكثر ما لذتنى ! وما أشد ما عذبتنى فى آن !

وإذ ضمتنا حجرتها العاطرة ، بعد منتصف الليل ، أحسست الحزن يغمر نفسى ، والهم يحيط بها من جميع أقطارها ، ورأيتنى أفكر فى الساعة الكئيبة الآتية ، لا ريب . . إن لم تكن غداً فبعد غد . . ساعة تنقشع تلك الهالة النورانية عن الواقع المر ، والفراق المتوقع . وفقدانى هذا الحب ، وحرمانى دنياه المسحورة !

ترقرق الدمع فى مقلتىّ ، وانحدر على خدىّ ، فاندفعت إلى باب الشرفة أتطلع من وراء زجاجه إلى أنوار الحديقة ذات الألوان المختلفة ، لأحجب دموعى عن « أليس » .. ولم أجرؤ على أن أرفع عينى لأراها قد لحقت بى . .

وضعتْ يدها تحت ذقنى ، وحولت نحوها وجهى ، وحدقت إليه برهة ، ثم ارتمت على صدرى ، وقبلت شفتىّ ، وقالت : ما بك ، يا صديقى العزيز؟ أى شىء ساءك وأحزنك ، يا طفلى الحبيب ؟ !

ثم اتجهت إلى الباب توصده . . فاستيقظت الأفعى الراقدة فى أعماقى ، وفعلت الخمر فعلها ؛ وأفلت منا الزمام ، وضاعت فضيلة الصبر ، وأتينا على فضيلة العفة !

مرت الأيام كأعذب الأحلام ، لا تحيا فى وضح النهار! .. وحانت ساعدة الأحزان . . ساعدة الوداع الذى لا ندرى ألقاء بعده ، أم فراق الأبد ؟ !

استقبلتنى « أليس » فى حديقة « الفيلا » التى يقيم فيها شقيقها ، وعلى وجهها مسحة من الألم والهم . .

وقفنا فى ظل دوحة حانية ، فقالت : سويعات ثم أطير عائدة إلى وطنى ، بعد أن طرت أنت بى على أجنحة السعادة . . لن أنسى ما حييت — هذه الأيام الحلوة التى سعدت بقضائها فى وطنكم الجميل . . لقد تذوقت فيها ما لم أتذوق من قبل !

عقل الحزن لسانى ، فقدمت إليها — والدمع يملأ مقلتى — تحفة شرقية ، هى حقيبة حافلة بالتهاويل والصور المصرية القديمة ، من صناعة « خان الخليلى » ، وقلت وأنا أتلعثم وأتلجلج : أرجو — يا عديلة روحى — أن تقبلى هذه تذكاراً لهذه الأيام السعيدة .

— شكراً ، يا « عبد الرحمن » . . سأصلى من أجلك ، يا صديقى

العزيز ، ما دام لى لسان ناطق ، وقلب خافق ، وعين أستطيع أن أرفعها إلى السماء . . سأذكرك يا حبيبى . . وسأحسن ذكراك ، والحديث عنك . . ويكفيك أن تثق أننى سأذكرك ما تردد فى صدرى نفَس . . وإنى لمفارقتك وقلبى يحدثنى أننا سنلتقى مرة ثانية ، وأننا سنجدد هذا العهد السعيد . . إن رحلتى إلى بلادكم قد ملأتنى نشوة ومسرة وأنساً . . وما حسبتنى ألقى من المتعة والهناءة ما لقيت . . وداعاً . . لا ، بل إلى اللقاء ، واللقاء القريب ، أيها الصديق الحبيب . . فى باريس هذه المرة . . إنى لمنتظرتك . . فلا تتأخر كثيراً . . إلى اللقاء يا حبيبى !

لم أستطع غير تجفيف عبراتى المتساقطات . .

وتعانقنا فى قبلة طويلة ، وشددت على يديها الناعمتين ، وقبلتهما . وقلبى متدله ولهان ، تنهشه لواذع لا أعرف لها اسماً ، ولا أستطيع لها وصفاً وتحديداً . .

وهرولت إلى الشارع ، وعيناى لا تبرحان تدمعان ، وطفقت أمشى كأنى مخمور ، أقتلع قدمى من الأرض اقتلاعاً ، وأتمتم بكلمات يمليها الهم الأرعن ، والحرقة العمياء . .

وصلت إلى شاطئ النيل ، فكففت عن المسير ، واعتمدت بمرفقى على السور الحجرى . . كان الحجر بارداً ، والشارع هادئاً ؛ وكنت فى حاجة إلى هذه البرودة . وإلى هذا السكون ، ليتضح إحساسى بما فى من حمى واضطراب . .

كانت هذه الوقفة روْحاً لى ، فقد أنعشنى هواء الليل البارد ؛ وبدأت أتمالك أنفاسى ، وأستجمع أفكارى التى شردت فى كل سبيل ، كجياد عربة جمحت ، وقد أيأسها طول الشوط !

يالله ! . . كم خلّفت لى « أليس » من ذكريات عِذاب ، تجدد لى الهم والعذاب !

١٧

سافرتْ « أليس » ، وحزنتُ حزناً أليماً لفراقها . .

ثم لم ألبث أن عدت إلى أحضان « ريتا » ، وإلى متعة الروح والعقل والقلب فى جوار « نعيمة » ، حتى جاء اليوم الخامس عشر من فبراير .

أذكر هذا اليوم المشئوم ، ولن أنساه ما دمت حيًّا ؛ فى هذا اليوم أعد إبليس عدته ، وأحكم تدبيره ، وهيأ لى مائدة طيبة ، ، وأتاح لى فرصة الخلوة بالحبيبة المستكبرة . .

كانت « نعيمة » قد وثقت بى ـ بعد الجفوة الماضية ، واطمأنت إلى نبل صداقتى ، وعادت تتردد على شقتى ـ فى رفقة أخيها « طارق » ؛ فلما تخرج « طارق » فى كلية التجارة أمست تزورنى فى صحبة ابن خالتها « خالد » ، الذى سيتقدم لامتحان الشهادة التوجيهية فى نهاية هذا العام الدراسى . .

وفى الخامس عشر من فبراير كنت أنا و « نعيمة » على موعد ، لنتناقش معاً فى إحدى مسرحيات « راسين » .

اصطحبها « خالد » إلى باب العمارة ، وتركها تصعد وحدها ، مطمئنًّا إلى أننى لست وحيداً فى الشقة ؛ وذهب هو ليلتقى بصديقته — — كما عرفتُ فيما بعد — ويرافقها إلى دار من دور السينما تعرض « فيلماً » غراميًّا مثيراً .

دخلت « نعيمة » شقتى ، وهى تختال اختيال الغانية تشعر بفتنتها ، وتعرف قدر جاذبيتها ، وسحر جنسها . .

ما أشد هدوءها ! ما أروع وداعتها ! ما أعظم ما تثير شخصيتها

فى نفسى من أثر طاغ ، وشعور بخوف مبهم خفى !

كان خادمى « محمود » وابنه « حمدان » قد ذهبا إلى حى « السيدة زينب » كعادتهما ؛ وبقيت وحدى ؛ فما إن علمت « نعيمة » أنْ ليس فى الشقة سواى حتى تملكها — وتملكنى أيضاً — شعور غريب ؛ فاضطربت فى جلستها ، واندفع الدم إلى وجنتيها ، وهبّت تريد الانصراف ؛ فأخذت أهدئ روعها ، وأطمئن قلبها ، حتى هدأت واستكانت . .

وأيقظ فىّ حديثها ، وضحكها ، وعطرها ، ذكريات كثيرة : ليلة عيد ميلادها . . يوم حديقة الأسماك . . يوم جزيرة الشاى . . ليلة سينما ريفولى . . ذكريات وذكريات بعثت فى أعماقى جراثيم الغيرة من خاطبها ، وراحت تغرينى بكل معصية ؛ فأسلمت نفسى للقوة الخفية التى تجذبنى إليها ؛ وقد سرى السمُّ إلى روحى ، وقتل فيها كل عاطفة شريفة ، وكل ميل طاهر إلى الفضيلة ، فاستسلمت باختيارى إلى أطياف الخطيئة والإثم ؛ وقد جنّد حقدى على الخطيب « محسن » كل ذرة فى كيانى للانتصار عليه فى خطيبته « نعيمة » . . . .

فطنت « نعيمة » إلى سقطتها المروعة ، وإلى الدركة الدنيا التى هبطت إليها ، فأخفت وجهها بيديها ، وصاحت تشهق وتنتحب ، وتبكى طهارتها السليبة ، وعفتها المغتصبة ؛ ثم نهضت كأنها لبؤة قد استثيرت ، وأخذت تسب وتلعن ، وتدور فى أرجاء الشقة كالمجنونة ؛ تخرج من حجرة لتدخل حجرة ، وهى تتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، زائغة البصر ، شاردة اللب ؛ وأنا وراءها ، أحاول أن أعزيها ، وأهوّن عليها فجيعتها ؛ وهى لا تنفك سائرة دائرة ، لا تنظر إلىّ ، ولا تنصت إلى قولى ، حتى أصابها الإعياء ، فانكفأت إلى السرير كالطائر الجريح ، تجهش وتتقلب ، ويهتز بدنها ، كأنما مسها تيار كهربى ؛ فانحنيت عليها ، وجعلت أربّت ظهرها ، وأمسح رأسها ، وأقول : اعذرينى ،

يا حبيبتى . . إننى أحبك . . بل أنا مجنون بحبك . . ولم أجد سبيلاً غير هذا يصرفك عن « محسن » ، ويربطك بى . . أحبك ، وأريدك لى . . أريد أن نتزوج ، ونحيا معاً طائرين غردين فى بستان الغرام . . أحبك يا « نعيمة » . .

اختلجت شفتاها بقولها: لا تُدِر السهم فى قلبى . . أرجوك . . أرجوك ؛ دعنى ومصيبتى . . إنما أنت وحش . .

— ألا يشفع لى أنى أحبك ؟ !

فازدادت رعدة بدنها ، وقالت : لا تنطق بهذه الكلمة مرة أخرى . . تحبنى ؟ ! هل الحب عندك أن تسلبنى كنزى ، أيها الذئب الضارى ، والكلب المسعور ؟ !

وتعالى نحيبها ، واشتد لهاثها ، وأسرع ارتفاع صدرها وهبوطه ؛ ثم صمتت لا تنطق ، وهى تسكب الدمع غزيراً ، وقد طغت الجهامة على قسماتها ، وأشاعت فيها لوناً قاتماً لا يمسخها ، لكنه يسكب عليها طلاء من الهلع . . فحلك فى صدرى انفعال عنيف ، وكوت قلبى آلام نفسية قاسية ، وأدركنى الخرس ، فارتميت بجوارها أبكى بكاء لم أبكه من قبل ؛ وقد غمرنى الحزن ، والحسرة ، والندم . .

ثم أحسست يدها على رأسى ، وسمعت همسها ، وهى تقول فى صوت تلفه مسحة من الألم العميق : أتبكى الآن بعد ما حطمتنى ، وهدمت ركن سعادتى ؟ !

وأخذت تغدق الدمع هتاناً ، وأنا أبكى معها وعليها . .

لهف نفسى عليك يا « نعيمة » ! . . لهف نفسى عليك ، وعلى شبيهاتك اللائى وقعن فى حبالتى ، فكن ضحايا بريئة ، وقرابين طاهرة فى معبد الشيطان . .

لقد قطفت من قبلك ومن بعدك زهرات عبقات ، لكنى لم أحس

لهن الأسى والألم ، والحسرة والندم ، قدر ما أحسسته لزهرتك أنت ، أيتها الحبيبة العزيزة !

لهف نفسى عليك وعليهن !

إن قلبي ليعول وينوح ، وأنا أذكرك ، وأذكرهن ، وأذكر تلك المخازى التى أقبلت عليها فى ثبات عجيب ، وفى جرأة لاهية ؛ بل فى نذالة خسيسة ، وخسة دنيئة ، لا تسمو إلى الحضيض ! . .

أية غيلان تخايلنى فى صحوى ومنامى ؟ ! أى عذاب يعصر قلبي عصراً ، وأنا أذكر تلك الصبايا البريئات . والضحايا الغاليات ؟!

إيه يا قلبي ! لكم أتعذب من أجلك ، أيها القلب التعس ! فمنذ صحبتنى وأنا لا أبرح أثقل عليك بالخطايا والآثام ، وأحملك من الأوزار ما تطيق وما لا تطيق . . مسكين أنت أيها القلب .! إنك لن تعرف — منذ اليوم — راحة ، ولن تحس هناءة . . فاملأ أيامك بالولولة والنحيب ، واعصر ما تبقى فيك من دم قطرة قطرة . . إذا ضمك ظلام الليل ، وخيم عليك سكونه ، وجدت فى فراشك النار التى لا تطفأ ، والتى لا تبرح تشويك ، وتحرمك المنام . . فإن استطعت أن تخبى النار بدموعك حيناً أحسست الحيات التى لا تموت ، تنهش بأنيابها ضميرك ، وتذبل بسمومها بدنك ، حتى تطويك وتقضى عليك ! فاذرف دمعك حبات من ذوب الشجن ، يتألق فيها الندم . . نح يا قلبي ، وأرسل نواحك يدمى أفئدة السحب . . أيها البائس ، يا حليف الهم ، وأليف الحزن ، ابك على مخازيك ، ابك الضمير الذى مات . . افتح عينيك الدامعتين حيناً بعد حين ، وارمق ماضيك تائباً نادماً !

١٨

تصافينا أنا و« نعيمة » . . غير أنى أصبت ببرود فى عاطفتى ، والتبست علىّ الأمور ، وضالت وجهة مسيرى ، وغدا كل أمر يحيط بى تافهاً سخيفاً ، لا معنى له ولا وجود ! . . فمنذ تلك الفعلة تغيرت نظرتى إلى كل شيء ، وانقلبت القيم ، وبدأت مصائبي . . وحين أقول « مصائبي » لا أريد بذلك — على وجه التخصيص — إلا هذه المتاعب العاطفية التي عانيتها ، وتلك الأزمات النفسية التى أتخبط فيها إلى اليوم . والتى قد لا أخرج منها أبداً !

نعم ! كان حادث اغتصاب « نعيمة » كالزيت تصبه على النار ، فيندلع لهيبها ، وتندفع فى سبيلها ، تدمر كل شيء ، ولا تبقى على شيء ! فقد انطلقت بعده متمرداً مجنوناً ، أحس الظمأ القاتل إلى مجهول . وضاعف من تمردى وجنونى أن « نعيمة » لم تعد تلك الفتاة النقية ، والعذراء الطاهرة التى عهدتها ، بل أضحت « امرأة » تعرف كيد النساء ومكرهن ، وتفسد عليها الغيرة ما فى قلبها من حب طالما أولتنيه ، وطالما نعمت به !

وزاد الطين بلة أن « ريتا » لمست انصرافى عنها ، وبُعد الفترة بين اللقاء واللقاء ، على قرب الجوار ؛ ورأت تردد « نعيمة » إلى شقتى ؛ فثارت غيرتها ، وملأت خواطرها الظنون والأحقاد . .

والمصائب لا تأتى فرادى ! فبينما أنا تائه حائر ، غارق فى هذه الغمرات التى أحاطت بى ، إذا الموت يمزق صدرى ، ويفجعنى الفجيعة الكبرى . .

سلبنى الموت أمى !

وحزنت لفقد أمى أشد الحزن ، وأعمقه . . ولعلّى لا أزال حزيناً لفقدها إلى اليوم . .

شيعت أمى إلى مثواها الأخير . ثم عدت إلى القاهرة ، فإذا فجيعة أخرى تتلقانى . . لقد فجأتنى « نعيمة » — وقد هاجت فيها الوهلة — بأن أحشاءها جاهرتها بأنها حامل . .

وسُقط فى أيدينا ، وضاقت علينا الأرض بما رحبت !

إن نكن قد حجبنا غرامنا الدنس ، فكيف نخفى واضح الحمل ؟ ! . . وإن نكن قد استطعنا أن نستر معصيتنا ، فكيف نقوى على ستر ذيولها ؟ !

فزعنا إلى طبيب يهودى ، وسخونا له فى الأجر ، فأسقط العلقة قبل أن تصير مضغة مخلقة . . ونجت « نعيمة » من الخطر . ونجونا معاً من الفضيحة والعار ، وتنفسنا الصعداء . ومنذ هذا اليوم تحامت « نعيمة » أن تخلو بى ، مهما أتذلل وأحاول .

* * *

ناءت سنواتى العشرون تحت ضغط هذه الأحداث المتلاحقة ، وشغلتنى همومها وأحزانها ؛ فتباطأت فى الكتابة إلى « أليس » ، وفى الرد على رسائلها .

ويوماً حمل إلىّ البريد رسالة لم أكن أتوقعها ، رسالة بالفرنسية من القاهرة لا من باريس ، وبخط غير خط « أليس » الذى أعرفه جيداً ، وأميزه من بين عشرات الخطوط . .

سحبت من المظروف ورقةً زرقاء ، ونظرت — أول ما نظرت — إلى التوقيع فإذا هو « مرجريت » !

أخذت أتأمل الخط الأنيق الناعم الضئيل ، كأن كاتبته تخشى أن تضغط على القلم . . ثم قرأت الرسالة مرة ومرة ، فداخل نفسى شىء

من الهدوء ، وولد فيها أمل جديد ، وأحسست كأن فى هذه الرسالة النجاة من الحيرة التى أعانيها ، والكآبة التى تخيم على حياتى :

« عزيزى عبد الرحمن :

« أبدأ فأعرب لك عن أصدق عزائى ، فى مصابك الأليم بوفاة السيدة والدتك . وعذراً جميلا إذا جاءتك تعزيتى متأخرة ؛ فما علمت بهذه الفجيعة إلا من رسالة صديقتنا كلينا الآنسة "أليس"، التى تسلمتها ضحى اليوم ، تستفسر فيها عن أحوالك ، وترجو أن تعرف ما حال دون ردك على رسائلها الثلاث الأخيرة ؛ وعهدها بك ألا تتوانى فى ذلك ، أو يشغلك عنه شاغل .

« إن "أليس" جد مشغولة عليك ، لأن رسالتك الأخيرة كانت — على حسب تعبيرها — مشحونة بالشكوى والأنين الذبيح !

« وقد شغلت أنا أيضاً عليك ؛ وإنى لأرجو أن يكون سبب انصرافك عن الكتابة إلى " أليس" هو الانهماك فى الدرس والتحصيل ، فأنا أعرف أنك مقبل على امتحان "الليسانس" .

« وإنى — إذ أتمنى لك النجاح الباهر ، والمستقبل الزاهر — لأرجو ألا تستثقل زيارتى ، لأطلعك على رسالة "أليس" وأقدم لك هديتها التى بعثت بها إليك من باريس مع زميل قدم من هناك . .

« أنت تعرف عنوانى . فإن كنت قد نسيته — ولا إخالك — فإن رقم تليفونى هو (٠٠٠ ٠٠٠) ، وأنا — عادة — لا أغادر البيت فيما بين الساعة الرابعة والسادسة مساء . .

« ولك أطيب تمنيات

مرجريت »

* * *

وذهبت إلى زيارة « مرجريت » . .

كانت تقيم فى حى « الزمالك » ، فى بيت يطل على النيل الخالد ، بين أسرة فرنسية قد اتخذت مصر وطناً ثانياً لها ، إذ قضت فيها جل حياتها ، وولد أكثر أولادها فى القاهرة ، وتلقوا دراستهم الثانوية بمدارس « الليسيه » ، ثم أتموا تعليمهم الجامعى فى فرنسا ، وعملوا فى أقطار شتى ؛ ولم يبق منهم بمصر إلا شاب يعمل فى « شركة قناة السويس » ، ويقيم فى الإسماعيلية .

ورحب السيد « جلبرت » وزوجته بأن تقيم بينهما « مرجريت » تؤنس وحشتهما ، وتعمر دارهما كلما غابا عن القاهرة .

قضيت ساعة هنيئة مع « مرجريت » والسيد « جلبرت » وزوجته الشمطاء الظريفة . . ولما استأذنت لأنصرف ، نهضت « مرجريت » وقالت : إنى ذاهبة إلى حى « الدقى » ، حيث تقيم ، لأزور صديقة تسكن هناك .. ويطيب لى أن تصحبنى فى السيارة ، لأحملك إلى طيّتك . .

ــ ألف شكر يا آنستى . . إن هذا شرف عظيم لى . .

ولما أشرفنا على الشارع الذى أسكن فى أحد بيوته أشرت وقلت : إنى أسكن الطبقة الثانية من البيت السادس على اليمين . . أقصد أنى أقيم فى إحدى شققها . .

ــ إنه لشارع هادئ ، وإن منازله لأنيقة جديدة . .

وإذ وقفت السيارة بالباب نزلت ، وقلت فى لهجة لم تخل من توسل ورجاء : ألا صعدت معى ، ورأيت شقتى ؟

ترددت برهة ، ثم لانت أسارير وجهها ، وأشرقت عيناها ، وقالت فى صوت ساحر ، وبلهجة تنم عن تهذيب رفيع : يسرنى أن أصعد معك ، وأن أرى مسكنك . .

ــ ما أكرمك يا آنستى العزيزة ! وما أعظم ما توليننى من شرف

وسرور ! تفضلى . .

صاحت « مرجريت » ، وهى تجيل طرفها فى أرجاء الشقة ، وتطوف بحجراتها : ما أجمل مسكنك ! وما أنظفه ! . . من ذا الذى يتولاه بالعناية ؟ من ينظفه ؟ من يعد طعامك ، ويغسل ثيابك ؟

— تابعى « محمود » هو الذى يتولى الآن تنظيف البيت وإعداد الطعام . أما غسل الثياب فتتولاه غسالة تأتينا فى الشهر مرتين . . وقد كانت « فاطمة » — زوجة « محمود » — تقوم بشئون البيت ، ولكنها سافرت إلى البلدة وأطفالها الصغار .

— شقتك جميلة ونظيفة ، إلا أن مكتبك مهوش ، والكتب والأوراق متناثرة مختلطة غير مرتبة .

— حياة الأعزب ، يا عزيزتى . . ثم إنى أبذل جهداً فى الاستذكار هذه الأيام ، فالامتحان جد قريب .

وبدا علىّ الارتباك ، وأطرقت كتلميذ يقر بذنبه ، فأسرعت تقول : غداً تتزوج ، وتنتظم أمورك كلها .. إن رأيتنى قادرة على معونتك فى تحصيل دروسك فإنه ليسعدنى أن نتبادل المعونة . . أنا أساعدك فى دروس الآداب الفرنسية ، وأنت تعيننى فى ترجمة بعض النصوص العربية . . فإنى أعد رسالة عن الفيلسوف الإسلامى « ابن سينا » ، وأجد صعوبة فى تفهم بعض النصوص وترجمتها . . أنا لست فى عجلة من أمر الرسالة ، فلنبدأ أولا بدروسك أنت . . اتفقنا ؟ !

— شكراً لك يا آنستى العزيزة . . سأحفظها لك منّة لن أنساها على مر الأيام . .

ثم نهضت واقفة ، وبسطت يدها للتحية ، وقالت : طاب يومك يا صديقى العزيز . . أنا فى انتظار زيارتك ، لنراجع معاً دروسك . .

وفتحت حقيبة يدها ، وأخرجت منها « أيقونة » صغيرة عليها صورة

« العذراء » ، وقالت : أعلم أنكم ، معشر المسلمين ، تبجلون العذراء « مريم » ، أم « المسيح » ، وتكرمونها . . فاحتفظ بهذه « الأيقونة » تذكاراً لهذه الزيارة . . وثق أنها ستجلب لك الحظ السعيد .

— سأحرص عليها الحرص كله ، وسأذكر — كلما رأيتها — رقتك وكرمك . .

وأمسكت لا أزيد . وعادت هي تبسط يدها للسلام ، وتقول : إلى اللقاء . .

— إلى اللقاء ، وشكراً موفوراً يا صديقتي العزيزة .

* * *

أخذت أزور « مرجريت » في مسكنها يوماً بعد يوم . . وتحدثنا عن الكثير من الأمور ، إلا أننا لم نذكر شيئاً عن أهم الأحاسيس التي كنا نحسها في صميم قلبينا . .

وكلما مر يوم كنت أكشف أن « مرجريت » دنيا من الفكر والشعر والعاطفة لا يداني أعتابها في الفتيات والفتيان إلا القليل . .

إنها لتجيد الحديث عن الأدب والأدباء ، وعن الفلسفة والفلاسفة ، مثلما تجيده عن السياسة العالمية واتجاهاتها ، وأحدث ما وصل إليه الفكر الإنساني من آراء ونظريات . . وكنت أنا في جوارها أحس أني أعيش في عالم أحلام لذيذ شفاف ، وهي أمامي حقيقة ماثلة تشدني إليها شداً . .

وفي كل مرة كانت تلقاني متبرجة تبرج الأنثى تصدت للذكرا وهي دوماً العطوف الودود ، الساحرة اللحظ واللفظ .

مَن لي بها تحس النيران التي تلتهب في قلبي ، وتشوي جوانحي ؟ ! . . وكيف تحسها وأنا أخافها وأتقيها ، وأخشى أن أبوح لها بغرامي المكين ، وأصف لها دائي الدفين ؟ ! . . وكيف أفعل ، وإني لأتحاشى أن

تعتدّني زير نساء ، ينسى الوفاء ، ولا يحفل بالعهود ؛ وهذه صديقتنا « أليس » لا تزال تواصلني برسائلها وهداياها ؟ !

* * *

صحبت « مرجريت » غير مرة إلى أسواق القاهرة وملاهيها ، وإلى « دار الكتب المصرية » . . وكنت أسير إلى جانبها وأنا أفكر فى هذا الشعور الذى أحسسته يملأ جوانحي . . شعور لم أفطن إليه من قبل ، يوم التقينا عند « أبى الهول » ؛ ولم أفطن إليه طوال الأيام التى قضيتها معها ومع « أليس » ، فى الأقصر والقاهرة . . شعور لم أحسب أنى أجده لفتاة تعبر فى حياتى عبور السحابة ، لا نهتم بها إن أتت ، ولا نأبه لها إن ذهبت ، لأنها شيء لا تربطنا به صلة ، وليس له فى حياتنا أثر . . غير أن « مرجريت » جعلتنى أحبها بقلبى وعقلى ، وبدأت تنسينى مصائبى بحنانها ورقتها ، ولطف معاملتها ، وطيب ملاينتها . .

إنها فى الثالثة والعشرين . . جميلة جذابة . . وأهم ما يجذب فيها عيناها الدعجاوان اللتان تنبعث منهما أشعة الفتنة والسحر الحلال ، وشفتاها الممتلئتان اللتان تفترّان عن بسمة دائمة ، وروحها المرح الذى يجعلها كالطائر السحرى الجميل ، يتوثب بين الأفنان ، ويعكس على أوراقها أشعة جناحيه ؛ فهى تضفى من روحها الفرح والبهجة حيث تحل !

وأحببت « مرجريت » حبًّا ملأ وجدانى ، حتى توهمت أنى لن أحقق الحياة التى أتمناها إلا بأنوثتها الفياضة ، ولطفها الغامر ، وحنانها الدافق ، وجمالها الفتان ، وعقلها البصير ، وثقافتها الواسعة .

وهكذا كنت — فى آن — أشتهى « ريتا » ، وأحب « نعيمة » ، وأهوى « أليس » ، وأعشق « مرجريت » . . أجل ؛ كنت أعشقها وأشتهيها كما يشتهى النور ضرير ، أو كما يشتهى مقعد أن يسير ! . . حلم ناء ، وأمل بعيد !

وهذا أبلغ دليل يدحض رأى من يقولون : « العين لها ألف ، والقلب له واحد » ! فقد يعشق المرء غير أنثى فى وقت واحد ، وقد يتسع قلبه لحب الاثنتين والثلاث والأربع ، كالسكير الذى ينتشى من « الويسكى » ، لكن نشوته منه لا تنسيه نشوته من « الكونياك » ، أو من « الزبيب » أو من « عرق البلح » ، مهما يختلف اللون ، ويتباين الطعم والمذاق !

* * *

كان يفتننى عقل « مرجريت » الناضج ، وكنت أشتهى جسدها الريان . .

وقديماً قالوا إن الرجل قد يعجب بجسد المرأة أولا ، ثم بعقلها أخيراً ؛ أما أنا فقد سحرنى عقل « مرجريت » أولا ، ثم عشقت جسدها أخيراً . .

وكلما استعدت صورتها فى خاطرى أحسست الرغبة ، وعانيت عذابها . . عيناها السوداوان تضيئان فى حلاوة ، وتترقرق فيهما بسمة وديعة كلما نظرت إلىّ . . رفرفة أهدابها الطويلة . . سحر حديثها . . رشاقة حركاتها . . رفع يدها بالقفاز فى دلال .. تصرفها الرشيق فى أثناء قيامها أو جلوسها أو اتكائها أو سيرها .. ثوبها الرقيق الذى يهب عليه النسيم فيخفق حول ساقيها الملتفتين ، فتسوى ثناياه بأناملها، مارة بها على أطراف جسمها . . وكانت تأخذنى نشوة العاطفة وأنا أشرب بسمات ثغرها بعينى ، أو أطل منها على نظرة مرتبكة تلفنى بها . .

إنها قد ألهبت عاطفتى بهدوئها واتزانها ، وحدّت بحنانها ورقتها كثيراً من انطلاقى وجموحى وغرامياتى العابرة ، وأعانتنى بثقافتها الواسعة فى تحصيل الدروس إعانة لا تجحد ، وكانت لا تفتأ تردد على مسمعى أنها تود أن أجتاز امتحان « الليسانس » بمرتبة الشرف ، وأنها

تعدّ لى مفاجآت سارة بعد النجاح .

وكنا — إذا نال منا الدرس والبحث — ننصرف إلى الحديث ، فنجد فيه متعة ولذة ، وأنا أسرح بصرى فى محاسنها ، وأحس أن قلبى يذوب بين أضالعى .

ولقد كنت أعد جملا كثيرة منتقاة ، لألقيها بين يديها؛ فإذا حان وقت الكلام ذهبت تلك المختارات ، كما تذهب نفسى حسرات !

ويوماً خلا البيت من ربه وربّته ، وخدمه ، وثار بى الوجد والوله . فمددت يدى ووضعتها على يدها وقلت : آنسة « مرجريت » . .

فرفعت إلىّ وجهها ، وقالت : نعم !

— إنى لأعد هذه الساعة من أسعد أوقات عمرى ، فهلا قلت إننا صديقان.!

— إننا صديقان يا عزيزى . . أتشك فى ذلك ؟ !

وحدجتنى بنظرة معربدة . . فضغطت يدها ، وأنا ذاهل عما أفعل ؛ وغلبنى الوجد ، فلذت بالصمت ؛ الصمت الشاعرى ، صمت القلب الذى ينظر ويحب ، ويحس ويأمل . . وكثيراً ما يكون السكوت الطويل حلواً ، على ما فيه من لهفة ورغبة ؛ ولقد تذوقت هذه الحلاوة ، بل لمستها ؛ فقد مرت بنا فترة من تلك الفترات الصارخة التى تتخاطب فيها الأرواح بلغة العيون ، وتتناجى فيها القلوب بالزفرات ! . . وكيف يتكلم من عقد لسانه ؟ !

وأخيراً تنهدت وقلت : ما أجهلنا ، معشر الشبان ، بطبائع الأنثى ؟ إن الواحد منا ليتمنى ويحلم ، ثم توقظه الحقيقة ، فيرى بدل الأنس وحشة ، وبدل النعيم عذاباً !

فافترت شفتاها عن بسمة حائرة ، وقالت : لم أفهمك . .

— بل تفهمين ، لكنك تتجاهلين !

ومرت فترة سكوت أخرى ، لكنها لم تطل ، إذ بددتها بقولي : كنت أعرف — منذ رأيتك — أن حلمي لن يتحقق ، غير أن الأماني الكواذب كانت تخدعني ، فأسكن إلى خداعها وأستريح ، فراراً من الاعتراف بالحقيقة التي أحاول التهرب منها . . وها قد صدمتني الآن ، فعلمت مبلغ جهالتي وحماقتي . .

وكان صوتي متهدجاً حزيناً ، فتطلعت إليّ وقالت : هلاّ فسرت ، ووضحت ما تروم قوله !

— إن كان يطيب لك سماع قصة أحزاني ، فلا تنسي ، يا آنستي العزيزة ، أن ترديدها يؤلمني أيما ألم !

فتبدل إشراق وجهها ، وقالت : إن آلام الناس لا تفرحني ، يا سيدي العزيز . . كن صريحاً كعهدي بك . . ماذا تريد أن تقول ؟ ! أفصح !

فأدنيت رأسي من رأسها ، ونظرت في عينيها ، وقلت : إن للأحلام قدسيتها . . مثلها في ذلك مثل الحب !

اهتزت . . نشط الجاذب الذي يجذب كلاًّ منا نحو رفيقه . . ناداها الحب ، كما ناداني من قبل ، فاستجابت لدعوته ، واكتسحتها لجج الصبابة ؛ فقالت وبصرها عالق ببصري ، كما يعلق بصر المسحور بعيني الساحر : حقّاً ؟ حقّاً ؟ !

جذبت يدها ، وحدقت إليها ؛ فطار صوابي حين رأيت شحوب وجهها ، فطوقت خصرها بيمناي ، ثم قلت ، وأنا أعطفها نحوي : إني أحببتك يا « مرجريت » منذ رأيتك ، وقد تعذبت طويلا . .

قلت هذا ، وضممتها إلى صدري ، فما نفرت ولا غضبت . .

وطالت القبلة ، ونسينا كل شيء كأننا سكرانان ، أو كأننا صعدنا إلى عالم يفيض سروراً وأحلاماً ؛ وقد ذهلنا عن الزمن والحياة ، وخيل إلينا

أن العالم كله قد صمت ، ووقف ينظر خاشعاً مبتهجاً . .

ألا ما أجمل الحب ! وما أحلاه !

أفقنا من سكرتنا الطويلة ، وهبطنا إلى الواقع . . فقالت :
« عبد الرحمن » ! « عبد الرحمن » !

لم أتكلم ، لأن القبلة الطويلة الساحرة قد سلّت كل ما فى روحى من قوة ، فلم أقدر على الكلام ، وإنما شعرت حينئذ أنى أحب « مرجريت » حبًّا مجنوناً ، وأحسست أن الحياة بدونها جرداء سوداء . .

وعادت هى تقول فى مرح لا ظل للغضب فيه : « عبد الرحمن » ! هل جننت ؟ . . كيف تقبلنى هكذا ؟ ! . . لكنى سعيدة يا « عبد الرحمن » !

ووجدت صوتى ، فقلت : « مرجريت » . . لم يدر بخلدى أننى جدير بحبك . . أتعرفين أننى أحببتك منذ بصرت بك عند « أبى الهول » ، وأنى أخفيت غرامى بين الحشا والضلوع ، وجهدت فى كتمانه ، مخافة أن تبدو منى بادرة تطلعك على سرى . . ليس لمثلى أن يحب مثلك ، فأنا لا أزال طالباً ، وأنت ذات مركز خطير . . لكن الحب لا يعرف الفوارق . . أحبك ، أحبك ، ولا تطيب لى الحياة بعيداً عنك . .

— سيكون أمامك وقت للحب ، بعد أن تنجح فى « الليسانس » . .

— كيف أقوى على الصبر ؟ ! . . إنى أحترق .

— الحب الصادق الطاهر يصبر ، ويتغذى من الأنسام العليلة ، والورود المتفتحة ، وشعاعات القمر الهادئة . . أما الحب الكاذب الداعر فمستعجل ، لا يطيق الصبر . .

— الأنسام العليلة ، والورود المتفتحة ، وأشعة القمر الهادئة — كل هذه ، يا حبيبتى ، إنما تتغذى وتنتشى بالتنهدات المشتعلة التى تنبعث من قلوب العشاق ، أكثر مما تنتشى بقصائد الشعراء فى كل زمان ومكان !

— أتفلسف الحب ؟ ! . . لقد تناول الناس — منذ أقدم العصور — الحديث عنه ، وتغنوا به ، وبحثوا نواحيه ، لكنهم لم يتبينوا موقعه من حياة الإنسان .. حقاً ، إن الحب بأوسع معانيه هو ألزم الأشياء لصحة الإنسان النفسية ، لكن هناك فرقاً بين الحب والجنس . . وأنت تخلط بينهما ..

— إنى بروحك أحيا ، وبقلبك أحب ، وبعينيك أبصر جمال الحياة ، و . . .

— وأنا أريد أن أجعل لهذا الحب ، بل لهذه الحياة ، هدفاً وغاية . . إنى أتطلع إلى المستقبل . . فلنصبر حتى تتخرج . .

— عواطفنا ليست طوع أيدينا ، يا حبيبتى ، وإنما هى طوع قلوبنا ، تحركها كيف تشاء ، وأنى تريد . .

وحدقت إليها ، فوجدتها تحبس أنفاسها المضطربة بجهد جاهد . . ثم مدت يدها المرتعشة ، وربتت يدى ، فاشتجرت فى نفسى خواطر متباينة ، لا أعرف ما آخذ منها وما أدع ؛ وهممت أن أقول شيئاً ، لكنى أمسكت ؛ فقد كان حبي جباناً لا يتسم بالجرأة ؛ وكيف لا ، وتجارب الماضى تجعله جديراً بأن يشفق ويحذر ؟ !

وبعد لحظة صمت قلت : حسناً ، حسناً يا « مرجريت » . . لقد وعظت فأبلغت . . سأجتهد ، وسأنجح ، وسأكون جديراً بك ، وبحبك .

* * *

وإذ عدت إلى بيتى وجدت أنى غير مستطيع أن أفعل شيئاً ؛ ففى رأسى دوامة تدور ، تعرض صورة « مرجريت » ، وحركاتها ، ولفتاتها ، وأنغام صوتها . . فأطفأت نور الحجرة ، وجلست فى الظلام أفكر ، وأعيش مع أحلامى . . وكأن القمر قد حن علىّ ، ورق لما أقاسى ،

فدلف إلى الغرفة فى سكون . .

وارتميت فى فراشى تلك الليلة ، وقد ازدحمت ذاكرتى بصور « مرجريت » و « أليس » و « نعيمة » و « ريتا » و « هادى » . . وبدأت أطيافهن تعذبنى ، وأنا أغالب دمامة الوجه الفاجع ، وأجاهد الشهوة القاهرة . .

ومرت الأيام ، وأنا أزور « مرجريت » ثلاث مرات فى الأسبوع ، ونتناقش فى دروسى ، وفى كل شىء ، عدا الحب . .

ثم غرقت فى شواغل الامتحان . .

ثم فارقت القاهرة ومن فيها ، وفى القلب ما فيه !

١٩

وصلت إلى منزلى ، ومسقط رأسى . .

وكنت أظننى واجداً فيه لبانة من العيش ، خلفها الزمان هنالك ؛ وكنت أظننى واجداً فيه رجع حنينى ، وصدى شكواى ، وخازن بثى ونجواى . . أو كنت أظننى — على الأقل — واجده يعرفنى ، ويرحب بى ، ويلومنى ، ويعنفنى ويقسو على ، إن كنت أهلا للوم والتعنيف والقسوة ، لكنه لم يفعل من ذلك شيئاً . . لم يلتفت إلى ، بل أنكرنى ؛ فاستوحشت ، وعز على منه ، وجعلت أسترضيه وأناجيه : أدخل غرفاته ، وأدلف إلى شرفاته ، وأقف فى ردهاته مردداً النظر ، تائباً نائباً ؛ لكنه لا يجيب ، ولا يلقى إلى سمعه وبصره .

أنعمت النظر فيه ، فوجدته يرثينى ويبكينى . . إنه ظننى قد مت ، أو هو قد حكم على بالموت ، فانتزع حياته من حياتى ، وهمه من همى ؛ وظل إلى اليوم يبكى الأحياء والأموات .

لو كان للمنازل قلوب لعرف منزلى كيف تألمت له سلبه الموت جوهرته الثمينة ، ففقد روح حياته ، وتفرق جمعه ، وزال عنه الحشد والعدد العديد ، والنزاع والتهديد . .

لو كان للمنازل قلوب لعرف منزلى أنه كلما أمعن فى القدم ، وأمعنت أنا فى البعد عنه ، ازددت له حنيناً وصبوة وشفقة وإجلالا ، وتلمست فيه صباى النقى ، أريد أن ألمسه فى صورة مجسمة ، لأحيا ذلك الصبا الطاهر من جديد ؛ لكن هيهات !

أين منزلى الذى قضيت فيه طفولتى ، بما كان فيها من براءة وطهارة وتجمع أهل ولدات ؟ ! أين منزلى الذى تلقيت فيه ضربات التأديب الموجعة ، وكلمات التأنيب القاسية ، وكدت لأهله ، وكادوا لى ، وتقلبت فى إصباحه وإمسائه دهراً ما كان أبهاه يوم كان ، ويا ما أقضّ مضجعى لذهابه الآن ؟ !

ويحك أيها البيت ! يأيها الذى يستنطق سنى المارة ، بل سنى الدهر كله ، فيكورها جميعاً فى خلدى ، تتحدث عن اليأس فى البقاء والأمل ، لكأنى أعود معك حدثاً صغيراً ، ولكأنك أحد أعمدة الخشب حاملات أسلاك المسرة فى العراء ، فكلما سألتك سمعت منك كما كنت أتسمع من تلك العمد حيث تقول : هنا الأسرار المحجوبة ، والألفاظ الطائرة ، وهيهات أن أبوح لك إلا بصدى الألفاظ ، ووهم الأسرار !

أيها البيت الزاهد ، الذى يحمل على الزهد ، أين ربتك وملكتك ؟ أين أهلوك ؟ ألهم أرجل بها يمشون ؟ ألهم أيد بها يبطشون ؟ ألهم أعضاء بها يتحركون ؟ أم أغنتهم عنها حركة الحواس الخفية ، كمن كان عالمهم مسحوراً فى القماقم ؟ !

عجباً ، عجباً ! . . يقول العقل الجاحد : إلا تكن المسحورات

فى القماقم حقًّا ، فإن الموت وحده يجعل القلب يقف مؤمناً من غير ما آية أو برهان !

* * *

رحت أدير عينى فى أرجاء غرفتى ، وما حوت من نوافذ وأستار ، وكتب وأدوات ، فإذا عيناى تمجان الحجرة ، وكل ما فيها . .

هنا كنت أقضى سحابة نهارى وفحمة ليلى أقرأ وأحصل ، وأتعبد وأصلّى . . هنا كنت أركن إلى كتاب الله ، وأتضرع إليه ، وأستمد رحمته ورضاه . . هنا كانت نفسى تحيا حياة الرضا والطمأنينة . . أما الآن فقد حلت بى نفس جديدة ، وأفدت معارف جديدة ، لكنها معارف مرة رهيبة ، ونفس جديرة بالاحتقار ، قمينة بالزراية أو بالرثاء !

وتلفت حولى ، فإذا الكآبة تخيم على كل شيء ؛ وإذا الصمت العريض طعامى فى هذا البيت ؛ وإذا الأفكار السود تعود تحيا فى دماغي ؛ وإذا أنا أكاد أجن من الفراغ والوحشة ، وفى نفسى من الرعدة ما لا أتماسك به على الوسواس العضوض . .

أيامى كلها تنقضى على وتيرة واحدة ، لا فارق بين الأمس واليوم والغد ؛ فمللت الحياة ، وكرهت العيش ، وسئمت هذه الوحدة التى تكتنفنى ، وتحيط بى . .

إلى متى تمتد بى هذه الحياة التعسة الكريهة ، فلا بارقة أمل ، ولا شعاع رجاء ؟ ! ألا يمكن أن يحدث شيء ما يغير هذه الحال ، ولو إلى أسوأ منها ؟ ! . . والقراءة ؟ . . القراءة التى كنت أجدها متعة خير متعة قد صارت عذاباً أى عذاب ! كل الكتب تعرّينى أمام نفسى ، فأراها متسربلة بالخطايا ، غارقةً فى الآثام ، فيملأ قلبى اليأس من روح الله . . .

لماذا خلقنا ؟ ! . . لماذا نقوم حيث نحن ؟! . . أتراها حكمة عالية لا تدركها العقول خلقتنا ، وهى لا تفقه ما نحسه من آلام ، وتركتنا جزافاً لما تجرى به صروف الأيام ؟ !

مهما يكن من أمر ، فما تبرح الدنيا — على الرغم منى — كما كانت ، وكما ستكون ؛ وما يبرح الحزن والموت يمشيان إلى جانب الفرح والحياة !

* * *

جعلت أبحث عما أشغل به نفسى ، فرأيت الحديقة قد أمست جرداء جدباء ، لا أزهار تؤرّج جوها ، ولا أشجار تصدح أطيارها ، ولا جداول ترقرق مياهها ، ولا أعشاب تكسو أرضها الكثيبة المقبضة . .

أمرّ خلالها فتمتلئ نفسى تبرماً ويأساً ، وأروح أسألها : كيف أبعث الحياة فى هذه الأرض الموات ؟ هل إلى هذا البعث من سبيل ؟ ! وهل عليه من معين ؟ !

ظلت هذه الأرض الميتة عبئاً ثقيلاً علىّ كالداء العياء : فلما كانت العزمة إذا الجداول ذات الأخدود المظلم ، الممتلئ أحجاراً وقتاداً ، أصبح كل منها مرآة أصفى من كل مرآة ، وإذا هى رىّ لليأس الذى كان يضيق به القلب ، وينشق منه الفؤاد .

ولم لا ؟ أولم يصبح النيل طوع يمينى ، ويجرى من تحتى ؟ ! هذا الجدول ليس لى فيه شريك ؛ أدفعه فيندفع ، وأقف فى سبيله فما يريم . . أنظر الحشرات الصغيرة ، والحنات ، وأوراق الأشجار ، سفناً غير ذات شراع ، تتسابق بين ضفتيه ؛ وأرى العصافير تمد مناقيرها ترشف مياهه التى تذهب بين أصول الزهر والشجر ، ترويها فتهتز وتربو . فإذا أنسيت يوماً ، وصرفت الماء عن الأزهار والأشجار ، سمعت همسها إلىّ متوسلة ، وحنينها إلى الماء ، ورأيت ذبولها من جفوته ! لقد كنت أحسب الماء رىّ الجسم الصادى ، فإذا هو فى جدولى رىّ

الأرواح ، ومنى النفوس . . وها هى ذى الحشرات السابحة الوائبة تنداح على صفحته كالتجاعيد على الوجه الصبيح !

رأيت الأشجار الوارفة الفينانة — وقد ألقت سعيها واعتمادها علىّ ، وانتظرت منى كالطفل المدد والمعونة — كائناً حيًّا ذا شعور ، عاجزاً عن السعي لنفسه ، فأنا المانحه الحياة ، الواهبه النضرة والبهاء ، وأنا القادر على أن أمد له فى تلك الحياة ، وأضيف له فيها . .

والأشجار مختلفات متنوعات ، كأنها أصدقاء مختلفون . . هذه أحب منها فروعاً دانية فى متناول اليد ، أو ساقاً متعرجة ذات تجاويف ؛ وهذه تجذبنى إليها أزهار أو ثمار ؛ وتلك أعجب بطولها السامق ، الضارب إلى السماء ، وأغصانها التى تتأبى علىّ كالفتاة الوامقة الخجلى !

وكم يستميلنى حفيف الأغصان ! وكم يطربنى أن أسمع صداحاً على شجرة ، أو أرى له فيما بينها سكناً ، أنا فى الحقيقة من أقام له الأسس والعمدان !

كيف أنت الآن أيتها الحديقة ؟ !

إنى لأتخيلك اليوم أرضاً يباباً ، تعمرك الحشرات والثعابين ، وتقيم البوم والغربان بين ما تبقى فيك من أغصان ! . .

كمْ لك ، أيتها الحديقة ، فى عنقى من يد ! . . لقد طالما فرجت كربى ، وآنست وحشتى ، وهونت علىّ مر الأيام ، وأنا أترقب نتيجة الامتحان !

٢٠

« الأستاذ عبد الرحمن . . منفلوط .

« أصدق التهانى لنجاحك بمرتبة الشرف .

« مرجريت »

تلقيت هذه البرقية وأنا أكاد أنفجر مما أعانى ، فكان فرحى بها لا يعدله فرح .. فرحت بنجاحي وتفوقى قدر ما فرحت لاهتمام « مرجريت » بشأنى ؛ فقد دلتني برقيتها على صدق ودها ، وعلى عنايتها بأمرى عناية جاوزت ما أملت وقدرت . .

وسألنى « الشيخ » عمن تكون « مرجريت » هذه ؛ فأجبت — كاذباً مراوغاً — : زميلة قاهرية ، كنت قد رجوتها أن تبرق لى بنتيجة الامتحان فور إعلانها .

ثم سألنى عما اعتزمت أن أسلك فى حياتى الجديدة ؛ فقلت : إنى لا أحب أن تقذف بى « وزارة المعارف » إلى أقاصى البلاد ، مدرساً فى شمالى الدلتا ، أو فى جنوبى الصعيد ، مقابل جنيهات معدودات . . سأبحث عن عمل آخر غير التدريس ، إذ لا أجدنى راغباً فيه . .

والحق الذى لا مرية فيه أنى لم أعد أطيق الحياة بعيداً عن القاهرة ، بعد أن ألفت أضواء ملاهيها ، ونساء لياليها .

عدت إلى القاهرة وحدى ، وتركت التابع « محموداً » ؛ فلست بعد اليوم فى حاجة إليه ؛ فما أكثر مطاعم القاهرة ! وما أكثر من يغسلن ويكنسن !

* * *

ورأيت « ريتا » فكدت لا أعرفها من فرط شحوبها . . وأدركت من دمعها الساجم ، ولسانها المعقود ، ونظراتها الحائرة قدر ما قاست هذه العاشقة ، فى أثناء غيابى عنها .

أما « مرجريت » فقد استقبلتنى مبتهجة مطمئنة ، رشيقة القد ، خفيفة الحركة ، أنيقة المنظر ، باهرة الحسن ؛ كأن السرور الذى يملأ قلبها قد خلع عليها لألاء ساحراً ؛ فعيناها الواسعتان تتألقان بنور البشر ، ووجهها الصبيح يشع سعادة وفتنة . .

ثم قالت : لقد أعددت لك عملا يسرك . . بل أمامك عملان : إما أن تعمل فى « شركة قناة السويس » ، براتب شهرى قدره ثمانون جنيهاً ، وإما أن تعمل فى القاهرة ، بإحدى شركات التأمين ، براتب قدره ستون جنيهاً . . فأيهما تختار ؟ . . لا شك أن العمل فى « شركة قناة السويس » أربح لك ، لكنى . .

— لكنى أفضل أن أعمل فى القاهرة . . أفضل أن أعمل قريباً منك أنت يا « مرجريت » ، بأقل من أربعين جنيهاً . . ما قيمة المال — مهما يكثر — إذا أبعدنى عنك ؟ ! . . أنت لا تعلمين يا « مرجريت » قدرما لك فى قلبى . . حياتى — وأنا بعيد عنك — حياة فارغة خاوية . . سماء لا يلتمع فيها نجم : . حديقة خرست أطيارها ، وذبلت أزهارها ، وجفت جداولها . . ما الحياة إلا أنت يا « مرجريت » . .

وخيمت فترة صمت . . وكان الصمت فى هذه المرة أشد هولا من دوىّ المدافع ، حتى ألقت « مرجريت » رأسها على صدرى وقالت : آن لى أن أبوح لك بسرى . . إنى أحفظ لك يا « عبد الرحمن » فى قرارة نفسى حباً صادقاً ، منذ تقابلنا عند « أبى الهول » .: لكنى رأيتك تقبل على « أليس » ، ورأيتها تقبل عليك ، فمنعنى انصرافك إليها أن أعرض عليك قلبى . . لقد كانت « أليس » ضيفة تقضى بيننا أياماً ، ثم تعود إلى باريس ؛ فآثرت أن أكتم عواطفى ، وأن أدعكما تمرحان ، دون أن أظهر الغيرة والضيق اللذين كانا يملآن قلبى . . لقد كنت واثقة أنها ستسافر وتتركك ، وأنك ستبقى بجوارى ، وستكون لى . .

وبقيت بجوارها ، وكانت لى ، وكنت لها . . »!

لقد وازنت بين ثمانين جنيهاً من « شركة قناة السويس » وأنا بعيد عن القاهرة ، وعن « مرجريت » ، وستين جنيهاً من « شركة التأمين » فى القاهرة ، وأنا قريب من حبى . : ورأيت أنى — منذ عقلت ووعيت —

لا أقيم للمال وزنـًا ، ولا أهتم بجمعه وكنزه ؛ وأن الحب عندى خير من المال ، وأنى أدفع كل ما أملك ثمنًا للحب ، وأعدّ كل شىء فى سبيله يسيراً ، إلا شيئاً واحداً هو عزتى ، فهى لدى أثمن من الحب والمال ، وأنفس من كل ما أبدعت الحياة !

* * *

احتفلت ببدء حياتى العملية ، فدعوت « ريتا » وزوجها « جوزيف » ، و« مرجريت » ، والسيد « جلبرت » وزوجته الشمطاء الظريفة ، إلى سهرة فى ملهى « الأريزونا » . .

وأكلنا ، وشربنا ، ورقصنا ، وسمرنا . .

ولم يغب عن « ريتا » ما تحمله النظرات بينى وبين « مرجريت » من حنين واله ، ورغبة جامحة ، وحديث عاطفى . . وأخذت تتفحصها من فرعها إلى قدمها ، وتنصت إلى حديثها ؛ فألفتها ذات جمال فتان ، ونضارة أخاذة ، وبهاء ساحر ؛ ورأتها ترتدى ثياباً فاخرة ، وتقدر لرجلها قبل الخطو موضعها ؛ فدبّت الغيرة فى صدرها ، وبدأت التصورات تتوالى على خيالها سريعة خاطفة ، تسخر منها ، وتدلل على عجزها فى عالم الحب والغرام .

ومنذ تلك الليلة أخذت « ريتا » تتنغص علىّ عيشى ، وتحاسبنى على اللفتة والنظرة ، وعلى أوقاتى التى أقضيها بعيداً عن البيت ، حتى ضقت ذرعاً بها وبحسابها العسير .

وحاولت — بما فى كلامى من قوة تجبر على الإصغاء — أن أزيل عن صلتى بالحسناء الفرنسية « مرجريت » كل ما يدعو إلى ارتياب الإيطالية « ريتا » ، فأبت أن تصدق . . فلجأت إلى القسوة فى حديثى رجاء إقناعها ببراءة علاقتى بهذه الفاتنة التى تحمل فى قلبها النقاوة ، وفى روحها السماحة ؛ لكنى لم أبلغ بتلك القسوة ما أريد .

وزاد النار فى قلبها اشتعالا أنها رأت غريمتها تتردد على شقتى لزيارتى . .

ذعرت . . ضاق صدرها . . باتت تعيش فريسة نكبة قاسية . . دبّ إلى نفسها قلق فظيع ، وحقد أفظع . . انتفض كيانها كله انتفاضة الواله المغصوب .

لا ، لا . . كيف ترضى بهذه الهزيمة النكراء ؟ ! . . إنها لن تدع الأمور تسير فى طريقها . . إنها لن تسمح لامرأة ما أن تسلبها « حبيبها » ، وتحرمها المتعة التى تسعدها ، وتلطف عليها الحرمان . . إنها – كما قالت – أولى بى من أى امرأة أخرى . .

ماذا أفعل ؟ ! . . ماذا أصنع بهذه الدمية التى تتحرك بلا روح ؟ ! . . حقًّا إنها متعة فراش . . لكن الجسد وحده لا يكفينى . . وهأنذا قد وجدت عند « مرجريت » كل ما أشتهى من متع القلب ، والعقل ، والروح . . والجسد أيضاً .

كانت « مرجريت » ترقد فى أحضانى ، ورأسها على ذراعى ، وقد اتسعت حدقتا عينيها ، وعمها فرح شامل ، وهى تصغى إلىّ أرتل آيات الحب ، وأدعو الأمل الباسم ، والغد المشرق .

كنت أتمدد فى السرير ، وأدعها تعبث أصابعها بشعر رأسى ، وأنام ملء جفونى ، وهى إلى جانبى تنتظر يقظتى ، وتحلم فى اليقظة أحلامى فى المنام !

كانت ترى الجوانب الشاعرية والرمزية فى الوجود ، وتعرف قدر الحب ، وقيمة الحياة ؛ وكان قلبها كنزاً من العواطف ، وروحها بدعة من الفنّ ؛ وكنت أتمتع بهذا كله ؛ ولم يكن ينغص حياتى ، ويكدر صفوى ، ويحوّل سعادتى شقاء ، غير حساب « ريتا » وغيرتها التى لا تطاق .

وشئت يوماً أن أغيظ « ريتا » وأحزنها ، فقلت لها : إنى أفكر فى

خطبة « مرجريت » .

يا لهول ما ثار فى قلبها ساعتئذ ! . . لقد انقلب كيانها كله . وبلغ بها الحقد أقصى غاياته ، حتى هددت بالقتل .. هددت بقتل حبيبى « مرجريت » ، وقتلى ، ثم قتل نفسها ؛ فلا معنى للحياة عندها إذا فقدت حبى !

و« ريتا » إيطالية . . والمرأة الإيطالية مشهورة بعنف حبها ، شهرتها بقسوة انتقامها .

وخفت .. خفت القتل ، وخفت الفضيحة ، وخفت مجهولا لا أعرفه . . وكان الضيق النفسى يسبب لى أحياناً حالة من الجنون . . وكنت أحاول الهرب ، ولكن الهرب لم يكن ليجدى فتيلا ؛ فقد كنت أجد الخوف والقلق والضيق حيثما أذهب .

غيرت سلوكى . . فجعلت ألاطف « ريتا » وألاينها ، وأدللها ، وأبدى لها أحر العواطف ، وأفهمها أن غريمتها تجهل كل شىء عن تفكيرى فى خطبتها ،وأن تلطفى إليها لا يعنى إلا الاعتراف بالجميل؛ لأنها هى التى هيأت لى فرصة العمل الذى أزاوله ، ولولا سعيها المشكور لافترقنا إلى الأبد ، ولكنت الآن مدرساً فى إحدى مدن الدلتا أو مدن الصعيد ، أحرق دمى فى الشرح والتعليم بربع راتبى الحالى .

وهدأت « ريتا » نفساً ، واطمأنت قلباً . .

أما « مرجريت » فقد أعلنت خطبتها فى حفل صغير ، ضم السيد « جلبرت » وزوجته ، وثلاثة من أصدقائى ، وبعض زملاء « مرجريت » وزميلاتها .

وبدأنا نلتقى فى مسكنها ، ونخرج معاً ، وندخل معاً بدون تحرج أو خشية . .

ولمحتنا « ريتا » ليلة ، ونحن نغادر إحدى دور السينما ، مرحين

مغتبطين ؛ فجرّت زوجها ، وشقّت به أمواج البشر ، حتى واجهتنا ، فحدقت إلينا ، وحيّت تحية موجزة ، وقالت : أسركما « الفيلم » ؟ ! . . وغابت بين أمواج البشر ، بعد أن كدرت صفوى ونكدت ليلتى .

والتقيت بها فى اليوم التالى . وقد أعددت عدة الدفاع عن نفسى ، وعن « مرجريت » ؛ لكنها لم تشر إلى لقاء الأمس بخير أو بشر . .

حقًّا إنها كانت مهتاجة ثائرة ، وكان فى صدرها مثل ما فى صدرى . . فعيناها الزرقاوان تتابعُ فيهما ومضات سريعة مخيفة ؛ وشفتاها الشهيتان تختلجان ، وتهمسان بكلمات غامضة ملتوية ؛ وذراعاها البضتان تهصرانى فى قوة مجنونة ؛ وجسمها الريان يرتعش كله محموماً . . وشعرت أن كل حركة ، وكل ارتعاشة ، وكل قبلة تبادلنى إياها ، إنما هى سهام مصوّبة إلى قلبى ، وإلى قلب رجل آخر .

يا للزوج المسكين ! إنه لجميل وسيم ، فتىّ الجسم ، غنىّ الجيب ، وإنه ليحب زوجته ويتعشقها ، وإنه لزوج مثالى تتمنى مثله العذارى ، لولا . . لولا ضعفه الجنسى . . هذا الضعف وحده هو الذى ينغص على « ريتا » حياتها ، ويقلب نعيمها جحيماً . . وربما كان هو دافعها الأول إلى الخيانة .

وإذ هممت بالانصراف ، جذبت يدى واستوقفتنى ، ونظرت إلىّ نظرة كلها غلّ وحقد ، وقالت : أنت تعجب — ولا شك — من أنى لم أذكر صديقتك « مرجريت » ! ثق أنى لن أقف فى طريقكما . . لكن احذر أن تخطو خطوة واحدة نحو الخطبة أو الزواج دون أن تنبئنى ؛ حذاريْك أن تقدم على شىء من مثل هذا قبل أن أضع حملى . . بعد أربعة أشهر . . إن الجنين الذى فى بطنى هو ابنك أنت . . أنا أدرى بهذه الحقيقة . . فإياك . . إياك أن تقدم . . أنت الجانى ! سأحرق قلبك ، وأشوى كبدك !

وعاودنى الخوف ، وازداد قلقى . .

ومرت ثلاثة أشهر ، لست أدرى كيف مرت ؛ وإذا « مرجريت » تحدثنى « تليفونيًّا » فى مكتبى ، على غير عادتها ، وتطلب منى — فى صوت متهدج — أن أوافيها على الفور فى مسكنها . .

وفجأتنى بالفجيعة التى هزت كيانى ، وبددت أحلامى ؟ :

لقد نقلت من القاهرة إلى بغداد ؛ وعليها أن تسافر إلى باريس بعد يومين اثنين . . كان وجهها يحاكى وجوه الموتى ، وقد تدلت يداها بجانبيها ، وانبهرت أنفاسها .. فأسرعت بكوب من الماء ، وأدنيته من شفتيها المرتعدتين ، لكنى لم أقل : اشربى ؛ بل لم أرفع الكوب إلى شفتيها : ؟ كنت حائراً مذهولا .

أين آمالنا وأحلامنا ؟ !

لقد انطفأت كما ينطفئ المصباح ، وغربت كما تغرب الشمس أدركها الأفول !

٢١

سافرت « مرجريت » . .

واشتد بى الحزن ، وحزبنى الهم ؛ وأخذت موجات من القلق تنتابنى ، وغمرات من الذهول تطغى علىّ ؛ وشعرت أن كل شىء فى الدنيا قد تغير وتبدل ، وأن الأوصال والوشائج التى كانت تربط بينى وبين الحياة بحبل سرىّ قلما تمزقت وتقطعت ؛ ولم أعد أخشى شيئاً . . حتى القتل نفسه ؛ فقد مت ، واسترحت . . والموتى لا يشعرون : لا يفرحون ، ولا يحزنون ، ولا يخافون !

أين أنت الآن يا « مرجريت » ؟ . . ماذا تفعلين ؟ . : فيم تفكرين ؟

وهل فعلت بك الأشواق ما فعلت بى ؟ ! بفراقك ذقت الصاب والعلقم ، وتقرحت أجفانى من طول الأرق ، وكثرة البكاء . . وها هو ذا خيالك يطالعنى حيثما حللت . . عيناك ونظراتهما . . شفتاك وا بتساماتها . . شعرك وأسلوبك فى تصفيفه . . حتى حفيف أثوابك . . كل أولئك يتوالى على ذاكرتى المكدودة ، ويعيد علىّ ذكرى الساعات الهنيئة التى قضيناها معاً لاهيين ناعمين . .

أترانى أحببت « مرجريت » حقًّا وصدقاً ؟ ! أهذه الموجة التى غمرتنى — منذ حين — هى موجة الحب الصادق ؟ أم هى غمرة من الفتنة ، عما قريب تنجلى ؟ !

لو أنها غادرت مصر قبل أن تتوثق عرى المودة بينى وبينها ، وقبل أن تصبح الصداقة هياماً وأشجاناً ، لعرفت كيف أسلوها ؛ أما وقد جرى حبها فى دمى فما إلى السلوان من سبيل !

* * *

كنت أيامئذ ، أملك أهم المواهب : الشباب ، والوسامة ، والثقافة الواسعة ، والشخصية القوية ، والمال الوفير ؛ فقد ورثت عن أمى ما كان يعد ثروة فى تلك الأيام ، إلى جانب راتبى الذى يساوى ثلاثة أمثال راتب زملائى الذين عملوا فى « وزارة المعارف » .

وهيأت لى هذه المواهب سبل الحياة فى بيئة يفوح منها ماتع العبير ، لكنى أوشكت أن أختنق بزهرها وعطرها ؛ إذ ولج فى حياتى شيطان جديد خبيث ، شديد الخطر ، هو داء القمار ؛ فقد أغريت حيناً بسباق الخيل ، و « البوكر » ، و « الكونكان » ، و « الباكاراه » ، و « البريدج » ؛ ولم أقلع عن غيى إلا لأعلق الرومانية الحسناء « جنى » ، الراقصة فى ملهى « الأريزونا » . .

عينان سوداوان براقتان ، وشعر حالك ، وبشرة بلورية ، وقدمان

صغيرتان وساقان رقيقتان ، وجسم نحيل عصبي ، يتلوّى ويتكور كجسم الثعبان ، ويطول ويقصر ، كأنه بلا عظام ، أو كأن عظامه لينة ، تلعب بها صاحبته كما تلعب بقطعة من عجين ؛ فبينا ترى رأسها بين فخذيها ، إذا أنت ترى قدميها فوق كتفيها ، وذقنها فى أعلى منكبيها ، وجبهتها تلتصق ردفيها ، مما يدعو إلى الدهشة والإعجاب بما تستطيع « جنى » أن تفعله بجسدها اللدن الذى له قوة الجبابرة ، مع ما هو عليه من تفكك العظام !

شاهدتها وهى ترقص هذا الرقص العجيب ، فلم أستطع التوفيق بين هزال بدنها ، وهذا النشاط فى رقصها ، وما يقال عن قوتها وبأسها : إنها لولب يدور على نفسه فى سرعة فائقة فلا يكاد المرء يرى غير خيالها ساعة تدور .. ثم تقف فجأة ، وكأن التيار الكهربى الذى يديرها قد انقطع !

أرسلت النادل يدعوها إلى الجلوس معنا ؛ وكنا ثلة من الأصدقاء : فتأملتنا هنيهة من بعيد ، ثم أقبلت تضحك مرحة أو ساخرة .. لست أدرى !

لحظت أنها تحمل فى عنقها تعاويذ تخشاها ، ورُقًى تقدسها : منها تمثال صغير للسيدة العذراء ، وسن طفل ، وقطعة من جلد ثعبان ، وأشياء أخرى لم أستطع أن أتبينها ؛ لأن « جنى » لا تسمح لأحد أن يلمس هذه الأشياء المقدسة المسحورة .. ولما سألتها عنها ، ضمتها بيدها فى حب وحرص ، ووضعتها على فمها ، وقبلتها فى خوف ورهبة بدون أن تجيب .

و « جنى » ذات مزاج عجيب ، فهى مستهترة ماجنة مجنونة ، تهزأ بكل راغب ، وتداعب كل طالب ؛ لكنها — على خلاف زميلاتها — لا تلبى دعوة كل مفتون ، ولا تستجيب لنداء اللحم والدم إلا قليلا !

كانت تقضى أياماً صائمة عن الجنس ، فلا تسمح لرجل ما أن يمسها ، ولو كان أحب عشاقها ، وأقربهم إلى قلبها ؛ وفجأة ترمى بفضيلتها ، وتغوص فى أعماق اللذة ، ثم تعود إلى الصيام أياماً ، حتى تستعيد نشاطها وقوتها .

كم راودها الموسرون ، وكم تدلل لها المطهون ، وعرضوا عليها قلوبهم ، وحوافظ نقودهم ؛ فكانت تصدهم ، وتتأبى عليهم ؛ والسعيد منهم من تحن عليه بالمجالسة ، وتتفضل بالمنادمة ! فهى لا تقدم قلبها ولا جسدها إلا لمن تهواه ، لا لمن يقدم لها أوراق « البنكنوت » وزجاجات « الويسكى » و « الشمبانيا » !

* * *

على مدى عام ونصف عام كنت العشيق الأثير للرومانية « جنى » ، والعشيق الوحيد للإيطالية « ريتا » . .

وكان حرصى على استبقاء الصلة بينى وبين « ريتا » تصرفاً سديداً ، ولا شك ؛ فإن « جنى » تخوننى مع آخرين لا أعرفهم ؛ وخيانتها هذه أمر طبيعى ، ونحن متفقان عليها ؛ لأنها بعض عملها ، فلماذا لا أخونها أنا مع « ريتا » ؟ !

هذا إلى أن « ريتا » قد وضعت طفلا جميلا ، بل بالغ الجمال ، إنه بضعة منى ، وبضعة من أمه الفاتنة . . كم أحن إلى هذا الطفل ! وكم أود لو تتاح لى رؤيته ، وحمله وملاعبته ، ليلا ونهاراً ! إنه ابنى . . هذا هو الحق الذى لا ريب فيه ؛ وإن كان — قانوناً وعرفاً — ابن « جوزيف » و « ريتا » . وكان شوقى إلى الطفل « بيير » ينغص عيشى تنغيصاً ، ويشدنى إلى « ريتا » شداً عنيفاً . .

ثم إن « جنى » مهما اشتهيتها واشتهتنى ، فهى امرأة لا أمان لها ، ولا يفخر المرء بصداقتها ، لأنها لا تبرح تتنقل بين البلدان تنقلها بين الأحضان !

.. ثم غضب على « جنى » ذو جاه عريض ، كان أيامئذ يملك السيطرة والسلطان ، فأوحى إلى « وزارة الداخلية » أن ترفض تجديد إقامتها ، وأن تأمرها بمغادرة البلاد . .

وسافرت « جنى » إلى لبنان ، وقبعت صورتها فى ركن من أركان الذاكرة .

وإذا كنت لا أجرؤ على الاعتراف بأنى قد غرقت إلى الأذقان فى حب « جنى » ، فإنى لا أستطيع أن أنكر أنها قد أثرت فى تلافيف عقلى ، وخلايا مخى !

* * *

سافرت « جنى » وخلفتنى أعانى الشوق واللهفة ، كما فارقتنى من قبل « هدى » و « أليس » و « نعيمة » ، و « مرجريت » ، بعد أن أخذت كل منهن فلذة من قلبى ، وحفرت فيه أثراً لا يمحى ولا يلتئم !

وخلا الجو للعاشقة « ريتا » : . .

وأقبلت أنا عليها إقبالا ، وباتت هى تهيئ الفرص لنجتمع معاً اليوم تلو اليوم ، نغترف من اللذات ما نشاء ، والزوج مغفل غافل ، أو عالم متجاهل !

وفى ساعة من ساعات النشوة باحت الشقية بسر رهيب ، ملأ قلبى نفوراً واشمئزازاً ، بل نقمة وكراهية . فبعد ما يقرب من عامين اعترفت «ريتا» بأنها كانت عيناً على ، تحصى حركاتى وتراقب اتصالاتى ، وأنها كانت تعلم مدى صلتى بغريمتها «مرجريت» ، ومدى علاقتى بالراقصة «جنى» ؛ وحددت لى أمكنة اللقاء ، وأزمنتها .. واعترفت — يا للمرأة الغيرى ! — بأنها كانت وراء نقل «مرجريت» من مصر ، والتفريق بينى وبينها ، وحرمانى مما كنت أتمتع به فى جوارها من حب بهيج ، وسعادة جاوزت حد الخيال .

على الدم فى عروقى ، وأنا أستمع إليها تعترف بأنها مثلت أمامى دور العشيقة الراضية المطمئنة ، فى حين كانت العواصف تنسف أحشاءها نسفاً ؛ فكتبت غير مرة إلى سفارة فرنسا فى القاهرة ، وإلى وزارة الخارجية الفرنسية فى باريس ، تشكو « مرجريت » ، وتشوه سمعتها ، وترميها بأنها قد خطفت منها زوجها . وقالت إنها كتبت إليهم مرة ومرة العبارة التى تقطع أنها قد عجلت بنقل « مرجريت » : « .. فلتنقلوها من مصر قبل أن أقتلها » !

خرجت على ما عرفت به من حلم واسع ، وصبر جميل ، وإكرام للمرأة عظيم ، فصفعت « ريتا » على وجهها صفعة قاسية تعالى لها صراخها وأنينها .. وبصقت ، وهرولت غاضباً ، أسبها وألعنها : والقلب الثمل كالرأس الثمل ، لا يقوى طويلا على كبح مشاعره !

٢٢

ملأت الوحشة نفسى ، وعشت حيناً بلا حب ، حتى دعيت إلى حفل ذكرى زواج زميل فى الشركة ، والتقيت هناك بالحسناء السمراء « آسيا » ، فلطفت من هذه الوحشة قليلا . . غير أن المداعبات المتجاذبة ، واللقاءات القصيرة المتباعدة بينى وبينها ، لم تكن لتلطف حرارة قلبى ، أو تخمد النيران المشتعلة فيه ؛ فلم ألبث أن عدت إلى بعض فصول حياتى السابقة : أقامر ، وأصيد النساء . .

وباتت « فينوس » مشتهى نفسى صباح مساء ، وكذلك زميلها « باخوس » ! . . وصار انقطاعى عن الشراب والجنس أياماً يصيبنى باكتئاب النفس ، وضيق الصدر ، وفقدان الشهوة إلى الطعام ، وينزل بى الإمساك والأرق ؛ فأقضى ليلى متشنج الأعصاب ، أتململ فى سريرى ،

وأتقلب ذات اليمين وذات الشمال ؛ أطوى الوسادة على رأسى تارة ، وأدفن فيها وجهى تارة أخرى . . فأطلقت لنفسى العنان، وأعطيتها مداها فى الانقياد إلى هوى الساعة ، وتبذلت لكل ضروب الفجور والخلاعة .

كم قطفت من زهرات ناضرات ! كم تعثرت فى عقد عاطفية ، بما كنت أكتشفه كل يوم فى عالم النساء ! كم تورطت فى مآس عنيفة ، وفواجع قاتلة ، كادت توردنى موارد الجنون ، أو تدفننى فى ظلام القبور !

وتراكمت علىّ ديون كانت من الكثرة بحيث كان يقفّ شعرى ، ويقشعر بدنى حينما أفكر فيها . . ووضع لى السم فى الطعام والشراب غير مرة ، وأطلق علىّ الرصاص مرتين !

وفاحت رائحة مسلكى الشائن، ووصلت أخبار طيشى وحماقتى إلى « الشيخ » فرذلنى ، وتصرف معى بصلابة قاسية، حتى هددنى بالحرمان من ملكه ، دون أن يدرك ما كنت أعانيه ، أو يعنى بإنقاذى مما كنت غارقاً فيه ؛ فبدأت عوامل الثورة عليه تتألب فى عقلى وتفكيرى .

ثم وقعت الواقعة ، وزلزلت الأرض زلزالها . . مات « الشيخ » . .

وأحسست أن شيئاً ما فى قلبى قد انقطع ؛ وملأت الكآبة نفسى ، ورانت على فكرى خواطر الشؤم والتشاؤم ؛ وخيّل إلىّ أنى سأبوء فى حياتى بالخيبة والخسران ؛ لأن « الشيخ » قد انتقل إلى جوار ربه، وهو علىّ غضبان !

أخذت الأيام تمضى بى بطيئة مكتهلة قاتمة ، وأنا فى نجوة موحشة ؛ لا أجلس إلا إلى نفسى الحزينة ، ودموعى السخينة ؛ ولا أخلو إلا إلى ذكرياتى المضطربة وخواطرى السود ، أشدو دامعاً بالأنين الشاحب الذبيح !

يالحساب الضمير ! . . إن لحساب الضمير وخزاً مؤلماً ، لا تدفعه

المسرات ، ولا تمنعه العزة والجاه ، ولا تشفع فيه حفاوة الناس بالخاطئ الأثيم . . إنه ليس كالألم الذى يعترى الإنسان إذا جرحت عواطفه ، أو صودرت ميوله ، أو أوذيت مصالحه ، أو أصابه مس من الخوف أو الفاقة . إنما هو ألم مصدره ضمير الإنسان الذى يقسو عليه ، وحسابه نفسه التى بين جنبيه على أنه قد ارتكب أمراً يعلم جيداً حين يأتيه أنه حرام ، وأنه مخير بين أن يفعله ، وألا يفعله ، ومع ذلك اجترحه ، فكان من الخاطئين . .

إن حساب الضمير نار يحسها الجانى فى باطنه ، ويعلم أنها نار المجازاة العادلة التى لا مفر منها . . إنه النفس اللوامة ! . . آه منها تلك القوة التى تشتعل فى أعماقنا ، وتسيطر على كياننا ، وتفتش عن خطايانا ، وتحاسبنا عليها حساباً عسيراً ، وتحيل أمسياتنا جحيماً ، وأصباحنا عذاباً أليماً ! . . آه من هذا الهاتف الداخلى الذى يقلق مضاجعنا ، وينفى عنا الرقاد ، ويسلب منا بهاء الحياة ونضارتها ، ويتركنا فريسة لأعنف اللوم والندم !

لكم خلوت إلى نفسى ، وصليت وبكيت ! ولكم ركنت إلى الصيام أحاول أن أطهر روحى وجسمى ، وأعود إلى العفة والنقاء ! لكنى لا أكاد أتطلع فى المرآة ، وأرى وجهى الذى كان نقياً مشرقاً قد هزل ، وامتقع لونه ، حتى أوقن أن السخط السماوى يلاحقنى وأنى لن أستطيع أن أطهر روحى الباطنية ، مهما طهرت وعاءها المادى الخارجى ؛ وأن سهدى الطويل ، وصيامى المتواصل ، وصلواتى الكثيرة ، لن تغنى شيئاً ، ولن تدفع عنى العذاب الذى أحسه ، والعذاب الذى ينتظرنى .

كانت أطياف ضحاياى البريئة التى ضيعت مستقبلها ، وقضيت على زهوها وهناءتها ، لا تبرح تتراءى إلى ؛ وكانت أشباح السنوات التى قضيتها فى خراب بينى وبين الله ، لا تنفك تتمثل أمامى تخيفنى ؛ فعنى الألم

الخامر نضرة صباى ، واضمحل جسمى ، ووهنت قواى ، وتحطمت أعصابى ، وتهدم كيانى ، ونزل بى داء عياء . .

كنت إذا أويت إلى فراشى ، محطم القوى ، متخاذل العضلات ، أحاول النوم ــ تتراءى لى الأشباح فى صورة بشعة . . أشباح من المردة فى سواد أفعالى ودمامتها ؛ فلا تزال تؤرقنى ، وتسهلنى ، وتسخرمنى ، وتضحك من أساريرى الشاحبة . . ثم تدعونى إلى دنيا الإثم والشر ، وتسدّ فى وجهى أبواب السماء وفردوس الصالحين ؛ فتطير نفسى شعاعاً ، وتأسر القشعريرة جسدى ، وتشل فىّ حركة التفكير ، ويجفّ ريقى ، وتموت أصوات الاستغاثة وراء شفتى . فإذا مددت يداً مرتعشة متخاذلة ، وجذبت الغطاء فوقى ، التف علىّ وعلى الأشباح ، تعانقنى ، وتعصرمنى كل معانى القوة ، فأتصبب عرقاً ، وأتفصد هلعاً . .

فإن غلبنى النوم والتعب ، رأيت مواكب أجدادى ، ورأيت أبى التقىّ النقىّ ، ورأيت أمى الطيبة الطاهرة ؛ لكنهم جميعاً كانوا يشيحون بوجوههم عن ابنهم الزانى الزنيم ، ويضنون عليه بنظرة راثية !

وكان القلق النفسى ، أو الخوف من مجهول متوقع ، يحيلنى طفلا ضعيفاً ، مرتاعاً مبهور الأنفاس ، كأن جسمى مزود بتيارات نشيطة من الكهربا ، قتلت فىّ كل عاطفة نبيلة ، وأشعلت فى عقلى ، وجميع حواسى ، فكرة الانتحار . .

وأضلتنى بعض الشبهات التى لم أستطع لها ردّاً ، والشكوك التى لم أقوَ على مدافعتها بالحجة والبرهان ، فبرمت بهذه الحياة المجدبة الظاهر والباطن ، المصفرة الوجه والقلب ، حتى طابت نفسى إلى الموت . .

لمَ لا أنتحر ، وأنجو من هذا العذاب الأليم ؟ !

٢٣

شقيقى عبد الرحمن

ليس الصبر على متاعب الحياة هو الجبن – كما تقول – وإنما الجبن هو الانتحار ؛ والشجاعة هي الصبر . . وليس للشجاع صفة يتحلى بها ويوصف غير الصبر ؛ فهو أشق ما يكون ، ولا يتحمله إلا الأبطال :

وكلما ازدادت مشكلات الحياة ، وتوالت على المرء المآسى ، زادت حاجته إلى الصبر ، وإلى التمسك به ، حتى لا يترك للجزع والاستكانة سبيلا إلى السيطرة على عقله ، وإفساد تفكيره ، فيرى الطريق إلى حل مشكلاته مسدوداً . . فبالصبر – يا أخى – تتاح لك الفرصة لقهر أعدائك ، والتغلب على كل ما يعوق تقدمك ، والانتصار على كل متاعب الحياة .

أما الانتحار ، والهروب الظاهر من تبعات سلوكنا ، فضعف وخور ، لا يلجأ إليه إلا الكافر الجبان . . ولو علم المنتحر ما سيقدم عليه بعد هلاكه ، لفضل أن يعيش فى الدنيا جائعاً عارياً مجذوماً ، مبتور اليدين والرجلين ، على أن يموت منتحراً !

وإذا كان ما تمر به اليوم من أزمة روحية ، وضيق نفسى ، يبعثك على أن تنكر – والعياذ بالله – أن فى السماء إلهاً عادلاً رحيماً ، فليس أدل على وجوده – عز وجل – من حياتك هذه ، وما أنت فيه من الهم الذى تعانيه منذ سنين ، وأنت ذلك الشاب الفطن اللبيب النجيب ، فى حين أن « فهمى أمين » مثلا – وهو ذلك الجاهل الأحمق الذى لا يمتاز من البهيمة بشىء – ينعم بطيب العيش ، هانئ البال مستريح الضمير ! فلو لم يكن الأمر بيد إله موجود ، يدبر الأمر ، ويسير الخلق ، لكان كل منكما – أنت و « فهمى » – فى مركز الآخر . . هذا التباين وحده دليل على

وجود الله .: أما عدله ورحمته فلن تشعر بهما إلا إذا سلبك تلك النعم الجزيلة التى أسبغها عليك ، فأصمك ، وأعماك ، وأقعدك وسلط عليك من لا يرحمك !

يا شقيقى العزيز

إن الريح التى يسمح الله بهبوبها على البشر ليست دائماً هادئة رخاء، وإن الإيمان كالبحر : يحمل أو يغرق ! والاستسلام لضربات أمواجه العاتية ، بدون تذمر ، يتطلب ثقة عميقة ، وعزماً لا ينثنى .:.

ومن أنا ؟ ومن أنت ، حتى نعاند الأقدار ؟ ! هل زاد الواحد منا على أنه رقم ضئيل ، فى خانة الآحاد ، غارق فى طوفان الأرقام التى لا يحيط بها العد والإحصاء ؟ !

لقد عشتَ ما عشت فى دنياك هذى ، فماذا جنيت ؟ ! أو ماذا كنت ترجو أن تجنى ، وأنت قوة دنيا تسيرها مشيئة عليا ؟ ! .: لقد عشت ما عشت بدون أن تدرى شيئاً ؛ وستترك الحياة بدون أن تفطن إلى كنهها ، أو تدرك سرها ؛ لأنك أخذت الحياة على أنها لعب ولهو ، وزينة وتفاخر ؛ ولم تعرف الحياة على أنها جد وكد ، وعمل وجهاد .: والحياة — يا شقيقى — ترضى من لا يسرف فى تقاضيها ، ولا يلحف فى طلبها ، ويتكالب عليها . . وهى لا تخلو من الخير والشر ؛ فعوامل الخير والشر تعتور كل إنسان فى حياته ، ولكن عاملا منها لن يقود خطاك إلى جهة معينة ، ما لم تستسلم أنت له ؛ فإن انتفعت بما أعطاك الله من وسائل الاهتداء سلكت طريق الخير ، وفزت بثماره ؛ وإن ذللت لشهوات النفس الأمارة بالسوء كان الشر سبيلك ، وبؤت بأوزاره . ففتش فى أعماق نفسك لتعرف فيم أخطأت ؟ وفيم كان اعوجاجها ؟ وكيف غاب عنها أن تسلك الصراط المستقيم ، وهو منها جد قريب ، تهنأ بظلال وارفة من الهدوء ، وتعش بمنأى عن التدم .:

إن الماضى لن يعود ، وإن المستقبل بيد الله ؛ أما الحاضر فهو وحده الذى نملكه ، فلنحاول أن نجعله سعيداً . .

وإن تعوّد الخير ، وضبط النفس ، أصعب من تعود الشر وترك النفس تنقاد للشهوات . . وإن عمل الشر يجعل التمادى فيه أيسر على الإنسان وأسهل ؛ لا لأن الشر — كما تقول — أصل فى النفس ، وإنما لأن عوامل الشر أقرب منالا ، وأقوى جذباً ، وأفعل سحراً وأعظم خداعاً . . ولو كان الشر أصلا فى النفس ما حادت عنه يوماً إلى جادة الحق والخير والجمال . . فليكن تجنبك الشر بقدر عنايتك بفعل الخير . . ولتفعل ما تسمو به نفسك ، ويمنحها سلامها ورضاها ؛ فملاك الأمر كله ، ومسالك الأخلاق المثلى : ضبط النفس ، وتربية الإرادة ، واجتناب المطامع والشهوات . وهذا كله مرجعه إلى الإيمان . .

فإذا قرأت كتابى هذا فقل : أستغفر الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ فإنك قد كفرت فى رسالتك ؛ وقد زاد هذا من ألمى لأجلك !

لتلجأ إلى الله ، ولتعتصم به ، ولتأو إلى كنفه ورعايته ؛ فليس أصلح لعلاجك من القلق ، واضطراب الفكر ، إلا الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والرضا بقضائه وقدره ؛ وليس أبعث إلى السكينة والطمأنينة من الصلاة والتسبيح . . ولتعلم يا أخى أنه لا خير فى حياة بعيدة عن الإيمان ، مجردة من روح الدين . . فما أتعس الإنسان المنقطع الصلة بخالقه ، المحروم المدد من فيض ربه ! فالخير كل الخير فى الإيمان بالله ، وأداء الفرائض ، واجتناب النواهى . . فعليك بذلك ، يا أخى ، تتذوق كل أنواع البهجة والسرور والانشراح ، وتنل النجاة من عوامل الشر والأذى ، وتبرأ البرء التام من مرض الجسم ، وتعس النفس ، ومن كل ما تشكو من علة ووصب . .

لو كنت فى لجة يحيط بك الموج من كل مكان ، أو فى صحراء موحشة

أو وسط لهب وحريق ، وقلبك عامر بالإيمان بالله ، ولسانك مشتغل بذكره ، فأنت إما ناج من هذه المهالك ، وإما مرحِّب بهذا الهلاك ، مستبشر بقدومه ، لأنه يدنيك من الله . . فالمصيبة عند المؤمن نعمة ، وعند الفاسق نقمة وعذاب !

إيه ، يا عبد الرحمن ! تريد أن تنتحر تخلصاً من متاعب الحياة الدنيا ، فبأى شيء تتخلص من عذاب الحياة الأخرى التى لا ينتهى فيها شقاء المرء ، كما لا تنتهى فيها سعادته ؟ ! . .

أتشكو وتضجّ من أشياء هى — لا محالة — زائلة ، إن عاجلا أو آجلا ، ولا تتقى عذاباً لا يخفف ولا يزول ؟ !

تشكو القدر الذى حمَّلك من الهموم ما الله وحده به أعلم . . فأين أنت — يا أخى — من ذاك الذى صدمته سيارة ، فكسرت ساقه ، وهشمت أضلاعه ، وتركته لا حيًّا فيرجى ، ولا ميتاً فينعى ؟! . . أين أنت من هؤلاء الذين ابتلوا بالجذام ، أوالشلل ، أو السرطان ، ولا يجدون إلى الخلاص من هذه العلل سبيلا ؟ !

فتعقل ، يا عبد الرحمن ، واطرد عن فكرك هذا الجرم الشنيع ، ولا تجره على لسانك أو قلمك ، فنحن معذبون بفراقك ، وأنت عنا غير بعيد ؛ فكيف لو فارقتنا فراقاً لا لقاء بعده ؟ !

أشفق على أخيك الذى سيقترن عما قريب بزوجة سيكون من أحب الأشياء إليها أن ترى زوجها محوطاً بإخوة طيبين ؛ كما أنه سيكون من أشق الأمور عليها أن يسوءها الدهر فى أعز شقيق عليه .. فارفق بنفسك ، وبأخيك ، ولا تفجعنا فيك ، فنحن نحبك ، ونحب أن تعيش ، وأن تسعد . .

أما خطاياك التى تشكو ثقل أوزارها ، فلو أقلعت عنها ، وتبت ؛ فإن الله غافر الذنب ، وقابل التوب . فلتجعل الله دائماً فى المكان الواجب

أن يشغله من قلبك .: ولتعلم أن الخطيئة تُخرِج الله من قلب الإنسان، وأنها بثرة خبيثة تستشرى فى جسمه ، وداء كلب يسرى فى دمه ، ووخز قتّال يبرى عقله ، وعاصفة هوجاء تقصف فى أحشائه .

والفتى الصالح هو الذى يسمو بهمته على الشهوات الباطلة ، والأعراض الزائلة ، ويدرك أن هذه الحياة مزرعة لما بعدها ؛ فلا يطغيه المال مهما كثر ، ولا يستعبده الجمال مهما فتن ، ولا يخدعه المنصب مهما علا ، ولا يلهيه متاع الدنيا عن نعيم الآخرة ، ولا يشغله الشيطان عن مراقبة الله ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور !

فلتنصرف يا أخى بكليتك إلى التوبة ، وإلى الإيمان العميق ، ولتخلص عبادتك لله ، وأقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ؛ وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً . وأنا الزعيم بأن يعود إليك توازن نفسك واطمئنانها ، وراحة ضميرك وسلامه .

ومن ضعف الرأى — يا شقيقى — أن تسلك طريقاً يغمض ، وقد وجدت السَّنن اللاحب ؛ وأن تطاول المريض فى العلاج ، وفى يدك الدواء الذى يشفى عن كثب .

ولتعلم أن كل شقاء يعانيه المرء فى هذه الحياة هين وجميل إذا قيس بالموت . . والموت آت ، لا ريب ، فلم تستعجله ؟ !

وفى هذا بلاغ لمن له قلب ، أو ألقى السمع ، وهو شهيد !

أرجو أن تغفر لى نسيانى إهداءك التحية فى البدء ، فلتكن فى الختام ، مع أصدق الدعوات أن يهبك الله سلام النفس ، وصحة البدن ، وهناءة البال ، وتوفيق الحال . . وسلمت لشقيقك

الإسكندرية   عبد الحميد

٢٤

قرأت رسالة شقيقى « عبد الحميد » مرة ومرة ، وعشر مرات ، حتى كدت أحفظها عن ظهر قلب ؛ وقد أثرت فى نفسى أثرها المرجوّ ، ففارقتنى صَبْوة الانتحار ، وأرهفت عزمى على أن أطرح الماضى الأثيم ظهريًّا ، وأنشط للمستقبل .

وأول خطوة خطوتها فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، أنى طلبت نقلى من مركز الشركة فى القاهرة إلى فرعها فى الإسكندرية ؛ لأفارق المواطن التى تثير فى نفسى أقسى الذكريات وأفجعها .

أقمت فى الإسكندرية بمنزل شقيقتى الحبيبة « سميرة » ؛ فبذلت هى وزوجها غاية الجهد ، ليوفرا لى الراحة ، ويذهبا عنى الحزن والوحشة ، ويدخلا على قلبى الأنس والمسرة .

وكان شقيقى « عبد الحميد » وعروسه يجدّان أيامئذ فى تأثيث عشهما الجديد ، فأشركانى معهما فى الاختيار والتنظيم .

وفاض قلبى بهجة وانشراحاً لما رأيت من هناءة العروسين ، ولما لمسته من سعادة ابن عمّى « يحيى » وشقيقتى « سميرة » وتوفيقهما ؛ فاشتهيت الحياة الهادئة المستقرة ، وجعلت أحلم ببيت خضل القلب ، هنىء المثوى ، تزينه عروس طيبة ، فاضلة ، جميلة ، لطيفة ، مثل أختى « سميرة » ، أو مثل « تغريد » ، عروس شقيقى « عبد الحميد » .

ثم تلقيت يوماً بطاقة دعوة إلى حفل زفاف : . زفاف « نعيمة » وابن عمّها المهندس « محسن » ؛ فثارت بى الأهواء ، وصحّ عزمى على الزواج ؛ ونمّى هذا العزم ما كان يكرره « عبد الحميد » و « سميرة » على مسمعى ليل نهار ، من ترغيب فى الزواج ، وتنفير من حياة العزوبة والفوضى

والخطيئة . . لكن الاستقرار المنشود كان حلماً بعيد المنال ؛ فإنى لم أكد أختلط بموظفى الشركة فى الإسكندرية ، وأعاشرهم عن قرب ، حتى أحسست الخيبة والحسرة والنفور تغزو قلبى ، وتحققت أن الانسجام وزملائى هؤلاء أمر محال ؛ فهم خليط عجيب ، لا تجمع بينهم جامعة ، ولا يقربهم منى ومن آرائى شىء .

وفكرت فى التخلص من منصبى الجديد ، وأخذت أعد العدة لذلك ، غير أن إله الحب — وهو إله لا يرحم ولا يلين — قدر غير ما ارتأيت ؛ فقد انتزع من كنانته أوغل السهام ، وقذفه من قريب ، فأنفذه إلى الأغوار ، وأصاب منى الأعماق ، إذ ألقى فى طريقى « شارلوت » الهاتفة بالحب .

إنها فتاة لبنانية ، تعمل فى القسم الذى نقلت إليه . دمية جميلة ، وابتسامة دائمة ، وحركة مرحة دائبة ؛ لكن فتنتها مخيفة ، ممزوجة بشىء غريب شيطانى يجعلها كثيرة الطلاب جمة الصحاب . .

اتجه قلبى إليها منذ رأيتها ؛ فإن لحديثها وصوتها وحركاتها وظرفها أثراً بعيداً فى النفس ، لا تقوى معه على التملص من الإقبال عليها ، والوقوع فى شركها ؛ فجعلت أتحين الفرص لألقاها ، وأستمتع بحديثها الشهى ، وصوتها العذب الحنون ، بعيداً عن أعين الرقباء . .

كان لمسها يخدر أعصابى ، وأنغام صوتها الرخيم تسكرنى ، وأنفاسها تعصر فى روحى عطرها ، ووقع قدميها يدق فى قلبى ؛ فأثارت أحاسيسى حتى صرت أرى معها كل ما تقع عليه عيناى جميلا بهياً ، ضاحكاً حياً . وليس كالمرأة الجميلة شىء يرفه عن الإنسان فواجع الحياة ، ويصرفه عن التفكير فى همومه وأحزانه .

استرحت إلى صداقة « شارلوت » ؛ واستراحت « شارلوت » إلى صداقتى ، واتخذت منى نجياً تسر إلى بأخبارها ، وتبثنى ما طوته من أسرار قلبها ؟ ؟

أنبأتني أنها خُطبت منذ عام ، وأن خاطبها جحد حبها ، وسحر صباها ، بعد ثلاثة أشهر ، ليميل إلى فتاة أقل منها جمالا ، ولكنها من ذوات الجاه العريض والغنى الفياض .. وعزّ ذلك على « شارلوت » ، وحزّ فى نفسها ، ففترت عاطفتها بعض الفتور ، وباتت قليلة الثقة بالرجال ، بعد أن وثقت برجل لم يكن أهلا لهذه الثقة . .

وأنبأتني أيضاً أنها صدّت — فيما بعد — كثيرين تقدموا لخطبتها ؛ لأنها لم تجد فيهم من هو جدير بأن تمنحه حبها وثقتها . .

.. ثم قالت : وجئتَ أنت . . فأيقظت قلبي من غفوته !

وانطلقنا معاً ننعم بالحب على شاطئ البحر ، وفى الحدائق ، نلهو فوق الرمال ، ونتعانق تحت الخمائل ؛ والنسيم يداعب شعرنا ، والقمر يسكب علينا أشعته الفضية . .

ويوماً دعتني إلى تناول الشاى فى منزلها ، فلبّيت الدعوة شاكراً ؛ فإذا هى وأبواها وأخوها يستقبلونني أطيب استقبال ، ويرحبون بي أبلغ ترحيب ، ويأنسون بي ، وآنس بهم . .

ومر شهران . . وحدّثت « شارلوت » فى زواجي بها ، فاستجابت راضية مبتهجة ، لكنها استمهلتني ريثما تستشير أبويها ، لما بيننا من اختلاف فى الدين . .

واستشرت أنا شقيقي « عبد الحميد » وشقيقتي « سميرة » ، وزوجها — ابن عمتنا الأستاذ « يحيى » — فثاروا جميعاً ثورة هوجاء ، ورفضوا بحث هذا الزواج المنشود على أى وجه من الوجوه . . وصاحت « سميرة » الحبيبة : هل ضاقت الدنيا ، أو خلت من الحسان المسلمات حتى تتزوج مسيحية ؟ !

ثم توالت رسائل الإخوة والأخوات تسفّه رأيي ، وتجبهني بالرفض القاطع ، وتنعتني بكل وصف سخيف :

وبمثل هذه الثورة قوبلت « شارلوت » حينما أرادت أن تعرف رأى أبويها ، لو أنني تقدمت لخطبتها ؛ فقد رفضا رفضاً باتاً أن تتزوج ابنتهما الكاثوليكية مسلماً ، مهما يكن مركزه وثروته ، ومهما يكن مقام أسرته وذويه .

ركبت رأسي ، وعددت هذا الرفض من والدى « شارلوت » إهانة لى ؛ وحسبت ثورة إخوتى حجراً على حريتى ، وتدخلا منهم فى أخص شئونى ؛ فثرت عليهم جميعاً ، وأعلنت « شارلوت » أنى لا بد متزوجها ، سواء أرضى أهلونا أم أبوا . . وأخذتُ أزين لها الأمر ، وأهونه عليها ، فلبت نداء قلبها ، واستجابت لى ، وجعلت تفكر معى فى كيفية إتمام زواجنا ، وإعداد عشنا السعيد .

وطفقت أحلم ببيت تحيط به حديقة غناء ، بعيدة عن كل ضوضاء ، فيها العشب والهشيم ، والشمس والظل ، والماء والهواء ، وفيها الصنعة والفوضى ، والربيع والخريف ، وكل ما انسجم وكل ما تناقض من هذه الأمور المتباينة التى يتألف منها هواى ومزاجى » .

ثم قالت لى يوماً : سيذهب أبواى وأخى فى هذا المساء إلى حفل ساهر ، وسأبقى وحدى فى البيت . . أفلا تأتى ؟ !

وفى منزلها وضحت الحقيقة ، فإذا هذا الجمال والسحر والفتنة يمسى كله مصدر فزع وألم وحسرة !

ما أمر الحقيقة ! وما كان أعذب الأحلام ! . .

بالأمس كان همسها أحب إلىّ من شدو البلابل ، وشذى أنفاسها أذكى من عبير الريحان ؛ واليوم — وقد بانت الحقيقة — طارت البلابل ، وهجرت أوكارها ، وذبلت الأزهار ، فليس لها عبير . بالأمس كنت أبنى الآمال وأنا أنصت إلى حديثها خاشعاً متهللا ؛ واليوم تهدمت آمالى حجراً حجراً ، وكشفت أنى أسست بنيانى على شفا جرف هار فانهار بى .

بالأمس علمتني حبها ، وأنا أنظر إلى عينيها الساحرتين ؛ واليوم علمتني احتقارها ، وأنا أنظر إلى عينيها الخادعتين !

لقد كشفتُ أنها غير عذراء ، وأن رجلا آخر قد سبقني إليها ، واستمتع باقتطاف زهرتها !

صدمت صدمة قاسية عنيفة ، حطمتني . . . ورحت أسائل نفسي : كيف يكون وقع هذا الكشف في نفوس الرجال الذين يتزوجون أنصاف العذارى ؟! . . كيف تكون حالهم ؟ وأي تصرف يأتون حين يصدمون بأن حبيباتهم ذوات ماض أثيم ؟!

وتركتها ونفسي يغمرها التقزز والاشمئزاز ، وقلبي يملؤه الهم والحسرة . وبلغت البيت وأنا كالوحش الجريح يلوذ بعرينه بعد معركة أصيب فيها إصابة قاتلة . فجعل « يحيي » و « سميرة » و « عبد الحميد » و « تغريد » يحاولون أن يعرفوا سبب هذه النكسة التي قلبت كياني ، وردتني إلى الثورة ، وصيرتني في حال هي – بلا شك – أسوأ فترة يمر بها شاب في حياته ، لكني صمتُّ لا أجيب ، واعتزلت لا أخالط .

كنت هدفاً لأشد ثورات النفس ، وأعنفها ، حتى باتت الحياة وقراً عليّ ، وكرهت نفسي ، وعاودني التفكير في الانتحار ، فإن الانطفاء في العدم خير من هذا العيش الزنيم .

لقد استبان لي حينئذ – وأنا الدقيق الحس ، الرقيق الشعور – كأن الشر قد أطبق على كل جوانب الحياة ، وأنه قد قهر الخير شيئاً فشيئاً ، حتى كاد يمحوه ؛ فاستبد بي التشاؤم ، وبدت الحياة كلها في عيني قبائح ورذائل ، كأن الكمال وهمٌ تتعلل به الخواطر ، ولا سبيل لنا إليه . . وفقدت ثقتي بالنساء جميعاً ، واستبدلت بالحب المغامرات العابرة . وكلما اتسعت دائرة مغامراتي ازددت تمسكاً بألا أرتبط بامرأة ؛ فكل امرأة ترضخ لعواطفي الجامحة كانت تؤكد لي أن الخيانة والخديعة ، والمشاعر

الزائفة ، والعواطف الرخيصة ، طبع فى بنات حواء !

إن مغامراتى كلها كانت تجارب وقتية ؛ فهل يمكن أن أعثر على الحب الثابت العميق ؟ !

وجعلت تلك الخواطر اليائسة السوداء تصطرع فى نفسى ، وتقيمنى وتقعدنى ليلَ نهارَ ، إلى أن قهرتها إرادة الحياة ؛ فبدأت أسترد أنفاسى شيئاً فشيئاً ، ورحت أفيق من كابوس اليأس الخانق ، وأتناسى ما يحيط بى قائلا : أليس هذا — كما قال عبد الحميد — دليلا أبلغ دليل على أن الخير كامن فى النفس البشرية ، وأنه جزء لا يتجزأ منها ، وأن الإنسان إذا بدا أحياناً ذئباً مقلم الأظافر استسلاماً للغريزة ، فإنه لا ينى أن يعود ملاكاً خيِّراً ، استسلاماً لما فطر عليه من دوافع الخير ؟ !

٢٥

وسط هذه الغمرات المتضاربة رأيت الحسناء « نجوى » .. التقيت بها وقت الأصيل ، فى شارع سعد زغلول ، ترافق « تغريد » زوج شقيقى « عبد الحميد » . .

وجهها الجميل برىء من الدهان والأصباغ ؛ وشعرها الطويل معقوص كالإكليل ؛ وثوبها الرمادى يستر جسمها حتى معصميها وكعبيها ؛ ونظراتها الصافية تخلع عليها حلة ضافية من الحشمة والبهاء . وحسبك بخبير بدقائق الجمال وسره ، تكفيه النظرة القصيرة يلقيها على الفتاة ليفهم سر ميولها :

نظرت إلى « نجوى » فإذا هى من أجمل الفتيات وأكملهن ، وأكثرهن حياء ؛ لم تفسد المدنية فطرتها ، ولم يجرفها تيار تقليد الأجنبيات والممثلات كما جرف الكثيرات . .

كان أول ما جذب نظرى شعرها الأسود اللامع يزين أجمل رأس :

فلما انحدر نظرى إلى وجهها وجسمها أيقنت أن النظرة الأولى لم تكذبنى :: وجه مشرق ينم عن براءة وطهر ، وعينان دعجاوان تفيضان بالأحلام والسحر ، وفم صغير لا يُرام جناه ، ووجنتان متوردتان تدلان على الصحة والعافية ، وقوام لدن ممشوق يشيع الفرحة والأمل فى عين من يراه . .

وسرنى منظر أسنانها حين ابتسمت ، فقد رأيت أجمل أسنان نضدت بين أغض شفتين ؛ فحدثت نفسى ، وبصرى عالق بوجهها المنير : هذه هى حلم القلب ، ومنية النفس ، وطلبة الروح ؛ فلو غزوت قلبها لبلغت غاية مآربى فى الحياة !

لزمت « تغريد » وصديقتها « نجوى » حتى فرغتا من شراء ما أرادتا ؛ وأنا لا أنفك أحدث نفسى بأنى عثرت — أخيراً — على الفتاة التى ينشدها قلبى ؛ وتحيا بها نفسى ، وتغنّى فلا تقول مرة أخرى : هل من مزيد ؟ ! واعتزمت أن أقتنص قلبها . . والحب لا يعالج إلا بالحب !

* * *

طلبت إلى « تغريد » أن تهيئ لى لقاء بصديقتها « نجوى » ، فارتاعت وصاحت بى : حذاريْك يا « عبد الرحمن » . . ابتعد عن « نجوى » . . إن « نجوى » فتاة فاضلة ، مستقيمة السيرة ، ومن أسرة محافظة ؛ وهى ليست كمن تعرف . . أحذرك . . أحذرك ، وأنا واثقة أن غزلك وألاعيبك وأحاديثك المعسولة لن تجدى معها فتيلا . . وبعد ؛ أفلا ترى أنك تائه ضائع ، وأنك خليق بأن تفكر فى مستقبلك ، وتجد فى حياتك ، وتنصرف عن العبث والمجون ، وتؤسس لنفسك بيتاً ، وتكوّن لك أسرة ؟ ! ألم يأن لك أن تهتدى وترعوى ؟ !

— هذا ، والله ، أملى يا « تغريد » . . ولقد فكرت كثيراً فى ذلك ، لكن الأيام أبت إلا أن أكون كالطير الطليق ، أحلق حيث أشاء ، وأسقط أنى أريد . . فخبرتى مع بنات اليوم جعلت الحرية أعظم ما تصبو

إليه نفسي ، ما دمت لا أجد من هي جديرة بوضع الغل في عنقي . .
— يا أخي ، الإنسان الرشيد لا يجد الحرية إلا في بيته ، ولا يحس السعادة إلا بين أسرته . . والمسألة تتوقف على السيدة التي تعمر البيت . . ما أقصر نظرك ! أتظن الفتيات جميعاً على شاكلة من أوقعهن سوء الحظ في طريقك ؟ . . ما أكثر الطاهرات الشريفات العفيفات ! . . هذه « نجوى » واحدة منهن . . أتراك قادراً على أن تعترض سبيلها ؟ !
— الحق أقول يا « تغريد » إني اليوم شريف المقصد ، نبيل الغاية ؛ وإن إحساسي نحو « نجوى » يختلف كثيراً عن إحساسي نحو من عرفت جميعاً . . اصنعي بي هذا الجميل ، وهيئي لي لقاء معها . .
وطال الحديث بيننا شبيهاً بالمبارزة ، حتى استطعت أخيراً أن أقنعها بشرف مقصدي ، وسمو غايتي ؛ فرضيت أن تهيئ لقاء بيني وبين صديقتها « نجوى » .

و « تغريد » و « نجوى » صديقتان متلازمتان منذ الطفولة ، فأسرتاهما تقيمان في عمارة واحدة من العمارات الفخيمة ، في ضاحية « رشدي باشا » برمل الإسكندرية . . وقد شاء القدر أن تسكن هذه العمارة شقيقتي الحبيبة « سميرة » ، وأن تصادق هاتين الأسرتين ، وأن تتبادل الأسر الثلاث الزيارات فيما بينها . وفي إحدى هذه الزيارات رأى شقيقي « عبدالحميد » عروسه « تغريد » ، فأعجب بها ، وأعجبت به ، وتحابا وتزوجا .
وكانت « تغريد » و « نجوى » قد سارتا في طريق واحدة في مراحل الدراسة ، حتى تخرجتا معاً في كلية التجارة ؛ فعملت « تغريد » في شركة الأقطان ، وعملت « نجوى » في مصلحة الضرائب . أما « تغريد » فقد استقالت من عملها ، وفرغت لزوجها وبيتها ؛ وأما « نجوى » فظلت تعمل وتنتظر ابن الحلال !

* * *

دعتنا « تغريد » إلى تناول الشاى فى عشها الجديد فى « الإبراهيمية »:
وتأملت « نجوى» مليًا ، فأدركت أنها حسناء ، جمة التواضع والحياء . :
وتحدثتْ فسحرتنى ، ورنت فأسرتنى . .

وحاولت أن أنصب حولها أشراكى ، وأن أجذب قلبها إلىّ فى سرعة ، فأخذت أتملقها ، وأثنى عليها ، وأنا أعلم أن كل فتاة تحب الملق ، وترتاح بحديث الرجال ، فالغوانى يغرّهن الثناء ! لكنها كانت صعبة القياد ، عسيرة الانخداع ، قوية الإرادة ؛ فما نفعت فيها الرقى ، ولا أثّر فيها لين الكلام وفرط الثناء .

ثم التقينا — أنا و« نجوى » — غير مرة ، فى بيت شقيقى « عبد الحميد» أو فى بيت شقيقتى « سميرة » ؛ فأدركت حقًا الفرق العظيم بينها وبين من عرفت من فتيات ، فهى محتشمة رشيدة ، لاتفسد وجهها بالجمال المجلوب ، وهن متبرجات طائشات مستهترات .. هى تكره المجتمعات ، ولا ترضى إلا بالصداقة النقية الطاهرة ؛ وهن يبحثن عن المرح والسرور فى المراقص والملاهى .. وهى — لهذا — أكثر منهن فتنة ، وأبهى منهن جمالا ، وأحمد منهن خلقاً ؛ فصبَت إليها نفسى ، وتدله بحبها قلبى . .

وزاد قدرها فى عينى ، ومكانتها فى نفسى ، أنها ذات دين ، تؤمن إيماناً قويًا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤدى الصلوات الخمس لوقتها ، وتصوم رمضان ، وتصوم كذلك يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وتحفظ عن ظهر قلب أجزاء من القرآن الكريم .

ولم يكن تدينها هذا تديناً شكليًا كتدين الكثيرين ممن يؤدون الفرض وينقبون الأرض ، ويقولون : « ذى نقرة وذى نقرة » ؛ وإنما هو تدين عميق ، ينعكس على أقوالها انعكاسه على تصرفاتها كلها ، فهى تحب للناس ما تحب لنفسها ، وتعاملهم بالمعروف والحسنى ، وتصون نفسها عما يدنسها ؛ فلا تكذب ، ولا تحنث ، ولا تحلف ولا تشتم ، ولا تحقد

ولا تشمت . . ومن أجل صفاتها إنكار الذات ، وإيمانها بأن الدين المعاملة ؛ فكانت تخلص فى عملها الإخلاص كله ، وتتفانى فى قضاء مصالح الناس ، وتسرع إلى نجدة من يسألها العون والمساعدة . .

كانت تحب مكارم الأخلاق جميعاً وتحب الجمال فى الماء والسماء والزهر ، وفى الأطفال والحيوان والطير ، وفى الشروق والغروب . .

* * *

ويوماً انشغل عنا أهلُ البيت ، وخلت الحجرة إلا منا كلينا ، فقلتُ لها : كم يسعدنى يا « نجوى » أن تتكرمى فتتناولى العشاء معى ذات مساء فى أحد المطاعم !

— يؤسفنى ألا أستطيع . .

— إنى لأرجو أن نلتقى وحدنا غير مرة . .

— وما يدعو إلى هذا المسلك ؟ !

— أحب أن يفهم كل منا الآخر . لا تبخلى علىّ بهذه الأمنية . أرجوك .

رجفت أهدابها ، وتداركتْ دقاتُ قلبها ، لكنها لم تلبث أن رنتْ إلىّ قائلة : لمَ تريد أن أتناول العشاء معك ؟

— أحب أن نتحدث ساعة على انفراد .

— ألم تلحظ أن أخاك و « تغريد » قد أخليا لنا الحجرة ، وتركانا منفردين ؟ !

— فى نفسى أشياء كثيرة أحب أن أحدثك عنها . .

فأطرقت ، ولم ترد ، فقلت : هل أغضبتك ؟

— لا . ما أغضبتنى . .

فأشرقت أساريرى ، وتملكنى الفرح ، وقلت : اتفقنا إذاً ؟

— على ماذا ؟

— على أن نتعشى معاً . .

– قبلت : .
– ومتى ؟
– إن شئت فموعدنا يوم الخميس . . بعد يومين . .
– ألف شكر يا « نجوى » . .

وفى نومى رأيت أحلامًا زاهية : . واستيقظتُ فى الصباح وأنا من أسعد الناس نفسًا ، وأرخاهم بالاً ، وانطلقت إلى عملى بقلب مفعم بالسرور ، جياش بالأمانىّ العِذاب .

* * *

وإذ جلسنا إلى العشاء لحظت أن « نجوى » حاضرة الشخص غائبة الذهن ؛ فقلت : ما بك ؟ ما لى أراك واجمة ؟ أنادمة على مجيئك ؟ أوَ تكرهينني يا « نجوى » ؟ !

– أنا أكرهك ؟ ! ولماذا؟ . . أنا لا أكره أحداً . .
– انطواؤك يجعلنى أظن أنك نادمة على تلبية دعوتى . .
– أنا ما فعلت شيئًا أندم عليه . . ولو شئت ألا ألقاك لما جئت . .
– لكنك تحذريننى ، وتتجنبين التبسط معى . .
– بى صداع شديد ، ولولا أنى وعدتك بالمجىء ما خرجتُ من البيت . . .
– ألف سلامة ، يا عزيزتى ، وشكراً لك . لكنى أحس أن هناك شيئاً آخر غير الصداع . .
– الحق أنى أستشعر خوفًا دون أن أدرك مأتاه . . ربما كان سببه أن هذه هى المرة الأولى التى أتعشى فيها مع رجل غريب .
– يؤلمنى أشدّ الألم أن تنظرى إلىّ نظرتك إلى رجل غريب . . إن فى هذا الضرب من المعاملة جفوة ورسميات غير مستحبة . .وقد وجدتك تنسين هذا الأسلوب البغيض أحياناً فى بيت أخى ، أوفى بيت أختى ،

فكان حديثك يطيب ، ونظراتك ترقّ ؛ وإن كنت لا تلبثين أن تعودى إلى التقاليد، فتقسو نظراتك، وتقلّ ألفاظك .: أفلا يمكن — يا « نجوى » — أن نتعاهد على الصداقة ، فتلين الأيام وتصفو ؟

فرفعت طرفها إلىّ وقالت : إنى لا أعقد الصداقة مع الفتيات إلا بعد اختبار قاس ، وزمن طويل ، فكيف بالفتيان ؟ !

— وأنا مثلك لا أعدو إلى الصداقة عدواً . . غير أنى أجدُ فى تآخينا غبطة ، وفى صداقتنا هناءة ، وأحس إحساساً خفيًّا أننا سنتفق فى كثير من المشارب والميول :.

قلت هذا وابتسمت ؛ ومددت إليها يدى ، فوضعت فيها يدها ، فشددت عليها ، وقلبتها ، فبدتْ راحتها :: وقبل أن تجذبَ يدَها أحنيت رأسى ، وطبعت قبلة على كفها ، ثم قلت : أشكرك يا « نجوى ».

قالت : لقد صدقت العزيزة « تغريد » فيما قالت . .

— ماذا قالت « تغريد » ؟

— لم تقل شيئًا أكثر من أنها حذرتنى منك . .

— حذرتك منى ؟ ! ولماذا ؟ ! وأى شىء أنكرته منى ؟ !

— غزلك . . فهى تقول إنك شاب خطر !

— وبماذا رددت عليها ؟

فضحكت حتى بدت نواجذها الصغيرة ، وقالت : هذا سرى !

— أنا لا أنكر ، أيتها العزيزة ، أنى شاب غزِل ، وأنى سرت فى دروب الهوى أشواطاً طويلة .: لكن لا تنسى أن لكل غزِل يوماً يسكن فيه إلى من يحبها ، فينسى باطله وغروره ، ويصبح رجلاً مخلصاً وفيًّا لمَن أحبّ :: وإنْ كان لا يسلم — حتى بعدَ بلوغه هذه المرتبة — من تهكم الناسُ ، ومن ظنهم أنه لم يزل يعبث ويلهو . . بل قد تظن التى يهواها أنه يمكر بها ويخدعها ، وأنه يجرى على سننه السابقة . .

« نجوى » : حدثيني . . ماذا فعلت بقلبي أيتها الساحرة ؟ !

فتظاهرت بعدم الاهتمام ، وقالت وهي تبتسم : إني لا أومن بالسحر !

ــ لقد أحببتك يا « نجوى » ، وإن نفسي لتحدثني أني سأكلف بك ، وأتدله في حبك . . وإن كنت أخشى هذا الغرام ، وأوجس منه خيفة . .

ــ الغرام داء وبيل ، وقد حصّنت قلبي من غزواته .

ــ كيف ؟ ماذا فعلت ؟

ــ آليت على نفسي ألا أصغي إلى حديث شاب ــ إن خطر لشاب أن يعترض طريقي ــ وألا أهتم به ، فأمنت بذلك على قلبي من العشق !

ــ هذه أقوال ومحاولات لا تفيد . . فالحب ــ يا عزيزتي ــ مثل الحصبة يصاب بها كل إنسان ، تقدم أو تأخر به الزمان !

فاهتزت وقالت بدلال : ليس كل الناس يصابون بالحصبة !

ــ إنك لفتاة غريبة حقاً !

ــ وأنت أغرب مني وأعجب !

فلت نحوها وقلت : إن الأيام ما ساقتك إليّ عبثاً ، وإني لأومن أن القدر قد أراد بنا كلينا شيئاً . . منذ رأيتك أحسست أن كلاً منا قد خلق ليكمل صاحبه ؛ وأن سعادتنا في أن نقضي الحياة معاً . . والدهرُ لا يقدّم الفرص الحسان اعتباطاً . . فحريّ بنا أن نغتنم هذه الفرصة ، وأن نجدّ في بناء سعادتنا ، وإلا كان مثلنا مثل مفلس عثر على كنز فخلفه ، وذهب يبحث عن درهم !

كنت أتكلم بصوت يسيل رقة وعذوبة ، ونعومة وحلاوة ؛ وكانت نظراتي طويلة صافية هادئة تنفذ إلى قلبها ؛ فرأيتها تهتز ، وتشرق أساريرها ، ويبدو عليها الاطمئنان والهدوء ، وتفارقها الجهامة والتحفظ ؛

ثم تبتسم وتقول : هذا حديث يحتاج إلى دراسة وتفكير . :

ـ يحتاج إلى دراسة وتفكير ؟ !

ـ نعم ؛ وسأقضي ليلتي في درسه . .

ـ إني ما طرحت عليك مسألة رياضية عويصة . .

ـ وهل يزعجك أن أدرس حديثك ، وأتفهمه ؟ !

ـ كلا ، كلا . . ولكني أعيش الآن في وحشة : :

ـ أتريد أن يكون مثلنا مثل الجائع الذى يقبل على أى طعام ، وإن كانت نفسه لا تشتهيه ؟ !

فتغافلت عن الإجابة ، وحسبت كلامها إهانة ، فقلت في حدة : وددت لو يسعني أن أضربك جزاء هذا القول الجارح .

ـ أترى ما أقول جارحاً ، وتود أن تضربني ؟ ! ما هذا ؟ . : أنا ما قصدت جرحك، وإنما قصدت أن ما تطلبه لا يجاب عنه في سرعة . . ثم أنت تعرف نفسك خيراً مما أعرفها : . وكل فتاة عاقلة يجب أن تفكر ، وتفكر كثيراً ، قبل أن تجيب مثلك إلى ما يطلب : .

أحسست أن وجهي قد التهب ، واصطبغ بحمرة الخجل والغيظ ؛ لكني ملكت نفسي ، وقلت : ليكن ما تريدين يا « نجوى » : : وعفواً إذا كنت قد أغلظت في القول ، فما تعودت أن أسمع مثل ماتجيبين به .

فتلألأت عيناها ، واحمرت وجنتاها ، وقالت : إن المشي على الغبراء أسلم من التحليق في السماء : . ثم ألا تراني مهذبة لطيفة ، حتى تود أن تضربني ؟ !

ـ أما أنك مهذبة فهذا أمر لا ريب فيه . .

فأظلم وجهها ، وقالت ، وكأنها تستعطف : أتراني مهذبة ، ولا تراني لطيفة ، لأني صريحة جابهتك برأيي فيك ؟!

ـ أوه ، يا « نجوى » ! إني أستسلم لك ، وأعترف أنك قد هزمتني . .

فتبسمت ضاحكة ، ونقلت من صحنها إلى صحنى قطعة لحم ، وقالت : كلْ . . كل ، ودع المقادير تجرى فى أعنتها ، كما قال الشاعر !

ــ نعم ، لندع الأقدار تفعل ما تشاء ، فما نستطيع لها تغييراً ولا تبديلاً . . لكننى واثق أنها لن تأتى إلا بالخير . . ما دمت إلى جوارى !

ــ حقًّا ؟ !

ــ أنت ، لا شكَّ ، شاعرة بمقدار السرور الذى ملأ قلبى لرؤيتك . . لقد كنت فى يأس قاتل قبل أن أراك وأعرفك . . كنت أوشك أن أضع بيدى حدًّا لحياتى قبل أن ألقاك . . فلما عرفتك رُدَّت إلىَّ الحياة ، وتعلقت بها ، وإنى لمغتبط لذلك ، ولسوف أفجر ينابيع الفرح من قلب حياتى الحجرية القاسية !

ــ أصحيح هذا الذى تقول ؟ !

ــ إنى أقدس هذه الساعة وأجلها عن أن تشوبها شائبة من كذب أو رياء . .

ــ إن الجراح ، مهما تكن أليمة ، تلتئم يومًا ما . . لكننا لا نكاد نصدق ذلك عندما تكون الجروح فى أول عهدها . . وكذلك الذكريات العنيفة . . سرعان ما تتلاشى ، وتصبح فى الأذهان كأنها صورة خيالية : . وسنفرح لانتصارنا فى الذكريات الأليمة الماضية . .

ــ إن لك قدرة خارقة على قلب الحقائق ، وتهوين الشدائد ، حتى ليخيل إلىَّ أنك تستطيعين أن تخلبى لب المحكوم عليه بالإعدام ، وهو سائر إلى المشنقة . . أتخيل أنك تقولين له : سيكون موقفك بديعاً ، ومنظرك خلابًا !

ــ ليس إلى هذا الحدّ . . لكنى أومن أن الإنسان يستطيع أن يتغلب على المصاعب ، ويسعد فى حياته ، إذا كان مؤمناً بربه ،

متقبلا تأديبه فى رضًا وشجاعة . .

أخذت أنظر إلى « نجوى » من جميع نواحيها ، فلم تقع عينى منها إلا على ما يعجبنى . . إنى ليعجبنى منها إيمانها ورزانتها واستقامة طريقها . .

ثم ودّعتها وهى تهم بركوب السيارة العامة إلى بيتها ، وأنا أوقن أن هذه الفتاة الوديعة الرشيدة ، الجميلة الفاضلة ، قد خلقت لتسعد زوجًا ، وتربى طفلا ، وتدبر بيتًا ترفرف عليه أعلام الهناءة ؛ فهل يسعدنى زمانى فأكون هذا الزوج ؟! إن زواجى بها هو النعيم الذى ليس وراءه نعيم !

٢٦

غادرت البيت مبكراً قبل أن يستيقظ أهله ، واتجهت نحو شاطئ البحر ، لأستنشق الأنسام الندية ، وأستقبل أشعة الشمس الأولى ، وأطالع فى صفحات الطبيعة قصائد الكون الخالدة التى تفتحت نفسى عليها ، وأقرأ فى مناظرها آيات الجمال الإلهى الساحر الذى أخذ طريقه إلى قلبى ، وكأن لم يشعر به من قبل قط .

كنا فى مستهل الربيع ، وكان اليوم يوم الجمعة ، وأكثر الناس ما يزالون فى فُرُشهم لم يفارق النوم عيونهم ، ولم تداعبها أنوار اليوم الجديد .

وقفت على شاطئ البحر أسمع فى هدير الأمواج أناشيد عذبة تطرب لها روحى ، فكأن الشاطئ قد ازدحم بالملائكة يغنون ويرقصون . .

طالت وقفتى ، ولفّنى الجمال حولى فى طياته ، واحتوانى بين أحضانه . .

ورحت أتأمل الأمواج وهى تعلو وتهبط ، وتطعن الصخور فى عنف ،

وتضرب الرمال فى شدة ، أو ترتمى عليها فى تهالك وإعياء ، والرمال تستقبلها صابرة مرنمة . . . !

أخذت أنظر إلى هذا الخلق العظيم نظرات شاردة ، أحاول أن أستشف بين أمواجه الغيب المكنون، وأفكر فى الصديقة الجديدة « نجوى » ، فتظهر لى سطور المستقبل مشرقة وضاءة يتلألأ سناها حيناً ، وتبدو حيناً آخر طلاسم يعييني تفسيرها ، ويحجبها ماض خافته ورائى ، قد ازدحم بصور جميلة وشائهة . . : ماض كنت فيه مضياعاً متلافاً ، ضالا فى ميادين اللهو والفجور ، لا أعبأ بما أبوء به من خسران فى الدين ، ونقص فى المال ، وضعف فى الصحة ، فلم يكن يهمنى إلا إشباع شهواتى ، وتحقيق لذاتى ، حتى غدوت أحدوثة تتناقلها الألسنة ، وتلوكها الأفواه .

نعم ، كنت فتى عربيداً ، شاذًّا فى بيئتى ، متمرداً على تربيتى : زير نساء ، وصياد عذارى ، ونديم كأس ، وحليف قمار . . ورأيت فى « نجوى » من تنقذنى مما أتردى فيه ، فأنا — لهذا — دائم التفكير فيها ، لا تكاد صورتها تفارق ناظرى ، ولا يكاد طيفها يبرح خاطرى ، ولا أكاد أنظر فى أمر من أمور المستقبل إلا ولها فيه نصيب :

لا أدرى كم قضيت فى وقفتى : . فلم أنتبه إلا على الأصوات حولى تعلو ، والشاطئ يزدحم ، والسيارات تقطع « الكورنيش » ذهاباً وإياباً ؛ فتركت مكانى ، وسرت على غير هدى ، حتى رأيتنى فى أحد المقاهى أحسى فنجاناً من القهوة ، وقد خالط قلبى انقباض لا أعرف له علة ولا سبباً .

ثم عدت إلى البيت فإذا هو على ما أعهده من الهدوء والسكون ، وإذا الشقيقة الحبيبة « سميرة » تعد مائدة الإفطار فى بهجة وإشراق ؛ فلما رأتنى خفت إلىّ ، وكأنى طفلها الصغير تريد أن تطمئن عليه؛

فزايلني القلق والخوف ، وعاودني الرضا والاطمئنان .

وقضيت النهار أفكر في « نجوى » ، وفي مستقبلي معها : أحقًّا أنها فتاة أحلامي؟ أحقًّا أن نفسي تقنع بها شريكة في حياتي ؟! . . إني لأعرف نفسي محبًّا للغزل ، أجد لذة وافرة كلما غازلت حسناء ، وأحس سروراً عظيمًا كلما قلت لجميلة إنني قد عشقتها . . فهل أحببتُ « نجوى » حقًّا ؟ . . إن لم تكن هذه العاطفة التي تشوي جوانحي هي الحبّ ، فماذا تكون؟ أتكون عواطف الرغبة والتملك والاستحواذ؟! . . لا ، لا : فإني قد أحببتها منذ البداية ، منذ النظرة الأولى . . ويخيل إليّ أن هذا الحب قد تقدم وازداد دون أن تعوقه العوائق :

لقد أصبحت « نجوى » جزءاً من حياتي يزداد أهمية يومًا بعد يوم . : ولم أكن أشعر بهذا في بدء الأمر ؛ وإن كانت صورتها قد نقشت على صفحة خيالي لا تغيب ؛ وإن كان كثير من كلماتها وإشاراتها ونظراتها لا يبرح ذاكرتي : . وهأنذا أشعر بدقات قلبي قوية شديدة كلما رأيتها ، وأشعر بالألم والأسف كلما افترقنا . . ثم هأنذا أشعر بالقلق لغيابها ولا أستطيع أن أنجز عملي كما كنت من قبل أن أعرفها . وكيف أحذق عملا والفكر شارد ، واللب عازب ؟! . . فلماذا هذا كله ؟ ولماذا أنتفض لمرآها ، وأنقبض لفراقها انتفاضًا وانقباضًا لم أحسهما لغيرها من قبل ؟!

لقد أدركت مكانة « نجوى » في قلبي ، وأيقنت أني قد أحببتها !

كانت « نجوى » تسكن — مع أسرتها — في الشقة التي تعلو شقة شقيقتي حيث أقيم إقامة مؤقتة . وفي أحد الأمسية كنت أتأهب للخروج ، فإذا هي تطرق الباب . .

ابتهجت لرؤيتها ، وآثرت أن أقضي فترة أسمر معها : .

ودار الحديث ، والحديث ذو شجون ؛ وتناول الكلام عناصر السعادة

فى الحياة ، وأن فى رأس هذه العناصر الصحة والمال والجاه . . :

فقالت « نجوى » : نسيتم أن فى الحياة أشياء كثيرة أحسن من الجاه وأشرف من المال . .

قلت : مثل ماذا ؟

قالت : إنها أشياء كثيرة يخطئها الحصر . .

قلت : لعلك تشيرين إلى الأسرة والأطفال !.

فضحكت قائلة : لا شك أن الحياة الزوجية الهانئة من أطيب نعم الحياة . .

قلت : والأطفال ؟

قالت : إنهم زينة الحياة . . قال تعالى : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ، فالأطفال هم أمل المستقبل ، وهى الذين يحببون إلينا العمل والتعب ، فنركب الصعب ، لنوفر لهم طعامهم وكساءهم ولعبهم . . وقديماً قالوا : لا خير فى دار لا يشرق وجه طفل فى أبهائها ، ولا ترن ضحكاته فى حجراتها . . .

وشرد بصرى ، وهامت أفكارى ، وقلت أحدث نفسى : لا بد أن أتزوج « نجوى » !

* * *

حاولت غير مرة أن تصحبنى « نجوى » إلى ملهى أو سينما ، ليزداد كلانا معرفة بصاحبه ، ويتفهم أفكاره وميوله ؛ فكانت ترفض رفضاً قاطعاً ، وتأبى أن نتقابل إلا فى بيت أخى أو بيت أختى ؛ بل لقد حرصت على ألا تخلو بى لحظة فى أى من هذه الزيارات : .

ولم يكن بد من أن أطلب إلى شقيقتى « سميرة » وإلى « تغريد » ، زوج شقيقى « عبد الحميد » ، أن تجسا نبض الصديقة « نجوى » ، وتستطلعا رأيها ، وتعرفا جوابها لو تقدمتُ لخطبتها .

وكان ردهما أن « نجوى » تعزنى وتقدرنى ، لكنها تخشى ألاّ أتوب ، وألاّ أقلع عن مسلكى الشائن مع النساء والبنات ؛ وأنها تشترط لقبولها خطبتى أن أتوب ، وأمتنع عن الخمر ، وأن أصلى ، ويستقيم سيرى ، وأن تكون التوبة بالفعل لا بالقول . .

وامتنعت عن الخمر والميسر ، وقطعت صلتى بمن أعرف من النساء ، وعدت أصلى . .

* * *

وتمت خطبتنا . . لكن « نجوى » وأبويها رفضوا — فى شدة — أن نخرج وحدنا طوال فترة الخطبة ؛ فكان علينا ألا نزور متحفاً أو حديقة ، وألا ندخل ملهى أو سينما ، إلا إذا كان فى رفقتنا « حرس » من أهلينا .

ولم أكن أستطيع أن أخلو بالحديث إليها إلا فى شرفة البيت ، أو فى حجرة مفتحة الأبواب . فإذا خلونا معاً جلستْ جلسة الولد الصغير الممتلئْ قلبه روعة ورهبة ؛ وضمت يديها بين ركبتيها ، وضغطتهما ، لتخفى الرعدة التى تستولى عليها ؛ ولم يكن هذا ليعجبنى ، لكنه كان يستهوى لبى ؛ كما كانت تستولى على مشاعرى بمقدرتها الفائقة على خلق الموضوعات المختلفة للحديث ، فلا تدع لى فرصة للاستسلام لأفكارى السود التى كانت تضطرب فى رأسى اضطراب الخفافيش فى ظلمة الليل !

ومن أهمّ ما كانت تتحلى به « نجوى » أنها صريحة فى القول ، جريئة فى التعبير عما تعتقده وتؤمن به ؛ فهى — حينما تعرب عما تراه أو تلاحظه — لا تهاب [illegible] لا تخاف أحداً . ومن الناس من هم ذوو شخصية قوية تحمل الآخرين على أن يميلوا إليهم ، ويخضعوا لهم ، ويتأثروا بما يلقون عليهم من قول أو إشارة . وكانت شخصية « نجوى » من هذا النوع

التقينا يومًا فى منزل أختى ، لتصحبنا إلى إحدى دور السينما ؛ فلما نهضت « سميرة » لتستبدل ثيابها ، خلا لنا الجو ، وكنت أشد ما أكون اشتياقًا إلى أن أطوّق خصر « نجوى » وأقبّل ثغرها ؛ فملت نحوها ، وقلت : « نجوى » أتغضبين إذا لثمت شفتيك ؟ !

وقبل أن تجيب بلا أو نعم طوقت خصرها ، وقطفت قبلة من شفتيها . .

أخذت بهذه الحركة ؛ فدفعتنى عنها فى غضب وعنف ، وقالت : أنت خائن . . آمنك فتخون الأمانة ؟ ! دعنى أنصرف .

وسالت على خديها الدموع . .

ويعلم الله كم بذلت من جهد لأسترضيها ، حتى عدلت عن رغبتها فى الانصراف ؛ لكنها ظلت كئيبة . لا تضحك لما يضحك له المتفرجون فى السينما ، ولا تجيب — إذا سئلت — إلا إجابة وجيزة ، حتى اضطرت « سميرة » إلى أن تسألها فى صراحة : ماذا جرى ؟ ! كأنك لست معنا . . فاعتلت — كعادتها — بأن الصداع يكاد يصرفها عن كل شىء .

وزاد هذا من قدرها فى نفسى .

٢٧

صعدت إلى شقة « نجوى » لأجلس إليها ساعة ، فإذا أبواها قد غادروا البيت لعيادة خالتها المريضة؛ وليس فى الشقة إلا « نجوى » وشقيقاها اللذان يصغرانها ، وأكبرهما فى مرحلة الدراسة الثانوية ، والآخر فى المرحلة الإعدادية .

استقبلنى شقيقها الكبير ، ورحب بى ترحيبًا حارًا صادقًا ،

وأقبل فى إثره شقيقها الصغير فحيانى أطيب التحيات ، وقال : أبلة نجوى تصلى المغرب . . وسمعت « نجوى » تقرأ فى صلاتها ، فى خشوع ينفذ إلى القلب : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) .

ثم أقبلت « نجوى » ، وخلفها الخادم تحمل صينية عليها أكواب عصير البرتقال ، وانصرفت الخادم ، ثم انصرف الشقيقان ، ليستذكرا دروسهما ، وخلت الحجرة إلا منى ومنها .

قمت من مكانى ، وجلست بجوارها ، فارتاعت ونفرت ، وبدأت تتكلم فى سرعة ، تصل الجملة بالجملة ، وإن كانت أحيانًا تقطع الكلمة الواحدة إلى شطرين رهبة وخوفًا ! . . أما أنا فأخذت أبتسم وأضحك .

طوقت خصرها بساعدى . فقالت : لا ، لا . . دعنى دعنى . .

وحاولت أن تنهض ، لكنى لم أتركها تتحرك ، وهمست فى أذنها : ألا يزال الخجل يستولى عليك ؟ ! . . وضممتها إلى جانبى وأنا أقول : ستكونين لى يا « نجوى » . . سيكون لى كل هذا الجمال ، وهذا الأدب ، وهذا الظرف ، وهذه الرقة . . سيكون لى قلبك النبيل ، وجسمك الجميل ، وروحك الصافية .

فقالت وهى تحاول أن تتخلص منى : « عبد الرحمن » ، دعنى . . وإلا رفعت صوتى ، ودعوت أخوى . .

ـ أدعك ؟ ! . . لن أدعك بعد اليوم . . لقد أذاب الشوق قلبى ، وأحرق كبدى . . أتعرفين كم أحبك يا « نجوى » ؟ ! . . أحبك . . أحبك . . أحبك . .

وكنت وأنا أنطق بهذه الكلمات أغمر شعرها وجبينها ووجنتيها بقبلاتى . . وبدت هى حينئذ كالمستسلمة الراضية . . لكنها عندما

أحست بشفتى تلمسان شفتيها خيل إليها أن ما مس شفتيها كأس مفعمة سماً ؛ فدفعتني عنها دفعة شديدة خلصتها من ذراعى ، وقامت نافرة ، والتفتت إلىّ ، وقد وقفت وقفة الذى يستعد للدفاع وصدّ الهجوم .

استولى علىّ الدهش . وأخذنى العجب ، فقلت — وأنا أرى أمامى فتاة هائجة متنمرة غير « نجوى » الوديعة الرقيقة — : ما هذا يا « نجوى » ؟ ألسنا مخطوبين ؟ !

وتقدمت نحوها ، فمدت يديها تشير إلىّ أن أبقى فى مكانى ، وقالت بصوت غريب : لا تدن منى :

وقفتُ ، وقلت مستعطفاً : « نجوى » ، ماذا فعلت ؟ أتمنعيننى حبك ؟

فاهتزت فى وقفتها وقالت : لا تحاول أن تلمسنى . .

نظرتُ إليها نظرةً غاشية ، كمن كان فى ظلمة حالكة . وخرج إلى نور باهر ، وقلت : ماذا جرى يا حبيبتى ؟

— لا تحاولْ . أنا لا أطيق أن تلمسنى . .

— « نجوى » . . حبيبتى . . حياتى . . لقد تعبت وأنا أبحث عنك . . أنت من كنت أريدها . . ما أسوأ حظى ! وما أعظم شقائى ! . . أحين أعثر عليك تنأين عنى ؟ ! . . يالتعاستى !

كنت شديد التأثر والانفعال من أثر ما يخالجنى من عاطفة جامحة ، وإحساس مجروح ، وخوف من فقدانها . ومشيت أريد الوصول إليها ، فصاحت بى : لا تدن منى . . لا تدنُ :

وكان صوتُها متهدجاً متقطعاً ، وأنفاسها سريعة ، ثم انطلق فمها على صوت بين الانتحاب والضحك ، فتراجعت عنها ، وأسقطت يدىّ المبسوطتين ، وقد حرك منظرها فىّ شعوراً عميقاً حملنى على التراجع .

وغمرتني ساعتئذ رغائب جمة ملحة ، وجدت نفسي مأخوذاً بها ، وكان أشد تلك الرغبات ظهوراً رغبتي في امتلاك هذا الجمال الباهر الذي أراه متجلياً في ساعة الغضب والخوف .

لقد خيل إليّ من قبل أنها من أجمل الفتيات اللائي عرفتهن . أما الساعة فقد اتضح لي أيضاً أنها ذات تأثير أخاذ وجاذبية قوية تصل بها إلى الأحشاء ، وتتغلغل القلوب ؛ فعزّ على أن أروّع هذا الجمال ، أوأفزع صاحبته ؛ فهدأت ثورتي ، ونظرت إليها نظرة وادعة ، وقلت بصوت غير ثابت : حسناً يا « نجوى » . . لقد فهمت . .

وجلستُ . أما هي فظلت برهة واقفة صامتة ساكنة ، لا يبدو منها غير تلك الحركات السريعة المتتابعة التي تضطرب بها أهدابها وشفتاها . . فلم أر بدًّا من الانصراف ؛ فنهضت وخطوت خطوة نحو باب الحجرة . فإذا هي تدنو مني ، وتلقي رأسها على صدري ، وتطوق عنقي بذراعيها ، وتقول : وأنا . . أحبك يا « عبد الرحمن » . . لكني أخافك . . سأكون لك كلي بعد الزواج ، فلا تزعجني مرة أخرى . .

ربّت ظهرها ، وقلت في حنان : أنت حاضري ومستقبلي ، وكل حياتي يا « نجوى » . . .

ـ وأنت أيضاً يا « عبد الرحمن » . . إني أحبك . . ولم ينطق لساني بهذه الكلمة من قبل إلا لأخويّ . . أحبك ، وأحب أيضاً أن أحفظ لك كل أعضائي طاهرة نقية . . فلا تلمني إذا تأبيت عليك . . لا تجزع ولا تستعجل . . وإني لأحب أن تحفظ أنت نفسك لي طاهرة ، كما أحفظ لك نفسي . . حسبك ما أفنيت من صحتك ومالك في اللهو والعبث ، ولتبدأ حياتك من جديد في طهر ونقاء :

أدركت وجلا أني لم أعد صاحب سلطان على نفسي ، وأن عاطفة قوية ، لا أعرف بم أسميها ، تستولي عليّ في هذه اللحظات ، فلم أستطع

إلا أن أقول : إلى اللقاء يا « نجوى » . .

وعدوت أهبط السلم إلى الشارع ، ونفسي تزخر بأحاسيس شتى .

* * *

كيف يمكن أن أحيا بلا قبلات وبلا أحضان ؟! . . إن هذه الأشياء الصغيرة ذات أهمية بالغة لى ، كأنها الماء للسمك ! ومن ثم عدت أبحث عن الأحضان والقبلات بعيداً عن فضيلة الشيخة « نجوى » .

وكانت لى جارة لعوب ، ممشوقة القد ، وجهها جميل جذاب ، ورقبتها فضية منسجمة ؛ وهى لا تنفك تشاغلنى ، فتحدق إلىّ تحديقاً ، وتداعبنى بنكاتها وطرائفها ، وتمس طرتها بأناملها تارة ، وترفع حاشية ثوبها تارة . . وكانت تدعو نفسها إلى العشاء معى ليلة ، أو حضور رواية سينمائية ليلة ، فكنت أجيبها إلى طلبها مرّة ، وأتهرب منها مرات : . فلما تأبت علىّ « نجوى » ، وتمسكت بقواعد الدين ومثله القويمة ، قلت لنفسى : لماذا لا ألهو حيناً مع « سناء » ، وهى مليحة لطيفة ، فى عينيها بريق مستحب ، وفى وجنتيها احمرار لا يغيب ؟!

كانت « سناء » تشمخ بأنفها ، وتنتصب فى جلستها ومشيتها انتصاباً يجعلها تظهر أطول من حقيقتها ؛ وكانت تبدو دائماً فى أكمل زينة ، وعلى أحسن هيئة فى ملابسها . وليس ذلك راجعاً إلى أن ملابسها متفقة مع « المودة » ، أو لأنها كثيرة التكاليف ، غالية الثمن ؛ كلا . إنما كان ذلك راجعاً إلى أنها تلائم جسمها الجميلَ التقاطيع كلّ الملاءمة من حيث اللونُ والتفصيل . وكان من أبرز ظواهر « سناء » ، وأكبر ميزاتها عيناها اللامعتان بأهدابهما الطويلة التى يخيل إلى الرائى أنّ لهما ظلاً منتشراً . وكان شعرُها أسودَ شديدَ السواد ، لكنك إذا نظرتَ إلى حاجبيها رأيتهما أشدّ سواداً .

ووجدت عند « سناء » ما اشتهيت من قبلات وأحضان ؛ لكنى —

والحق يقال — لم أخدعها ، بل قلت لها فى صراحة جافية : إنى خاطب ، وخطيبتى جميلة حلوة — كما تعرفين — وليس فى نيتى أن أفسخ خطبتى ؛ فقالت : لا يهمنى . . ولو كنت زوجاً وأباً . . أنا أحبك ، وأجد سعادة فى قربك . . ولست أخفى عليك أنى كنت أتمنى أن أربط حياتى بحياتك . . وكم تخيلت نفسى ونحن زوجان ! . . كم تخيلتك وأنت فى عملك ، وأنا فى بيتنا أنظر إلى ساعتى ، فأجد موعد عودتك قد أزف ، فأهب لأعد لك بنفسى طعامك حتى لا تضيق بالانتظار : . ثم أجدنى أمعن فى التخيل ، فأعمل جهدى فى الحفاظ — ساعتئذ — على سكون البيت وهدوئه حينما تقبل كيلا تزعج أو تقلق . .

ووقفت « سناء » إلى عواطفها وحواسها وأفكارها ؛ وبلغ من اهتمامها بى أنها كانت تعد تأخرها عن موعد لقائى دقيقتين أو ثلاث دقائق خيانة وجناية . وقد أدركت ذلك كل الإدراك ، فكان له أطيب الوقع فى قلبى :

وخلوتُ إلى نفسى وما فيها من ثورة وأفكار ، وذكريات وأمانىّ وتعلات ، وفكرت ، وفكرت . . ولم أجد حرجاً ولا إثماً فى أن أكون خاطب « نجوى » ، وصديق « سناء » .

وذات ليلة عدت إلى البيت بعد منتصف الليل ، فرأيت شقيقتى الحبيبة « سميرة » ساهرة تنتظرنى ، ووجهها تعلوه الجهامة ؛ ولم تستقبلنى — كما تعودت — بالحنان والترحيب ، وإنما فجأتنى بسؤالها : أين كنت ؟

— كنت فى السينما . . ماذا حدث ؟

— ومَن كان معك ؟

— أحد زملائى . .

ــ أحد زملائك أم إحدى عشيقاتك ؟! . . أنت عربيد يا «عبد الرحمن» ، ولن ينصلح أمرك . . لكم أندم على أن سعيت لتتم خطبتك على «نجوى» ! . . لقد رأتك «نجوى» مع صديقتك يا شاطر . . رأتك وذراعك تحت ذراع «سناء» تلك الفتاة اللعوب ذات الشعر المقصوص ، والوجنتين المصقولتين ، والفم المصبوغ ، والأظفار الملونة البراقة . . إن كانت هذه الأشكال تعجبك ، وإن كنت لا تستطيع أن تتوب عنها ، فلماذا وقفتنا هذا الموقف المخجل أمام صديقتى ؟ ! . . لقد خدعتنى أنا أيضًا يا «عبد الرحمن» ؛ بل خدعتنا جميعًا ، وجعلتنا نصدق أنك تائب نائب . . لكن . . وا أسفاه يا أخى ! . . أنت كذيل الكلب ، دائمًا أعوج لا ينعدل !

لأول مرة تخاطبنى «سميرة» الحبيبة بهذه الحدة ، وهذه اللهجة المرة ، ولأول مرة أقف أمامها خزيان كتلميذ صغير مذنب يقف أمام معلمه القاسى ، فلا يحير جواباً . .

وأخيراً قالت «سميرة» وهى تجهش بالبكاء: لقد حطمتَ هذه الفتاة الشريفة الطاهرة التى لا تستحقها . . مسكينة ! . . صدمت صدمة أليمة . . كانت تحبك إلى حدّ الجنون ، وكانت تحب أن تعيش معك ولك ؛ لكنها كشفت ــ فى الوقت المناسب ــ أن سلوكك كريه فظيع ، يفرى القلب ، ويشوى الكبد ، ويؤرق الجفن ، ويسلب الإنسان كل هناءة . . وقد صممت على فسخ خطبتك : . اذهب لتنام ، والصباح رباح .

* * *

وانقضى نهارى ، وأنا فى شرّ حال . .

وفى الأصيل أقبلَ والد «نجوى» يرد إلىّ خاتم الخطبة والسوار الثمين ، ويبدى تألمه لمسلكى الشائن : وقد حاولتُ أن أسترضيه ، وطلبت أن يأذن

لى فى لقاء « نجوى » ، لأعتذرَ إليها ، وأصحح لها فكرتها ؛ فقال : لا فائدة ترجى . . إنها رأتك مرتين قبل أمس . وقد تعارفنا أحبابا فلنفترق أحبابًا . . وإنى أنبهك إلى أمر خطير : لا تحاول أن تعترض سبيل بنتى بعد اليوم . .

ولزمتْ « نجوى » البيت ثلاثة أيام ؛ ورفضت أن تسمح لى برؤيتها ، أو أن تزور أختى فى حضورى . وفى اليوم الرابع لزمت أنا البيت ، فرأيتها تذهب إلى عملها ، فلحقت بها .

استقبلتنى أسوأ استقبال ، وصدت عنى صدًّا عنيفاً قائلة : لا أريد أن أراك . . إنك لا تفهم ، ولن تفهم ، معنى الشرف والفضيلة . وقدسية الزواج . . وكيف يمكن لطبع مثل طبعك أن يعرف العفة والطهارة ، ويصل إلى حقيقتهما . . اذهب ، ولا تدعنى أراك ، ولا تحاول أن ترانى بعد اليوم .

كان وجهها شديد الامتقاع ، ونفسها مهتاجة ، وقلبها طعينًا ؛ وحاولت أن ألطف ثورتها بكل ما أستطيع ، فلم أفلح ؛ وإنما كانت ثورتها تزداد وتعنف ، فلم أستطع إلا أن أقول : لن أنساك يا « نجوى » . . وانصرفتُ خائبًا حزينًا ، وقد كبر علىَّ أن أخفق فى حبى العظيم هذا ، وأن تلفظنى « نجوى » لفظ النواة ، وتفر منى فرار الغزال من الأسد !

ولم أجد ما أتعزَّى به فى حالى التى صرت إليها : . ولم يكن بد من أن أحتمل وحدى عاقبة سلوكى وتصرفى ، بدون أن أستطيع أن ألقى بشىء من المسئولية على غيرى ، فقد طالما نصحنى أهلى ، وكشفوا لى حقيقة الحياة ، فلم أعرهم إلا أذنًا صماء . : ومن هنا نجم شقائى ، وغرقت فى الإثم ، وتعرّضت للمخاطر .

كان يجب ألا أثق بكل عاطفة تجول بين جنبى ، وألا أستسلم لها

حتى تستحوذ على عقلي . كان يجب أن أجمع في يدي عنان العقل، وألا أدعه يفلت مني . . كان يجب أن أكبح جماح عواطفي بلجام الحكمة والتروي قبل أن أتردى بها في الهوة السحيقة التي تبتلع كل من يهوي إليها . . لقد خُدعت حين اتخذت عاطفتي مصباحاً يضيء لي سبيل الحياة ، وحجراً أبني عليه أساس مستقبلي .

وكانت الأيام التالية عذاباً لا يُطاق ، ولست أدري كيف عبرت . .

وضاعف عذابي ، ونكأ جرحي أن « نجوى » تركت الإسكندرية ، وانتقلت إلى القاهرة .

وكان ماحدث أمراً غريباً غير مألوف ، حتى إني لم أستطع أن أصدقه في سهولة ، أو أعتقد أنه حدث حقاً . .

كيف أخفقت في حب « نجوى » هذا الإخفاق الشنيع ؟ !

فكرت ، وفكرت ، وفكرت : . ثم قررت أن أغادر مصر إلى أوربا ، وإلى فرنسا ، فلعلني أفيق من هول ما نالني من فواجع ، ولعل جسمي يبرأ من دائه ، ونفسي تطيب من علتها .

بعت بعض ما ورثت ، وصار معي مال كثير ، يكفي لأعيش به حيناً في أوربا عيش الوارثين المترفين ؛ وأعددت عدتي ، وحزمت حقائبي . .

٢٨

الباخرة تنفخ في الصور إيذاناً بالرحيل ، وأنا متكئ على حاجزها ، أتطلع إلى جمهور المودعين يلوّحون بمناديلهم ، ويشيرون بأيديهم : . ثم أرفع رأسي ، وأقلب بصري في معالم الإسكندرية ، وحولي المسافرون يصخبون ويتصايحون بلغات العالم ، ورأسي يكاد ينفجر مما يغلي فيه من خيالات وأوهام ، وآمال وآلام : .

الباخرة تتحرك فى هدوء ، وتترك مكانها فى خفة ، وتشق ماء الثغر المصرى الأكبر فى خيلاء ، حتّى جاوزت حدود المياه الإقليمية ، فجدّت فى مجراها ، مخلفة فى مؤخرها ذيلا من الماء الأبيض يحسبه الناظر نهيراً من اللبن ، يعلوه الزبد ، يأبى أن يختلط بمياه البحر الملحة ، وزرقته الصافية .

كانت تلك أول مرة أركب فيها البحر . فشعرت بلذة عميقة حين رأيت الباخرة تشق الماء ، والإسكندرية — على عظمتها ، بل الأرض كلها — تبتعد عن عينى رويداً رويداً ، حتّى غاب الشاطئ ، وطواه الأفق .

وكان الوقت ظهراً ، والبحر هادئًا ، والريح رخاء ، والمسافرون يزحمون الباخرة الكبيرة ؛ فنحن فى فصل الصيف ، وكثير من الحكام والسادة الأثرياء يقصدون أوربا ، بدعوى الاستشفاء ، أو حضور المؤتمرات .

ولم يكد الليلُ يتقدم حتّى عصفت الريح ، واصطخبت الأمواج ، وأخذت الباخرة تعلو بنا وتهبط ، فشعرتُ بشىء من الخوف ، لكنى رأيت الركاب هادئين مطمئنين يسمرون ، ويتبادلون الفكاهات والنوادر ، فثابت نفسى إلى الطمأنينة .

استيقظت فى صباح اليوم التالى قويًّا نشيطًا ، وتناولت فطورى ؛ ولم يطب لى أن أظلّ معتكفًا عن سائر الركاب ، فاختلطت بهم ، وجرت بيننا الأحاديث شتّى ، فلم نلبث أن تعارفنا ، وصرنا كأننا أسرة واحدة . . وكان أكثر المسافرين قد ركبوا البحر غير مرة ، فما يكاد يبدو لنا منظر قريب ، أو منظر بعيد ، حتّى أراهم يتحدثون ويصفون . .

وألفت تلك الحياة ، لا .. بل كاد الملل يدب إلى نفسى ، فقد مرت

بنا أربعة أيام متشابهة الصور والألوان ، ليس بين أيدينا إلا الماء ، وليس فوقنا إلا السماء . . وقد نلمح سفينة على اليمين أو على اليسار ، أو نمر فى بعض الطريق بجزيرة ، فلا نقترب ولا نقف . . حتى إذا دنونا من سواحل جزر إيطاليا امتلأت السماء بالضباب والسحاب ، وهبت الريح عاتية ، ورقصت بنا الباخرة رقصاً خفيفاً . . ثم ما لبث البحر أن ثار ، وأعلن ثورته علينا فى موج كالجبال ، يلطم الباخرة الكبيرة ، ويهزها هزاً ، فغمر الخوف قلوبَ بعض الركاب ، وعلا صياحُهم ، وغلب القيء بعضهم ، فتهاووْا فى أماكنهم ، أو أمالوا رءوسهم فوق حواجز السفينة ، ولفظوا فى البحر ما فى بطونهم .

ما أعتاك أيها الخلق العظيم ! . . ترجرج ما شئت أن ترجرج ، فالجيوش الجرارة ، والأساطيل المخارة ، آلافاً مؤلفة ، ليست سوى قطرات فى صعيد مائك !

تطاولت يد الإنسان على الأرض تعميراً وتخريباً ، ولكنها إلى شاطئك المنحدر تقف ! إلى هنا وأنت صاحب السلطان . . ملك مطلق فى سهولك اللجية الواسعة ، وجبالك البلورية العالية ، تقيم منها ما تشاء ، وتهدم منها ما تشاء . . تحمل ما تشاء وتغرق ما تشاء . . . إذا بطشت بطشت جباراً . . بلطمة واحدة تخر السفائن الجارية وما عليها ، ويهوى الغرقى إلى قاعك ، لا تحفر لهم قبور ، ولا تعد لهم أكفان ، ولا يعلم لهم مستقر !

ليس فيك مجال للإنسان ، لأن قدمه لا تثبت فى ساحتك . . أما قوته الجبارة فهو يسلطها على الأرض . وأنت تزدريه ، وتزدرى قوته ، فتقذف به إن شئت إلى الهواء ، ثم تهبط به طى أمواجك ، فلا يعرف له خبر !

وقفت فى صباح اليوم الخامس على ظهر الباخرة أرنو إلى هذا الخلق

العظيم ، وحركات أمواجه الدائمة ، والهواء يلفح زرقتها ، فتتطاير من ثورتها زبَداً أبيض . . وتهت فى أودية المنى والخيالات والأوهام ، وأنا أسائل نفسى : ترى ما باريس التى قالوا إنها عاصمة الدنيا ، بل عاصمة الدنيا والآخرة ؟ ففيها الجنة بحورِها ونعيمها المقيم ، وفيها جهنم بزبانيتها ، وعذابها الأليم !

ما باريس ؟! .. عجبًا ، عجبًا . . من ذا الذى لم يسمع بها ؟ ومن ذا الذى لم ينهل من مدنيتها وعلومها وآدابها ؟! . . إنها لنهر عذب فياض ، لا يجف ولا يغيض .

لقد رأيت باريس من قبل ! . . نعم ؛ رأيتها حكاية وأسطورة ، ورأيتها صناعة وفنـًا . . رأيتها فى صور عماراتها الكبيرة ، ومبانيها الفخيمة ، وأبراجها الشاهقة ، وشوارعها الفسيحة ، وميادينها الرحيبة ، وآثارها النادرة ، ومدنيتها الزاهرة ، وغيدها الحسان !

نعم ؛ رأيت باريس من قبل كتاباً وصورة . . وإن صورتها فى ذهنى لشبيهة بما قرأت فى « ألف ليلة وليلة » من روائع الخيال ، وبدائع الأساطير . . وكم تمنيت لو أفتدى، آمالى كلها بأمل واحد ، هو أن أرى باريس ، وأعيش فيها حيناً ، ثم أموت !

كيف أرى الآن هذه العاصمة التى عشقتها على الورق وفى الخيال ؟! . . كيف أعيش فى بيئتها ، وأخطو على أرضها ، وأمرح فى ملاهيها ؟! . . وأى مستقبل مجهول ينتظرنى هناك ؟ !

وما برحت خواطرى تتحرك مع المستقبل المجهول ، وأنا أتطلع حيناً إلى صفاء السماء ، وأحدق حيناً إلى البحر ، وأرسل النظر إلى الآفاق . . الزرقة تحيط بنا وتلفنا ، وأنا أرى بعين الخيال ما تصوره أحلامى وأوهامى . : أراه مجسمًا واقعاً . : أرى الحسان الفاتنات ، والليالى الصاخبات ، وأرى قبر « نابليون » ، وقصر « ڤرساى » : . وأرى « اللوڤر » ، وبرج « إيفل » . .

وأرى الكاتدرائيات الشهيرة ، والتماثيل البديعة . .

وعلى النفير المفاجئ لصفارة الباخرة صحوت من خيالاتى . .

ها هوذا شاطئ فرنسا يبدو لنا ، وها نحن أولاء ندخل مياه مرسيليا ، أكبر موانى البحر المتوسط . . وها هى ذى البهجة تعلو الوجوه ، والبشر يعم الجميع . .

٢٩

ضم الشاطئ الفرنسى الباخرة إلى صدره ، فوقفت أتأمل ما حولى . .

صيحات هنا وهناك . . أشكال غريبة . . لغات مختلفة . . لهجات متباينة . . « رصيف » طويل يزدحم بالبواخر السياحية والتجارية من جميع أرجاء المعمورة ، يصعب على النظر حصرها .

وسمح لنا بالنزول . فتركت نفسى لمرشد فرنسى شاب ، قادنى إلى فندق « إنجلترا » فى « بولفار جامبتا » ؛ وهو فندق يكاد يكون صورة من فندق « الكونتيننتال » فى القاهرة ، من حيث شكله وحجمه وطبقة نزلائه .

استرحت حتى غابت الشمس ، ثم تزينت ، ونزلت . .

وكنت أظن أنى سأغزو غزوات ناجحة ، وأجد الحب حيثما سرت . . ولم لا ؟ ألست الآن فى فرنسا ، بلاد الحب والجمال ؟ ! . . لكنى أصبت بخيبة أمل لم تكن لتخطر على البال ؛ لأن مرسيليا مدينة عمل ، وأكثر أهلها ينفقون حياتهم كادين فى سبيل جمع المال ، وتوفير وسائل العيش الهنىء . .

إنها مدينة كبيرة ، يؤمها التجار من جميع أنحاء العالم . . وجوها شبيه — إلى حد ما — بجو بورسعيد . . وسكانها خليط من مختلف الشعوب ،

ولا سيما شعوب البحر المتوسط ، من إسبانيين وإيطاليين ، ومالطيين ويونانيين ، وسوريين ولبنانيين ، وتونسيين وجزائريين ، وليبيين ومغاربة . كما يستوطنها بعض الإنجليز والهنود . . فمن كان مثلى ، همه الرياضة واللهو ، والبحث عن الحب ، فقد لا يظفر فى مرسيليا بما يصبو إليه ، بل قد لا يجد من بين أهلها صديقاً يلطف شعوره بالغربة والوحشة !

وكنت — منذ ركبت الباخرة من الإسكندرية — قد اعتزمت ألا أدخل باريس قبل أن أزور بعض المدن الفرنسية الكبيرة ، وأهيئ نفسى لزيارة العاصمة العظيمة ، فلست أحب أن أدخل باريس وأنا أجهل عادات الفرنسيين ، ونظم حياتهم ، فأكون كالصعيدى « الخام » الذى يزور القاهرة زورته الأولى ، فيقع فريسة المحتالين ، ويصير موضع سخرية الساخرين ، ومن ثم قررت أن أبقى فى مرسيليا أياماً .

وماذا ورائى يعجلنى ؟ ! فلأتفرج — إذاً — فى أنحاء مرسيليا ، ولأزر معالمها ، وأختلط بأهلها المختلفى الجنسيات والألوان والسمات : وإن فاتنى الحب فيها ، فقد أستفيد فائدةً من الفوائد التى ذكرها الشاعر العربى فى قوله : « سافر ففى الأسفار خمس فوائد . . » !

لكن . . كيف يفوتنى أن أتذوق الحب فى ليلتى الأولى على أرض فرنسا ؟ ! لا بد أن أتذوق الحب هذه الليلة ، مهما تكن التضحيات !

سألت عن أعظم شوارع مرسيليا ، فقيل لى إنه « بولفار كانبيار » ، فأخذت طريقى إليه ، فإذا هو يشبه شارعى « سليمان باشا » و « فؤاد الأول » بالقاهرة ، فى كثرة المقاهى والملاهى ، ومحال التجارة ، ومكاتب الشركات ، إلا أنه يفوق شوارع القاهرة فى اتساعه ، وفى أن به متنزهاً يقسم عرض الشارع قسمين ، ويقوم فى هذا المتنزه « أكشاك » لبيع الجرائد والمجلات ، والكتب الحديثة والقديمة . .

ومن العجيب أن أهل مرسيليا الذين يشغلهم العمل ، ويستغرقهم

السعى وراء المال ، يقبلون على شراء الكتب بشغف ملحوظ ، لا يقل عن إقبال أهل القاهرة على ارتياد المقاهى والسينما ، ولعب « الطاولة » ، و« الدومينو » ، و« الكوتشينة » !

جعلت أتسكع أمام دور السينما ، وأتظاهر بالنظر فى صور اللوحات الحائطية ، وأنا لا أنفك أقلب طرفى فيما حولى ، والحسان يطفرن أمام عينى ، يعبق بهن العطر ، ويضوع منهن الطيب ، وثيابهن ذوات الألوان المختلفة تضغط أجسادهن الرشيقة ، تضغط الصدر الناهد ، والخصر المياس ، حتى تذوب نشوة بما تضم ، فترق وتشف ، وتود لو تنشق الأكمام الطرية عن الورود الجنية !

وتلاقت أعيننا . . وبهت !

لم يكن يفصل بينى وبينها سوى أمتار خمسة ، أو دون ذلك ، فأخذت أحدق إليها ، وجعلت هى تتأملنى وتبتسم ، ثم تحول وجهها عنى ، لتعود فتنظر إلى ، وتبتسم ، فعل الأنثى قلبها مفتوح للحب !

ورأيت فى عينيها ما يجذبنى إليها ، ويدعونى إلى مغازلتها . . كان ينبعث منهما شعاع يبهرنى ، ويهز كيانى ، ويحرك مشاعرى . . لقد دخلت قلبى فى سرعة خاطفة !

وجرؤت ، فدنوت منها حتى واجهتها ، فانحنيت قليلا ، وكأننا فى مرقص ، وقدمت إليها نفسى : شابا غريبا وحيدا ، وصل إلى هذا البلد فى الصباح . . ورجوتها أن تقبل دعوتى إياها إلى العشاء ، إذا كان هذا لا يزعجها !

نظرت إلى هذه الحسناء الفارهة ، البادية الأناقة ، وجعلت تتأملنى فى شبه غضب ، وقالت : ما أجرأك أيها الشاب ! . . من أى بلد أنت ياسيدى ؟ !

— من بلد « الأهرام » و« أبى الهول » ياسيدتى . .

— من مصر ؟ : . ولماذا جئت إلى فرنسا ؟
— جئت للزيارة والرياضة . .
— وما عملك ؟ . . وكيف ؟ . . وأين ؟ . . ومتى ؟ . .
— سأجيبك عن كل سؤال ، بالإيجاز أو بالتفصيل ، كما تشائين ، لو سمحت أن نجلس فى مكان ما بعض ساعة .
— حسناً . . إنك لتعجبنى . . أقصد تعجبنى جرأتك ولباقتك ، ويطيب لى — وأنت ضيف غريب — أن أدعوك أنا إلى السينما . . عما قليل يصل أصدقائى ، وأعتقد أنهم يرحبون مثلى بأن تقضى سهرتك معنا . :
— شكراً ، شكراً ، سيدتى . . أفضل أن تمنحينى شرف صحبتك وحدك ، إن شئت !
— لماذا ؟ ! . . إنك لجرىء جداً ، أيها الفتى المصرى !
— ياسيدتى الجميلة ، إنى حديث عهد بالحياة هنا . . وأخشى أن يصدر عنى ما يثير سخرية الآخرين . . وأنا لا أطيق أن يسخر منى أحد . .
— لا تخش شيئاً . . ستكون بيننا كواحد منا ياسيدى .
والحق أنه لم يكن بى خوف ولا خشية ، لكن قلبى — مع هذا — لم يكن بين جنبى ، وعقلى لم يكن فى رأسى ، فكل ما يشغل حسى أن « أصطاد » هذه الحسناء ، فى ليلتى تلك ، فاستطردت : ستقودين خطاى إلى حيث تحبين ، وسأكون طوع يمينك فى كل ماتشائين ، فحسبى أن أكون معك . . لقد وصلت إلى مرسيليا فى صباح اليوم ، وقد أغادرها غداً ، أو بعد غد : : وكل أملى أن نكون صديقين . . لن تندمى على الوقت الذى ترافقيننى فيه ! . . أحب أن تجلسى إلىّ ساعة ، تلقنيننى فيها درساً عن الحياة الفرنسية : .

ــ إنى أنتظر أصدقائى ... فدعنى حتى أعتذر إليهم ، ثم أنظر فى طلبك !

ــ فضل كبير منك ، وشرف عظيم لى أن تنزلى عند رغبتى . . وأرجو ألا تثقل عليك مرافقتى ، وأن تتحملى ما قد . .

ــ هاهى ذى « جانيت » و « شارل » قد أقبلا . .

خطوت خطوات وقلبى يدق فى سرعة وعنف ، وعيناى لا تتحولان عن هذه الحسناء التى ما لبثت أن أقبلت علىّ وهى تبتسم وتقول : هيا ! لقد اعتذرت إلى أصدقائى ، لأرافقك ساعة . .

ذهبت بى إلى ملهى « ريتز » ، أفخم ملاهى مرسيليا . فتعشينا ، وشربنا ، ورقصنا . .

وانقشعت سحب الكلفة ، واختفى طلاء الحشمة ، وبدونا على طبيعتنا ، وكأننا صديقان عزيزان ، يعرف كل منا رفيقه منذ زمان . . وعلمت « جوزفين » ما شاءت أن تعلم عنى وعن بلادى . . وعرفت أنا أنها فى الخامسة والعشرين ، وموظفة فى إحدى شركات النقل البحرى ، وأنها قد تزوجت وهى فى التاسعة عشرة ، ثم ترملت منذ عام ونصف عام :

لما نظرت إليها امتلأ بها قلبى ، ولما سمعت صوتها فتنت بها نفسى ، ولما جالستها صرفت إليها عن كل شىء ، وعددت لقائى بها أولى النعم التى تحبونى بها فرنسا الكريمة !

ومن الإنصاف أن أقول إنه ليس ثمة وجه للمقارنة بين الحسناء « جوزفين » ، ومن عرفت من قبل ، فالناظر إلى وجهها الفتى التكوين ، الفاتن الحيوية ، يؤمن أنها لم تتم العقد الثانى بعد ، ويحس أن فى شخصيتها الجذابة ناحية غامضة مجهولة ، ليس من السهل تعليلها ، أو التغلل فيها . .

وزادت بى الجرأة فقلت لها : أين يمكن ، يا عزيزتى ، أن يجد الغريب فى مرسيليا مكاناً يقضى فيه ساعة أنس ولهو هادئة ، بعيداً عن أوكار « بنات الليل العموميات » ؟ !

امتعضت قليلاً لتعبير « بنات الليل العموميات » ، ثم استغرقت فى ضحك عال متصل ، دهشتُ له وذهلت ، وقلت عذراً يا « جوزفين » إذا رأيتنى لا أحسن التعبير ، أو لا أبالى باللياقات ، أو لا أتقيد بآداب السلوك . . إنى غريب أجهل طريقتكم فى التعبير عما ترغبون . . و « الغريب أعمى ولو كان بصيراً » ، كما نقول فى مصر ! . . فعذراً . . عذراً جميلاً يا « جوزفين » . . لقد شعرت منذ التقت عيناى بعينيك أن قلبى قد تفتح لك ، وحسبت أنى مستطيع أن أتحرر معك من بعض قيود المجتمع ، فأكثرها — فى رأيى — زيف ونفاق !

أطرقت رأسها لحظة ، ثم رفعته ، ونظرت فى عينى ، وقالت : حسناً . . سأذهب بك إلى سيدة تستطيع أن تهيئ لك ما تشاء . . ثم تزر صديقة قديمة ، فلعلك تجد فى بيتها ما تشتهى . .

ما إن خطونا بضع خطوات فى الشارع الكبير ، حتى أشارت إلى « تاكسى » ، وذكرت له عنواناً ، وصعدت وهى تجذبنى من يدى . :

كنت فى نشوة وافرة من الرقص والشراب . . والأمل المنشود ، فضغطت خصرها بذراعى ، فإذا هى تلتصق بى ، وتلقى برأسها على صدرى ، وتقول : لم ألتق فى حياتى بمن له مثل جرأتك !

— ليس ما بى جرأة . . إنه الحب . . « جوزفين » . .

ولم أكمل ، وإنما أكملت عيناى ويداى ، فقد احتويتها بين ذراعى ، واحتضنتها برفق وحنان ، وأنا أقول : أحبك يا « جوزفين » !

— بهذه السرعة ؟ !

— ليس للحب وقت ، وليس للحب شرائع وقوانين . . فمنذ وقعت

عيناى عليك أحسست رعشة تسرى فى جسدى ، وتجرى فى دمى ، وتهز مفاصلى ، وتتغلل مخ عظامى . . لقد ظهرتِ لى من وراء المجهول ، وكأننا على موعد ، وكأن لقاءنا من صنعنا نحن ، وليس من صنع الأقدار . . وكلما ازددت معرفة بك ، ازددت لك حبًا ، وبك إعجابًا . . إنك رائعة يا « جوزفين » . . وإنك لتجعليننى — بجمالك ، وفتنتك ، وبشخصيتك ، ونضج تفكيرك — أعيش ليلتى الأولى بفرنسا فى حلم جميل فاق كل ما صور خيالى . . إننى أحببتك يا « جوزفين » .. وليس الحب شيئًا نستطيع أن نتّقيه بالفرار منه ، والبُعد عنه ، وصدّ تيّاره .. ليس الحب ريحًا نتّقيها بإغلاق النوافذ . . إنه فوق إدارة الإنسان ، سواء أكان حبًّا يحوطه الأمل ، أم حبًّا يائسًا لا أمل فيه . . إنه قضاء وقَدَر ، لا نملك سوى الاستسلام لمشيئته ، فهل مسّ قلبَك ما ملأ قلبى نحوك من حبٍّ وولَه ؟ !

لم تُجب ، بل تركت نظرات عينيها تجيب عنها ، وقد أخذ كل منّا يرنو إلى صاحبه .. وأودعْنا نظراتنا ظمأً الليالى التى انسلخَتْ من عُمرِنا قبل أن نلتقى !

٣٠

وقفت بنا السيارة أمام « ڤيلا » أنيقة فى حى هادئ ، يُشبِهُ حىّ « جاردن سيتى » فى القاهرة . . وتقدّمت « جوزفين » ، ودقّت الجرس :

وفتحت الباب فتاةٌ لطيفة ، كانت ابتسامتُها العريضةُ إذنًا بالدّخول : .

ثم أقبلَتْ ربّةُ البيت : شيْخةٌ لها مَهابةٌ ووقار ، فرحّبت بنا

ترحيباً حاراً ، واحتضنت « جوزفين » ، وجعلت تقبلها في وُد وحب . .

وتبسطت الشيخة معى ، ففارقنى ما كان قد عرانى من ذهول وحياء . .

كان مظهر ربة البيت ينبئ أنها من « مخلفات » الطبقة التى كانت ذات ألقاب فى سالف الزمان ، فهى — على شيخوختها — أنيقة الهندام ، مهيبة الطلعة . . سمات الجمال الضائع لا تزال تطبع وجهها وتكوين جسمها . والأمجاد السالفة لا تبرح تتجلى فى سكونها وحركتها ، وفى لغتها العالية ، ومعانيها الشريفة . .

وخلت « جوزفين » بربة البيت دقائق ، تتحدثان فى همس ، ثم عادت إلى تقول : وعدتك أن أتيح لك الليلة فرصة اللهو التى تريدها ، لكن « مدام دى فيت » تعتذر بأننا لم نخطرها من قبل ، والوقت متأخر الآن ، ويتعذر عليها أن تهيئ لك طلبتك . .

وقالت « المدام » : غداً تجد هنا ما تهوى . . لو أنكم أنبأتمونى لهيأت لك جلسة هانئة . .

ثم دعتنا إلى الانتقال من بهو « الفيلا » إلى الطبقة الثانية ، وفتحت حجرة ذهلت لما حوت من أثاث ورياش وتحف ، أخذت أنقل بصرى فيها ، فإذا هى شرك العيون ، وبهجة النفوس ، وكأنما قد هيئت لمنادمة الأمراء . . ولم أفق من ذهولى إلا على صوت « المدام » تقول : يسعدنى أن تقبلوا ضيافتى الليلة : : لقد سرتنى رؤيتك أيها المصرى الأسمر . . « جوزفين » أثنت عليك أطيب الثناء . . وإنى — إعراباً عن سرورى بزيارتك — أقدم لكما الشراب على نفقتى : : وغداً أعد لك مفاجآت طيبة . .

ثم ما لبثت الفتاة الضاحكة التي فتحت لنا الباب أن دخلت ، تحمل الشراب والمشهيات والفاكهة والأزهار . : وقضت ربة البيت لحظات تسامرنا بأشهى الأحاديث وأعذبها ، ثم تركتنا ، فأخذت « جوزفين » تقص على قصتها ، فإذا فراستي لم تجانب الصواب ، وإذا « مدام دى ڤيت » من تلك الأسر العريقة ذات الأمجاد السالفة . .

قالت « جوزفين » : إن « مدام دى ڤيت » كانت فى صباها جميلة ، بل من الحسان المشهورات ، وهى اليوم — كما ترى — قد اجتازت سن الحب ، وجار عليها الزمان ، وألجأها إلى أن تحسن استقبال الشبان والصبايا ، وتغض الطرف عن شهواتهم الجامحة ، وتسمح لهم أن يتخذوا بيتها هيكلا للحب ، لتتربح من وراء ذلك ما يعينها على هذه الحياة المترفة التي تحياها ، ولتتمتع برؤية العشاق يتحابون ، بعد أن عجزت عن الحب !

وجرى الحديث بيننا متنقلا كفراش الربيع وأنا مخمور بخمرين : بالكئوس المعتقة ، وبحديث «جوزفين» تهمس به إلى فى تهانف ضحكتها ، ورخامة صوتها . .

ولعبت الخمر برأسينا كلينا . . . .

ومنذ تلك الليلة أمسيت أسر أعظم السرور بهذا الصنف من النساء اللائى تشتعل النار فى داخلهن ، وتستيقظ أميالهن إلى حد الجنون ، لكنهن يتماسكن ، ويبدين الحياء ، إن طبعا وإن تكلفا . .

ثم قدمت إلى « مدام دى ڤيت » أجر الضيافة وثمن الخمر فأبت ، وزادت أن دعتنى إلى زيارتها — متى شئت — ما دمت فى مرسيليا . .

وركبنا إحدى سيارات الأجرة ، فحاولت « جوزفين » أن تذهب

بى إلى الفندق لكنى أصْررْتُ على أن أطْمئن أولاً على وصولها إلى بيتها . . وفى أثناء الطريق دسستُ فى حقيبة يدها خمسمائة فرنك* . . ومن الحق أن أعترف أن هذا المبلغ لم يكن إلا إعرابًا عن تقديرى وحبى :

وفى ظهر اليوم التالى حملْتُ هديَّة من الزهْر النادر إلى « مدام دى ڤيت » . . فاستقبلتْنى بالأحضان والقُبُلات ، وكأنى ابنُها العائدُ من سفر بعيد ، وجعلت تؤْنِسنى بحديثها المُمتِع ، وذكرياتِها الشائقة ، وأسرار حياتِها العاطفية . . وما أكثرها !

وحدَّثَتنى عن صديقتى « جوزفين » وأثْنَتْ عليها ، وامتدحت أخلاقَها وطباعَها ، وقالت : إن « جوزفين » ، لم تدخُلْ بيتى منذ تَرمَّلَتْ ، وكانت من قبلُ تأتى كلَّ أسبوع ، فتقضى ساعةً مع صديقها . . شكراً لك أن جِئْتنى بها . . بل شكراً لها هى أن جاءت بك . .

ثم أقبلتْ — ونحن جلوسٌ فى البَهْو — « ميريل » : : جسم من رُخام ، وفمٌ منأُرْجُوان، وشَعْرٌ من ذهب ، يتفَّق وهذا الوجه الصَّبيح الضَّحوك الذى لفَحتْه شمسُ الصيف ، وحمَّاماتُ البحر . .

وأُعْجِبْتُ بالحسناء « ميريل » ، فحدَّثتُ عنها « المدام » ، فقالت : لا عَجَبَ أن مال قلبُك إليها من أول نَظْرة : : إنها قريبتُك . . فهى إسبانية ، فيها بقايا من الدم العربى الذى يجرى فى عُروقك . . لكنى أنْصَحُك ألا تَشْغَل بها بالك . . هذه حبُّها ابنُ ساعة . . حب ليس له غَد ! . . إنها زوج وأمّ ، وهى تجرى

---

* كان الفرنك الفرنسى يساوى أيامئذ اثنين وثلاثين مليما . فالخمسمائة الفرنك كانت تساوى ستة عشر جنيهاً مصرياً .

وراء المال أكثر ممّا تبحثُ عن الحبّ . . فلا تشغلْ نفسك بها . . « جوزفين » هى سيدة الكل .. تعرف قدْرَ الحبّ ، ولا تهتمّ بالمال .. لم أعرف لها إلا صديقاً واحداً . . وقد ترهّبتْ منذُ ترملت . . أعتقد أن هذه البُنيّة قد أحبّتْك . . ولولا أن حبّك شغفَ قلبها ، وأيقظ أحلامها ، ما جاءت بك إلى هنا ، ولو أعطيتها الآلاف ! . . إنك بفتُوتك ورُجولتك ، وسُمرتك الجميلة هذه ، تستطيع أن تجد عشرات من الصّبايا تَطيبُ لهن مُرافقتُك . . لكن . . صدقنى أنك لن تجِد مِثْل العزيزة « جوزفين » . . لا تتركْها . . هل تراها الليلة ؟

ــ إنّا على موعِد فى تمام السابعة . .

ــ قل لها إننى أدعوكما إلى العَشاء ، وقضاء السهرة هنا . . سيكون عندى ثلاثُ فتَيات ممّن بلَغْن الغاية فى الجمال والظرف والرقة ، ومع كل منهن صديقُها . .

ــ هل تعتقدين أن « جوزفين » تقبَل ، دون أن تُحِس الحَرج ؟ !

ــ إنّنا ، أيها الشرق العزيز ، لا نرى فى هذا حرَجًا . . ثم إن بيتى ، ياعزيزى الشابّ ، لا يدخُلُه إلا الأصدقاء . . وبِساطُ الشراب عندى يُطْوى بما جرى عليه !

ــ حسنًا ، حسنًا . . سنأتى . . شكراً لك يا سيدتى الكريمة . . ألف شكر . .

ــ اسمع ، أيها المصرى العزيز ، قد تُسرفون فى الشّراب والمُباسطة ، وقد تُحدثُك نفسُك بمداعبة الفتيات . . فحذار . . حذار أن تُداعبهن فى حضرة « جوزفين » . . إنى أحب هذه الفتاة . . ولا أشُكُّ أنك أنت أيضًا تُعِزها ، فهى جَديرة بالحب

والتقدير . . ويعزّ عليّ وعليها أن تُهينها بمغازلة غيرها أمامها . .

ـ شكراً لك ، يا سيدتي العزيزة ، على نصيحتك وتحذيرك . . وأرجو أن تثقي أننا نفهم ما يليق ، وما لا يليق ، كما يفهمه غيرنا . . بل أكثر مما يفهمه الآخرون .

ـ ماذا ؟ . . أغضبت ؟ ! . . إنما أردتُ تنبيهك إلى فعل الخمر . .

ـ وأنا إنما أردتُ أن أشكرَ لك دعوتك الكريمة ، ونصيحتك الغالية . . فإلى اللقاء ، يا سيدتي العزيزة ، في المساء . .

٣١

ما أصدق « مدام دي ڤيت » ! . . لقد عرفت عندها صديقات كثيرات ، وقضيت مع كل منهن أوقاتاً سعيدة ، لكني ـ حقاً وصدقاً ـ لم أنعمْ مع إحداهن بما كنتُ أنعمُ به مع « جوزفين » المُحبّة الفاتنة . فقد كانت تفوق سائر الصديقات بفرْط جمالها ، وظَرْف حديثها ، وشدّة تدلّلها ، ورقّتها وحنانها ، وتتصرف معي كأني سيّدُها ومعبودُها ! . . وكنت أقدم لها الهدايا من ثياب وحُليّ وعطور ، وأحاول أن أعطيها بعض المال ، فكانت تقبل الهدايا مبتهجةً شاكرة ، وترْفُضُ في صدق قبول المال . . بل لقد أعادت إليّ خمسمائة الفرنك التي دسستُها في حقيبة يدها في ليلة لقائنا الأولى ، وقالت : لقد أهنْتني بفعْلتك هذه : . أتظن أني عرفتُك طمعاً في المال ؟ ! . . لوشئتُ ذلك لجمعتُ مئات الألوف . . لكني أحببتُك أيها العفْريتُ المصريّ !

حقًّا . إنها وحدها التي كنت أحس معها الحب الصادق ، والحَنان الدافق ، والبهجة الغامرة ، واللّذّة الوافرة . . إنها وحدها التي لطّفَتْ وحشْة غربتي ، وقضت على ما كنت أشعر به من ضيق نفسيّ ، ولولاها ما طابت لى الإقامةُ فى مرسيليا شهراً وبعض شهر.

كنت أقضى صدر النهار سائحاً ، أطوف بأرجاء المدينة الكبيرة منفرداً ، أو فى صحبة إحدى الصديقات . ومما لفت نظرى فى أثناء تجوالى أن شوارع مرسيليا الداخلية ضيقة غير مستقيمة ، شبيهة فى ضيقها بشوارع الإسكندرية ، فوق أنها على جانب كبير من القذارة. وقد شاهدت بعينى بعض السكان يرمون القمامة من النوافذ ، كما نرى فى الأحياء الشعبية . . ولولا العناية العظيمة التى تبذلها « البلدية » فى نظافة المدينة ، لكانت من أقذر المدن التى زرتها . .

وقد أثار انتباهى أن المرأة فى مرسيليا — كأخواتها فى أكثر بلدان أوربا ، بعد الحرب العالمية الثانية — تشارك الرجل فى أعماله ، بل إن المرأة المرسيلية تمتاز من الأوربيات الأخر بأنها تشارك الرجل فى أعماله الشاقة ، مما لم نعهده فى سواها ، وما يندر أن نجده فى غير نساء الدول الاشتراكية ، فهى تشارك الرجل فى نقل الأمتعة ، وحمل الأثقال ، وقيادة العربات ، والخدمة فى المصانع .

ومن أعجب ما رأيت فى مرسيليا ، وفى البلاد الكبيرة التى زرتها فيما بعد ، وطوّفت فيها : « البطون البلورية » . . إن هذه البطون مستشفى ، أو — بالأصح — معرض ، ترى فيه أحدث الطرق للعناية بالأجنة التى تولد غير تامة الخلقة قبل تمام مدة الحمل . .

هذه المواليد الناقصة تعرض فى صناديق بلورية ، تباح مشاهدتها فى صحبة الممرضات ، وتحت رقابة الأطباء . والصناديق مربعة يبلغ طول ضلع كل منها ذراعاً ونصف ذراع تقريبًا ، وفى كل منها وليد

لا يزيد طوله على قدر شبر ، يحيط به القطن من كل جانب ، وهو مغمض العينين ، يفتح فمه أحيانًا . .

فى هذه البطون البلورية آلات وأنابيب وأسلاك كهربية تنظم حرارتها ، وتجعلها مشابهة لحرارة بطن الأم . . وفى أوقات معلومة تخرج الممرضات هذه المواليد من مساكنها للتغذية والتنظيف ، ثم يرجعنها إلى صناديقها كما كانت ، لا تبكى ، ولا تضحك ، بل هى فى سكون يكاد يشبه الهمود . .

والأمهات يزرن أولادهن ، ويرينهم — كما نراهم نحن الغرباء — من وراء البلور . .

ومتى بلغ المولود تمام الشهر التاسع من تاريخ تكوينه ، يسلم إلى أمه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وسبحان الذى علم الإنسان ما لم يعلم !

* * *

كنت أطوف ما أطوف ، حتى إذا ما وجبت الشمس ، واختفت وراء الأفق ، التقيت بالحبيبة « جوزفين » . .

كان الليل من أوله ملكًا لهذه الحبيبة العاشقة . . فالحب فى النهار لم يكن يوائم مزاجها ، أما الليل فكان يثير الحب فى فؤادها . .

فإذا ما بدأ ظلام الليل ينحسر عن أضواء الفجر صحبتها إلى بيتها ، وأويت إلى الفندق ، وارتميت على السرير واهن القوى ، قد أنهكتنى الخمر والسهر والهوى والصراع !

نعم ، كنت آوى كل فجر إلى فراشى كحصان منهوك ، يستعيد أنفاسه لليوم المقبل !

وربما كان من الإنصاف أن أقول إنى أطلت إقامتى فى مرسيليا ، لأن صداقاتى فيها لم تكن تتقاضانى الكثير من النفقات . . هدية رمزية

إلى الصديقة ، وهدية أخرى إلى « مدام دى ڤيث » صاحبة الفضل فى تقديم هؤلاء الصديقات اللائى كن يحسبن أنفسهن الفائزات الرابحات ، فى حين كنت أحسبنى الرابح الوحيد فى هذه « الصفقات » ، فإنى — كأبى العلاء — لا أحب بالخلد انفراداً ، فكيف بالوحدة فى مرسيليا التى تغمر أهلها الحركة الآلية الدائمة ، وتخيم على منازلها مظاهر الهدوء والركود ، تزيدها وحشةً سمرةُ طلائها الخارجى ؟ !

ما ألطف أولئك الصديقات ! وما أكرمهن ! . . لقد علمننى دروساً نافعة فى الحب وفى الحياة : . ما ألطف أولئك الصديقات ! وما أكرمهن ! . . لقد كن لا يلقيننى إلا وفى حقيبة كل منهن هدية : « كراڤات » ، قداحة ، « فتوغرافيا » . . أى شىء . . أى شىء ، دليلاً على الود والحب .

ومرة قدمت إلىّ إحداهن علبة سجائر من الصنف الذى تعودت تدخينه . . فلما قرأت فى عينى العجب والتساؤل ، قالت : إنما هى دليل على أنى كنت أفكر فيك ، وأنا بعيدة عنك ! . . ما أرقها ! وما أظرفها !

* * *

كنت — إذا رأيتنى فى تجوالى قريباً من الميناء — أتسكع هناك ساعة أستطلع وجوه المسافرين والقادمين . وبعد قرابة شهر ، من نزولى بمرسيليا ، التقيت بثلاثة من الفنانين المصريين يغادرون الميناء حائرين ، يقلبون أبصارهم فيما حولهم ، كما فعلت أنا حين وطئت قدماى أرض فرنسا . . وكنت أعرف فناناً منهم ، جمعتنى به غير مرة جلسات خاصة فى القاهرة ، فاتجهت إليهم أحييهم ، وأرحب بهم . . ثم صحبتهم إلى فندق « إنجلترا » الذى أنزل به ، ودعوتهم إلى الغداء معى . .

وعلى مائدة الغداء اتفقنا على أن نسافر معاً إلى باريس فى ضحى الغد. فلما التقيت — فى المساء — بالصديقة الحبيبة «جوزفين»، وحدثتها عن الفنانين المصريين، وعما اعتزمته من السفر فى الغد إلى باريس، خيم عليها الوجوم، وكست وجهها الكآبة، وتندت عيناها بالدموع . .

فى هذه الليلة تنقلنا بين الملاهى والمراقص، وقلب كل منا مشغول، والصمت يغلب علينا، حتى إذا خلونا معاً فى «ڤيلا مدام دى ڤيت» انفجرت «جوزفين» دفعة واحدة تشهق وتنتحب، وتعول وتنوح، وتدفن رأسها فى صدرى، وتقبلنى فى حرارة ونهم، وأنا أربت رأسها وظهرها، وأهوّن عليها هذا الفراق، وأسرف فى وعدها بأنى عائد إليها بعد شهر أو بعض شهر . .

— كفكفى، ياحبيبتى، هذه الدموع الغالية . . أتحبيننى إلى حد البكاء لفراقى يا «جوزفين» ؟ ! . . ما أسعدنى بك ياحبيبتى ! . . لا تبكى . . لا تكدرى صَفْوَ هذه الساعة . .

— إن إحساساً كئيباً ينذر بالشؤم يخيم على قلبى بالرغم منى . . ياللهول، لو كانت هذه آخر ليلة أراك فيها، ياحبيبى !

— سرعان ما تبدد عودتى إليك جميع مخاوفك . . أنا ما جئت إلى فرنسا إلا لأزور باريس . . ولولا أنى عرفتك ما بقيت فى مرسيليا يوماً واحداً . . فدعينى أزر باريس، وأحقق أملى برؤية معالمها .. ليتك تستطعين أن ترافقينى يا «جوزفين»، فتتم سعادتى . .

هدأت بعض الهدوء، وتطلعت إلىّ بعينيها الجميلتين الدامعتين، وسألتنى — فى توسل — أن أؤجل سفرى إلى باريس أسبوعين ؛ لتصحبنى فى السفر حتى ليون حيث تقضى أياماً، تنجز فيها بعض الأعمال الخاصة بشركة النقل التى تعمل بها .

عددت رغبتها هذه فرصة طيبة، تتيح لى أن أزور ليون، قبل

أن أدخل باريس ؛ فأجبتها إلى طلبها ، وقررت أن أبقى فى مرسيليا أسبوعين آخرين ؛ فأشرق وجهها ، وزايلته الكآبة ، وغمرته البهجة ، واحتضنتني فى وله ومرح ، وأمطرتني وابلا من القبلات . .

وفى ضحى الغد ودّعت الفنانين المصريين معتذراً ، داعياً لهم بالتوفيق .

٣٢

سار بنا القطار فى حذاء نهر الرون يتلوّى فى مشيته كالثعبان ، لكن فى سرعة فائقة : : وكنا نرى من وراء سجوف النوافذ وجه البرية الباسم ، وجمال الطبيعة الباهر ، ونهر الرون السريع الجريان بين الأشجار الباسقة ، والسهول الشاسعة ، والتلال الصغيرة . : . . .

ونزلنا فى فندق « اللوفر » ، أفخم فنادق ليون : .

فى الصباح كنت أرافق الحبيبة « جوزفين » إلى مقر الشركة التى تعمل بمركزها الرئيسى فى مرسيليا ، ومن ثم أتنقل وحدى فى أرجاء المدينة الكبيرة ، حتى يحين منصرف الموظفين ، فأسرع إلى لقائها ، وكلانا على شوق متجدد إلى رفيقه ، فنتخذ هيئة العاشقين السائحين : نستريح حيث تطيب لنا الراحة ، ونأكل حين نحس الجوع ، ونلهو ونرقص أينما حلا لنا اللهو والرقص ؛ فإذا ما مضى من الليل ثلثاه أوينا إلى الفندق ، وضمنا سرير واحد ، وكأننا عروسان يقضيان « شهر العسل » !

وليون تمتاز بجمال موقعها ، واستقامة شوارعها ، وفخامة مبانيها ، وعناية « بلديّتها » بنظافتها وتنسيقها . وهى مدينة صناعية ، شيدت

على صعيد وربوة ، تحيط بها المصانع من كل جانب ، على مسافة تتجاوز عشرة أميال ، عدا مصانع الحرير ونسج الأقمشة ، فإنها تقوم فى داخل المدينة نفسها . . وربما كان هذا سبب اختناق جوها .

وقريباً من المدينة يلتقى نهرا الرون والسون ، ويختطان الأرض فى أشكال بديعة ؛ ثم يدخلان ليون ويخترقانها فى هيئة ساحرة ، من صنع الطبيعة المبدعة . .

وقد قسمت الطبيعة مدينة ليون إلى أقسام متنوعة ؛ منها قسم شرقى نهر الرون مكتظ بالحدائق والمتنزهات والأندية ، وقسم غربى نهر السون أكثره مرتفعات ، تقوم على أحدها كنيسة « البازليك » المشيدة على الطراز القوطى الضخم ، والتى يصعد إلى منارتها بمصعد كهربى ، وبجوارها برج عال من الحديد يستخدم « إيريال » ومرشداً للطيارات . ومن مرتفعات هذا القسم تتجلى ليون بجملتها فى منظر خلاب ، وتبدو أجزاؤها المترامية فى شكل ساحر جذاب . .

ونهرا الرون والسون يشقان ليون متوازيين ، وفى حجم يكاد يكون متساوياً ؛ بيد أن الرون سريع الجريان تشوب ماءه العكر مادة طفلية ، تشبه الطمى الذى كان يلون مياه النيل أيام الفيضان ، فى حين أن السون هادئ فى سيره ، مخضر فى لونه . .

يالله ! ما أجمل الجسور الكثيرة المقامة على النهرين ! إنها آية من آيات الفن والجمال . .

وأهل ليون على جانب عظيم من النشاط ، والتربية القويمة ، والأخلاق الفاضلة ، يمثلون النفس الفرنسية الأصيلة . .

وشهرة جامعات ليون تغنى عن تكلف القول فيها . . أما متنزهاتها وميادينها الواسعة، فملأى بالتماثيل الجميلة لمشاهير رجال التاريخ الفرنسى عبر العصور ؛ وأما متحف الفنون الجميلة بها فيضم مجموعة نفيسة

من الصور الزيتية ، القديمة والحديثة ، وتماثيل الملوك السابقين ، وبعض مخلفاتهم الثمينة ؛ وأما الحرير الذى أكسب مدينة ليون شهرة فاقت بها مُدُنَ العالم جمعاء ، فى نسجه وتصديره ؛ فقد زرت يومًا أحد مصانعه ، ورأيت الحرير يخرج من الأنوال الكهربية مهفهفًا ، فى ألوان زاهية ، فتتلقفه أيدى الفتيات العاملات فى نعومة لا تقل عن نعومة ما بين أيديهن منه !

ويومًا آخر زرت أنا و « جوزفين » معرض الحرير المنسوج ، وشاهدنا بعض النسيج القديم ، الموشى بخيوط الذهب ، واستعرضنا أشكال الأنوال القديمة ، وتبينا كيف تطورت من نول يدوى صغير إلى هذه الأنوال الكبيرة التى تديرها الكهربا :

وقد برهنت « جوزفين » على أنها ليست حبيبة فاتنة ، وحسناء حبتها السماء منحة السيطرة على الأكباد وحسب ، وإنما هى أيضاً أستاذة فذة لبقة ، عالية الثقافة ، ساحرة الحديث ، فلا أكاد أسألها عما حولنا حتى تفيض فى شرح يأخذ بالألباب . .

ما أحلى تلك الأيام التى قضيتها فى ليون ! . . لقد كانت تدور فى أجمل فلك من الغبطة والهناءة ، ولم يكن ليعكر صفوى إلا أن أرى « جوزفين » شاردة اللب ، غير هنيئة المثوى ، لا تنفك تشكو زمنها المطواع وتتبرم بعيشها الرغيد ، وتَصَّاعَدُ أنفاسها شهبًا تنفث الزفير الدمى .

إنى لأعلم ما يقلقها ، ويشغل بالها ، ويثير أشجانها ، لكنى أتجاهل الحديث فيه كيلا أنكأ جراحها :

ويومًا فاضت بها الشجون ، فانهالت عبراتها حارة غزيرة ، حتى عكَّرَت صفاء عينيها . . ثم ارتمت على صدرى ، وقالت : « عبد الرحمن » ، لقد أحببتك من أعماق قلبى ، أيها المصرى الأسمر ، وبودى لو قضيت

حياتى كلها « عبدة » لك ! . إنى لن أحس طعم الحياة بعد اليوم إلا فى جوارك ، أيها الحبيب العزيز . : وكلما فكرت فى أنك ستبعد عنى ، وتنسانى ، انقبض صدرى ، وملأ الهم قلبى . . خذنى معك إلى حيث تذهب . . عد بى إلى بلدك : قلبى يحدثنى أنك لن تعود إلى : : هذا ما أحسه ، وهذا ما يجعل رحيلك أمراً بغيضاً كريهاً ، مؤلماً أعمق الألم . .

ولم تواصل حديثها ، فقد علت حشرجة تنهداتها ، وهى تحاول عبثاً أن تخمد دموعها : .

جعلتُ ألطف جواها ، وأخفف شجاها ، وأمنيها الأمانى العذاب : وأعدها بأنى عائد إليها وإلى حبها الذى يملأ قلبى ، بعد أن أزور باريس وأشاهد معالمها . :

والحق أنى أحببت « جوزفين » حباً جماً . : ولولا ما كان يشغل قلبى من التفكير فى باريس ، وحسانها ، وملاهيها ، لهويت إلى الأذقان فى حبها ، ولرأيتها جديرة بى وبحبى ، خليقة بأن أمضى معها العمر كله . .

إن قلبى لتتنازعه رغبتان قويتان ، كلتاهما تجذبنى إليها جذباً عنيفاً : رغبة فى زيارة باريس ومشاهدة معالمها الشهيرة ، ورغبة أخرى تشدنى إلى الحبيبة « جوزفين » التى تكمن فى قلبها كل خصائص الأنثى كمون الرحيق فى الزهرة ! . . « جوزفين » التى ملكتنى بدلها ودلالها ، وظرفها وجمالها ، وسكبت فى نفسى ما شاءت من الهوى ، وكانت لا تنى تمدُّ لى نظرات ناعسة طويلة ، ترسل فيها خواطر الحب : ورعشات الحس . : « جوزفين » التى تجمع فى ذاتها كنوز النفس كلها ، وجمالات الجسد جميعها ؛ فاشتهيتها ، وأحببتها ، ووجدت عندها متع القلب والجسد ، والعقل والروح ، إلى حد أنى لم أفكر لحظة

فى خيانتها ، ونحن فى ليون ، على يسر الحب هناك ، واتساع دروبه !

وغلبتنى الرغبة فى زيارة باريس، وقلتُ لنفسى : إن عزصبرى على فراق « جوزفين » فما أسرع الرجوع إليها !

وكان ختام إقامتنا فى ليون ساعة تناجينا فيها ، وتعاهدنا ، فى متنزه « رأس الذهب » الذى يعد من أجمل متنزهات العالم وأبدعها تنسيقاً : . إنه متنزه عظيم حقًّا ، يضم ضروباً مختلفة من النبات ، وأنواعًا شتى من الحيوان ، وتتوسطه بركة واسعة ، تستمد مياهها من نهر الرون ، وتسبح فيها زوارق الأحباب والعشاق : . وزقزقة العصافير على الأفنان تثير العواطف ، وتدفع العشاق بعضهم إلى أحضان بعض . . والنسيم يخدِّر الأعصاب ، فإذا ما تنشقه المرءُ مع عطر النبات شعر بعامل خفىّ قوىّ يدفع به إلى العشق والغرام . .

حولنا عشاق يتبادلون القبلات على كل مقعد . : حتى اجتاحتنى عدوى المكان ، فضممت « جوزفين » إلى صدرى ضمة قوية ، أحسست بعدها براحة نفسية عميقة . . أما هى فكانت فى شرّحال . . فهى تارة فى هدوء النسيم ورقته ، وتارة كالموج الصاخب ، والريح العاتية ، قد اربدّ وجهها ، ورنّ صوتها بمسحة من الأسى والألم وشحت عينيها غمامة من الحزن والكآبة ، وتاهت نظراتها حائرة حيرة الرسام حينما ينقلب ضوء النهار الساطع إلى ظلال يحار فى التعبير عنها !

لقد عاد الواقع الجاف ينتصب عارياً بليداً فى سبيل ما كانت ترجو من سعادة : . هذا الواقع المر الذى كنا نتناساه أحيانًا ، وكنا نزهى أحياناً أخرى بقدرة الحب على قهره ، واغتصاب اللذات من بين شدقيه !

كان كل ما حولنا يبعث فى النفوس البهجة والمرح ، وكان لشدو الطيور وخرير الماء موسيقى حنون ، تجرف أمامها كل هم وحزن ، إلا همّ « جوزفين » وحزنها !

٣٣

ودعت « جوزفين » وهي تصعد في القطار العائد إلى مرسيليا ، وكلانا تملأ عينيه الدموع . .

وبعد ساعة ركبت القطار الذاهب إلى باريس . . وقبعت في زاوية من « الديوان » الخالي ، بجانب النافذة ، وغبت في أحلامي وخيالاتي ؛ وقد ازدحم رأسي بما يدور فيه من صور مختلفة ، وخواطر متباينة . . : باريس . . برج « إيفل » . . قصر « ڤرساي » . . متحف « اللوڤر » . . الليالي الحمر . . الحسان الفاتنات !

« جوزفين » بحبها وفتنتها ، بظرفها وروعتها ، برقتها ووداعتها . .

« أليس » التي لا يبرح طيفها يداعبُ خيالي طوال هذه الأعوام الأربعة ، والتي لا ينفك فراقها حسرة من حسراتي على الأيام . .

ثم دخلت « الديوان» سيدة في منتصف عقدها الثالث ، طويلة القامة ، حلوة القسمات ، دقيقة التكوين ، سوداء الشعر ، كحلاء العينين ، بيضاء البشرة ، أنيقة الهندام ، تبدو عليها مظاهر النعمة والثراء العريض . . :

جلست في زاوية الديوان المقابلة بدون أن تتجه بنظراتها نحوي ، أو تعيرني التفاتاً ؛ وجعلت تتطلع من النافذة حتى تحرك القطار ، فأسبلت أجفانها ، ودفعت رأسها إلى الخلف ، وغابت في خواطرها . .

أخذت نظراتي تتفحص السيدة ، ونفسي ناقمة عليها ، لأنها حالت دون أن أطير بأجنحة الخيال ، أهيم تهياماً ، وأتصور العاصمة العظيمة التي ملكت عليّ لبي ، وصارت زيارتها أقصى أماني ، وأحلى أحلامي ؛ فماذا أفعل ، والمسافة بين ليون وباريس يقطعها القطار

السريع فى حوالى سبع ساعات ، جريًا بين المروج المنبسطة ، والمزارع المنمقة ، والأشجار المنتشرة فى كل مكان ، بنظام وبغير نظام ؟! . : كيف أقضى هذه الساعات الطويلة ؟ !

إن يكن قد فاتنى الخيال فلعلى أحظى بواقع حىّ مثير . ولا شىء كالأسفار يثير فى النفس روح المغامرة ، ويحرك غريزة الفضول ، وحب الاستطلاع ، ويدفع إلى السعى وراء الجديد المجهول . .

غادرت « الديوان » ، وقطعت ممر العربة مرتين أو ثلاثًا ، ذهابًا وإيابًا ، ثم عدت إلى مقعدى ، وقد عزمت أن أعرف — بأية وسيلة — هذه الحسناء ، وأن أتحدث إليها .

جعلت أنظر إليها ، وأنا آمل أن تلتفت إلىّ ، وتقرأ فى عينىّ ما يخالج قلبى من رغائب ، فتعطينى فرصة لأجترئ وأكلمها . . وفطنت هى إلى نظراتى النافذة ، فرمقتنى بنظرة طويلة ، وكأنها لم ترنى من قبل ، ولا أحست وجودى ، فقلت : أتسمح سيدتى أن أدخن هنا ؟ أم أرانى مضطرًا إلى ترك « الديوان » ، كلما اشتهيت التدخين ؟!

حدقت إلىّ ، وافترت شفتاها عن بسمة غامضة ، وقالت : كما تشاء يا سيدى : : تمتع بحريتك كاملة . وفتحت حقيبة يدها ، وأخرجت علبة ذهبية أنيقة ، فأسرعت أشعل لها سيجارتها ، فأطالت النظر إلىّ ، وقالت : شكرًا ، شكرًا . . يبدو أن السيد غريب . : من أى بلد أنت ، يا سيدى ؟!

— من مصر . .

— من مصر ؟! . : ما أجمل مصر ! . : لقد زرتها فى الشتاء الماضى ، وقضيت بها فترة أعدها من الأيام الحلوة التى لا تنسى ! . . لمَ جئت إلى فرنسا ؟ . . أجئت للدرس ؟!

– لا يا سيدتى . . . ما جئت للدرس . . : بل جئت للحب !
– جئت للحب ؟ ! : . عجباً ! : . كيف جئت للحب ؟ !
ورنت ضحكتها كتغريد البلابل !

أنشأت أسرد عليها حكاية التقائى – منذ أربع سنوات – بالباريسية الحسناء « أليس » ، فى ظلال الهرم ، وسفرى وراءها إلى الأقصر . . وجعلت أوشى الحديث ببعض الملح والطرائف ، وهى تستمع وتبتسم فى وقار وجلال ، وتعلق – بين لحظة وأخرى – تعليقات لطيفة ، مغلفة بالمجاملة الرقيقة ، والتهذيب الرفيع . .

وعرفت أنها باريسية المولد والمنشأ ، وزوج وأم لطفلين ، وأن بعلها صاحب مصنع للحرير فى ليون ، ورب ثروة طائلة ؛ وأنها مسافرة إلى باريس لعيادة أبيها المريض : :

واتصل الحديث بيننا . . فحدثتنى عن السفر بالقطر والبواخر والطيارات ، وعن مصايف فرنسا الشهيرة التى يفد إليها الناس من مشارق الأرض ومغاربها ، وأفاضت فى تبيان محاسن كل مصطاف ، وما يمتاز به من غيره . . وحدثتنى عن أسفارها الكثيرة إلى سويسرا وإيطاليا وإسبانيا ، وعن رحلتها – منذ أشهر – إلى مصر ، وعما أثار إعجابها من مناظر جميلة ، وآثار خالدة ، وما جذب نظرها فى حياتنا من تقاليد وعادات ؛ وقالت إن سفرتى هذه قد صححت كثيراً من معلوماتى الخاطئة عن مصر والمصريين . . وليس راءٍ كمن سمع !

وقد طربت أيما طرب لما ساقت من ثناء على بلدى وأهله .

ثم حانت ساعة الغداء ، فتقدمتنى إلى « عربة الأكل » ، ونظراتها تدعونى إلى أن أشاركها المائدة . .

وأنس كلانا بصاحبه ، وكشف بعض صفاته ومزاياه . .

وإذ عدنا إلى « الديوان » – وقد احمرت منا الوجوه ، وامتلأت

البطون طعاماً وخمراً — عدنا نستطرد فى الحديث الذى لم ينقطع منذ ابتدأ . .

وأخذت هى تضحك فى نشوة ومرح ، وقد لمعت عيناها ، ورقت نظراتها ، وخفت حركاتها ؛ فأثارت فى حناياى انفعالات تدفعنى إلى أن أضمها . . ولقد جاهدت نفسى جهاداً لأصرف هذا الدافع ، غير أن ضحكتها الرقيقة ، وجلستها المسترخية ، وحديثها الناعم ، ونظراتها المغرية — كل أولئك كان يثيرنى إثارة ، ويدفعنى دفعاً ، حتى غطت بصيرتى غشاوة ، فانتقلت إلى جوارها واحتضنتها . . وهى — من ذهول المفاجأة — لا تكاد تعى !

وإذ تنبهت دفعتنى عنها فى عنف وشراسة ، ولطمتنى بظهر كفها ، ومدت يدها إلى الجرس ، تريد أن تدعو الحارس ، فأمسكت يدها ، وقبلتها ، وحدقت إلى عينيها كأنى منوم مغناطيسى ، ومضيت أصب فى أذنيها عبارات العذر الجميل ، والغزل الرقيق ، أطرى جمالها ، وأصف وقعه فى نفسى ، وأثره فى دمى الإفريقى الفائر ؛ وأبدى إعجابى بشخصيتها وذكائها ، فى كلمات ناعمة ترضى غرور كل أنثى ، وتحرك عاطفتها ، وتجعلها أيسر تذليلا ، وأكثر استجابة ، وأسرع انقياداً . . فهدأت ، وأشرقت أساريرها بعد انقباض ، وعاودها المرح والخفة ؛ فإنى — على شدة اندفاعى — أعرف للأنثى الجميلة قدرها ، وأقيم لها وزناً عظيماً ، وأشعر فى أعماقى بما تفكر فيه ، فأسوق إليها الكلام عنه فى حماسة أخاذة . .

والرجل إن أثار غرور المرأة بجمالها وكمالها ، وجعلها تحس أنها ضرورة قصوى لا بد منها لاكتمال الحياة ، فقد قطع نصف الطريق إلى قلبها !

كنت أعرف هذا جيداً . . عرفته بالتجربة مرة ومرات . .

ثم إنى أعرف — إلى جانب هذا — متى أثبت ؟ ومتى أشدد الهجوم ؟ ومتى أنسحب ؟ . . وتلك مهارة لا يتقنها الكثيرون :

وشيئًا فشيئًا سيطرت عليها ، حتى اتجه قلبها إلىّ بصورة ملموسة ، وأخذت تحوطنى بحنانها ، وتمتعنى بحديثها فى رقة صوت ، ودقة حركة ، وفرط ظرف ، وجمال منظر ، وفى حال ما أشك أنها حال جذل وطرب ، وآية بشر وابتهاج . :

وقد أحسست نحو « مادلين » إحساساً لا أدرى بم أسميه : . إنه ميل غريب يجذبنى إليها ، ويسلبنى كل إرادة للمقاومة دون أن أستبين حقيقته ، مع أنه يجوس فى صدرى ، ويملأ قلبى ؛ وشعرت أنى أحببتها ، وأنها أحبتنى . : والحب شبكة ، من استطاع الفرار من بعض فتحاتها الواسعة ، يقع فى شرك بعضها الآخر الدقيق !

ومضى الحديث يلج بنا كل باب ، وينقلنا إلى غير واد ، حتى سألتنى : أين تعتزم أن تنزل فى باريس ؟ . . فانتهزت فرصة هذا السؤال ، وأسرعت أعمل على تحقيق ما آمل ، فأظهرت أنى أشد ما أكون احتياجًا إلى من يهدينى سواء السبيل ، ورجوتها أن تتفضل فترشدنى إلى الفنادق التى تلائم حال شاب مثلى يبغى أن يقضى بضعة أسابيع فى لهو ومرح ، ومتعة واستجمام : .

فكرت برهة ، ثم قالت : ألن تذهب إلى صديقتك البارسية ، التى سافرت وراءها إلى الأقصر وجئت — كما تقول — إلى فرنسا لتراها ؟ !

— بلى ؛ سأذهب إليها : . لكن بعد أن أستمتع أيامًا بمفاتن باريس ، فإنى أخشى أن تقيد صديقتى حريتى : .

— لا أظنها تقيد حريتك ؛ لأنها لا ترضى أن تقيد أنت حريتها . .

على أية حال أعتقد أن « كلاريدج » فى « الشانزليزيه » ، و« نورمنديا » فى ميدان « الكونكورد » ، و « رويال بيكاردى » فى « بولڤار السلام » — فنادق تجد فيها راحتك المنشودة . . أما المرح واللهو والمتعة فسبلها كثيرة ميسرة !

— شكراً شكراً ، يا عزيزتى « مادلين » . . : لكن . . ألا يمكن أن أراك فى باريس ؟!

— من يدرى ؟! قد نلتقى : . وإنى لأرجو أن ألقاك ، وأطمئنّ على حياتك فى باريس ، وأكفر عن الصفعة التى نالتك . . إن وجدت أبى فى خير فقد أكون فى « سركل السفراء » فى التاسعة من مساء الغد .

— « سركل السفراء » ؟! ما هو ؟ وأين يكون ؟ وكيف أذهب إليه ؟

— « سركل السفراء » هو مرتاد العظماء وأهل الثراء وعلية القوم ؛ وسوف أدلك على الطريق إليه .

انحنيت أقبل يديها قبلات حارة ، وضممتها بيمينى ، وانسابت شمالى تربت جسمها وهى مبتهجة نشوى ، مهتاجة ولهى . .

* * *

وقف القطار مرة ومرة ، وشغل المسافرون مقاعد « الديوان » ، واتخذنا سمة الجد ، وهيئة الوقار ، ومضى بنا الحديث فى ثرثرة هامسة لذيذة ، يموج بها الوداد ، وقد شب فى قلبى حريق ، وعبث بعقلى هذا الغرام الجديد . والقطار يطوى الأرض فى سرعة خاطفة ، لكنها — مع ذلك — لم تكن أسبق من سرعة أشواقى فى حرارتها وانطلاقها : .

ثم أمالت « مادلين » رأسها على كتفى ، وأغمضت عينيها ، وغفت ، وساد بيننا الصمت . . وعادت الصور المتزاحمة تستغرق مشاعرى ، وكأن القطار يحمل منى جسداً قد انخلع قلبه ، وهامت

روحه ، لولا طائف من النشوة والسرور رد إلى هذا القلب المنخلع ، وهذه الروح الهائمة ، حينما رفعت « مادلين » رأسها عن كتفى ، وأطلت لحظة من النافذة ، ثم هتفت : نحن الآن على أبواب باريس !

— حقًّا ؟ ! كم يسعدنى هذا ! . . بل كم يحزننى ! . . إنى لسعيدٌ ، إذ تتاح لى زيارة باريس ، والحياة فيها أياماً ، لكنى حزين . . حزين لأن وصولى إلى باريس ، وتحقيق أملى العزيز برؤية مفاتنها ، قد يحرمنى أملا عزيزاً آخر ، هو رؤيتك أنت ، ومتعة الجلوس معك ، والحديث إليك . . أنت يا « مادلين » عندى مثل باريس . . ساحرة فاتنة . . يهفو قلبى إلى مفاتنك ، كما تهفو نفسى إلى مفاتن باريس !

— سأراك ؛ لأطمئن على أحوالك . . أنت فى حاجة إلى من يعنى بك . .

ثم هدأ القطار من سيره ، ودخلنا محطة باريس . .

ووقفت منى « مادلين » موقف الأم الرءوم من ابنها القاصر ؛ فقد أشرفت على تدبير شئونى ، وقادتنى إلى فندق « كلاريدج » فى شارع « الشانزليزيه » ، وقضت معى ساعة ، واطمأنت إلى أنى سأكون — فى هذا الفندق الفخم — هانئاً سعيداً . . ثم ودعتنى بقبلة شهية ، ونظرة أمل ودعاء !

٣٤

تبارك الله ! . . ما أجمل باريس ! ما أبهاها ! ما أشهاها !

كان الأفق الغربى قد احتضن الشمس ، وأنا أغادر فندق « كلاريدج » ، وفى نيتى أن أتسكع ، غريباً وحيداً ، فى شوارع باريس . . أفواج من الناس وأفواج . . زمر تذهب وجماعات تعود . . والغيد

الحسان يختلن ، ويتثنين : . صدورهن المغرية تضج بالهوى ، وشفاههن الحمر ترف ، وتنادى القبل ، وأنفاسهن المعطرة تلتهب بحرارة الشباب ، وشعورهن المختلفات النسق واللون يزرى أسودها بحلكة الدجى ، ويضحك أصفرها من وهج الضحى !

هذه شقراء ساحرة ، حلوة اللفتات ، تضىء قسماتها بسمةٌ بريئة متخابثة ، وتنطق الرغبة — أكثر ما تنطق — فى عينيها المليحتين ، وصدرها الناهد البض : . وهذه شهوى مغرية كالكأس المترعة ! إنها لا تفتأ تنفض رأسها الجميل إلى الوراء كأنما ترد شعرها ، وهى تلقى عليك نظرة تقول : لك اتبعنى ! . : وهذه صبيًا متفتح ، يخفق على جسدها الأهيف ثوب من الحرير الأبيض ، كأنه وما يخفى تحته من المفاتن لون واحد ! . . وهذه شعرها نحاسىٌ يضم ضفائرَه شريط أزرق ، ونظراتها عذراء ، كلما أطلت على نظرة دافئة ترسلها عينا فتى ، غضت من طرفها ، وتدافع الدم إلى وجهها الجميل ! . : وهذه — ويا ويح القلب من هذه ! — قد تركت الشمس على جبينها ووجنتيها شفقاً جريحاً ، يذوب ناراً فى شفتيها : إنها تتمايل فى دل ، وتضفى على ما حولها ظلال الحب ، وألوانَ النعيم : .

وهذه سادسة ، وسابعة . . وعاشرة . . عشرات ومئات يحملهن على الانطلاق سحر المساء . . يسرن ولا يلتفتن إلى ما يتركن وراءهن فى النفوس . . فيهن الحييات الخفرات ، والمغريات المقبلات ، وكلهن يصرعن ذا اللب ، ويأسرن قلبه ، ويسلبنه رشده وحجاه !

بوركت يا باريس ! وبورك فى غيدك الحسان !

* * *

أخذت أتأمل ما حولى ، وأنا أذكر ما خلفت ورائى فى مصر من حياة تهدهدها السذاجة والقناعة الروحية . . أين تلك الحياة

الوادعة من هذه الحياة المادية الصارخة ، وهذه الآلية المزعجة التى تعكس أقصى ما وصل إليه العقل من وسائل المدنية والرفاهية ؟ ! . . ما هذه الأشياء العجيبة الجميلة ؟ ! ما هذه الحياة الرائعة المريعة ؟ !

وفارقنى العجب الذى كان يملأ نفسى من أولئك المساكين الذين يفتنهم جمال باريس ، ويفقدون عقولهم فى ملاهيها . . بل لقد رحمت أولئك المفتونين ، وعذرتهم ؛ فإن المرء لا يكاد يخطو فى باريس حتى يجد نفسه محوطًا بأحر الشهوات ، وأفتن جواذب النوازع ، وأكثر أسباب الخطيئة ، فلا يطيق امتناعًا ، ولا يحسن دفاعًا . . تجذبه المناظر الخلابة ، وتتنازعه الوجوه الخداعة ، وتأخذ ببصره الأنوار الوهاجة ، فيتسلل إليها ، ويتهاوى فيها ، ويحترق احتراق الفراش فى وهج النار !

فى باريس تركزت الحضارة العصرية بجميع معانيها ، وبكل مظاهرها ، فكانت المثل الكامل للمدنية الحديثة . .

إنها لأولى مدن الدنيا فى الآثار التاريخية ، والمتاحف الفنية ، والمعاهد العلمية ؛ وإنها لمركزُ المفكرين والسياسيين والأثرياء ، يفدون إليها من جميع أنحاء العالم ، ويقصدونها من مختلف أرجاء المعمور ، فما قاصد إلا وجد فيها ما يشاء ويهوى من ألوان الحياة ؛ فمن ينزل بها طالباً العلم أو العمل يجد فيها مناه ، ومن يسافر إليها ناشداً اللهو أو الرياضة ، يلق فيها ضالته المنشودة ، ويحقق آماله البعيدة !

نعم ؛ من أراد الجد فى باريس وجده جزيلا ، ومن رغب فى الهزل وجده وفيراً !

* * *

طفقت أقطع طريق « الشانزليزيه » الطويل ، وأنا زائغ البصر ، سليب الرشد ، لا تكاد عينى تقع فى شرك حتى يجذبها شرك ، فأشراك !

وانتهى بى المسير إلى ميدان « الكونكورد » : . الميدان الذى كان يجتمع فيه رجالات الثورة الفرنسية ، والذى اختلطت على أرضه دماء الأشراف الطغاة ، بدماء الثوار العتاة !

هذا الميدان هو مجلى عظمة باريس . . فى أحد أطرافه ينهض قصر « اللوفر » معجزة من معجزات فن العمارة والنقش : . القصر الذى كان فيما مضى مسكناً لأعظم ملوك فرنسا ، وكان النبلاء والأشراف يتمنون أن يقضوا بين جدرانه ساعة أو بعض ساعة . .

يا لفعل الأيام ! . . لقد صار هذا القصر متحفاً من أكبر متاحف الدنيا ، ومعرضاً عاماً يستطيع كل راغب أن يستمتع بالجولان فى أبهائه وحجراته ، ورؤية ما تضم من تحف نادرة ، وآثار ثمينة :

أمام القصر متنزة فسيح ، حوى كثيراً من النافورات والتماثيل المنسقة وسط الأزهار أبدع تنسيق . . وقريباً من هذا المتنزه تقوم المسلة المصرية التى نقلت من بلادى إلى قلب مدينة النور . .

نعم ؛ إن باريس لمدينة النور حقاً ! فقد غابت الشمس منذ حين ، ودقت الساعة تسعاً ، لكن الأنوار الساطعة المنبعثة من كل مكان ، قد قلبت الليل نهاراً . . وأنا لا أزال أتسكع وحيداً ، كمن يمشى وهو نائم ، لا يدرى شيئاً ، ولا يعى !

ماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟ كيف أستمتع بلياليّ الأولى فى باريس ؟ هل تكون باريس أقل كرماً من مرسيليا التى أهدت إلىّ الحبيبة « جوزفين » والصديقات الأخر ؟ !

ورأيتنى أمام دار من دور السينما ؛ فما كان أسرع ما احتجزت لى مقعداً ، وغصت فيه : . .

كان عن يمينى سيد كهل ، وعن شمالى غانية ، بل ثلاث غانيات فى شرخ الشباب ، يتحدثن همساً ، وعطرهن يخدر حواسى ، وضحكهن

يثير انفعالاتى !

ولما انتهت المقدمة ، وأضيئت القاعة ، أخذ الحاضرون يتطلعون فيمن حولهم ، دأبهم فى كل مجتمع ؛ وتلفت حولى ، ووقع بصرى على جارتى ، فإذا شفتاها الحمراوان شفتا طفل برىء سعيد ، وإذا عيناها الفاتنتان تسيلان رقة وعذوبة ، وترسلان إلىّ شعاعًا يسرى فى جسدى ، ويهزّ أوتار قلبى !

نهضّت الغانيات الثلاث ، فنهضتُ وراءهن ، وتبعتهن إلى « بوفيه » السينما ، وأنا لا أكاد أحول بصرى عن جارتى التى غزا جمالها قلبى غزوة خطفته خطفًا : . وفطنت هى إلى نظراتى الجائعة التى تلاحقها ، فأخذت ترمقنى من بعيدبالنظرة بعد النظرة : .

كتبت فى وريقة بضعة أسطر قلت فيها : إنى مصرى غريب وحيد ، وصلت إلى باريس منذ سويعات ويُسعدنى أن تكونى أنت ، أيتها الفاتنة ، أول من أعرف فى هذا البلد الجميل .

وإذ عدنا إلى مقاعدنا جعلت همى أن أراقب حركات جارتى وسكناتها ، وأتعمد أن تمس يدى ذراعها العارية ، حتى سنحت فرصة ، فدسست الوريقة بين أناملها ، وبدأت أشاهد بقايا « الفيلم » . .

انتهى العرض ومنتصف الليل ، وغمرت الأنوار المكان ، فإذا جارتى تنظر إلىّ نظرة فاحصة ، أعقبتها بسمة واسعة ؛ فشجعتنى هذه النظرة ، وهاته البسمة ، فتبعت الحسان الثلاث ، وهن يخطرن فى خفة ورشاقة ، حتى ملن إلى شارع جانبى ، ومشين متهاديات ؛ ثم وقفن أمام صرح ممرد فتحدثن هنيهة ، ثم دخلت إحداهن الصرح ، وتابعت الأخريان سيرهما . .

وسّعت خطوى فسبقتهما ، وإذا أنا فى مفترق أربع سبل : .

وقفت وقد زاغ بصرى حتى مرت بى الحسناوان ، ومست جارتى

يدى ، وكأنها تقول : تعال ؛ فتأثرت خطاهما ، وعيناى عليهما ، فإذا هما تتمهلان ، وتبطئان ؛ وإذا جارتى المشتهاة تبسط الوريقة التى دسستها فى يدها ، وتقرؤها على رفيقتها ، وتضحكان ، بل تقهقهان ، وهما تستديران وتنظران إلىّ ، وفى نظراتهما إغراء ودعاء . . فأسرعت نحوهما أحييهما ، وأقدم إليهما نفسى فى جرأة لا تبالى : .

ردتا تحيتى هاشتين باشتين ، وحدقتا إلىّ مليًّا ، ومدت جارتى يدها بالوريقة ، وهى تقيسنى بنظراتها الهادئة النافذة ، وسألتنى والبسمة لا تزال تملأ وجهها : أنت صاحب هذه الرسالة ؟!

ــ نعم ، أنا صاحبها . وعذراً جميلا إذا كنت قد جاوزت حد اللياقة والأدب ، فإنى غريب :

ــ وماذا نستطيع أن نفعل لأجلك ؟!

ــ قرأت كثيراً ، وسمعت كثيراً عن الحب فى باريس ، وعن ملاهيها ولياليها الحمراء ، ويسعدنى ــ إذا كان هذا لا يثقل عليكما ــ أن تقودا خطاى إلى أحد الملاهى الشهيرة ، لأقضى ليلتى الأولى فى مرح وهناءة . . إنه ليسرنى كل السرور أن تتفضلا مشكورتين فتقبلا دعوتى . . أريد أن ألهو وأمرح . . أريد أن أشرب وأرقص . : وأحب أن يكون هذا كله معكما . .

وبعد كثير سؤال وجواب ، قالت مشتهى النفس : لك ما تريد ، يا سيدى الغريب .

٣٥

ذهبت بى الحسناوان : « مارى تريز » و « روز » إلى ملهى « البرج الذهبى » : :

قاعات واسعة ، ومقاعد وثيرة ، وأثاث فخم ، وأنوار متنوعة ، وأجناس من الناس متباينة ، ولغات شتى من كل جهات الأرض ، وغانيات فاتنات فى دقة التكوين ، ودلال الحركات ، وجمال الصدور العاجية ، والسيقان المرمرية . . أشياء كثيرة عظيمة ، لكنى لم أجد بينها ما أفتش عنه ؛ فالابتسامات خداعة ، والعواطف مرائية ، وكل شيء حولى يدل على الكذب والصنعة فى الحركة واللفتة ، والكلمة والغمزة ! فهؤلاء الصبايا الغاديات الرائحات تماثيلُ متقنة الصنع ، لكن لا روح فيها ، وهذه الموسيقى لطيفة جميلة حقًّا. لكن ليس فيها عاطفة صادقة تلمس النفس ، وتحرك القلب ، وتأخذ بالروح ، وتلعب بحناياها !

وتضاعفت خيبة أملى حينما رأيت هذا التفاوت الكبير بين الراقصين ، فهذه عجوز شمطاء تراقص فتى يافعًا ، وتلك صبية فى ربيعها العشرين تراقص كهلا جاوز الخمسين . . الربيع والخريف معًا . فى وقت واحد ، وفى مكان واحد !

واشمأزت نفسى ، وقلت لرفيقتىّ : إنى لا أميل إلى هذا الجو . .

قالت « مارى تريز » : كيفَ ؟ ! . . هذا الملهى من أشهر ملاهى باريس ، وهو مقصد سراة الأجانب الذين يزورون العاصمة . .

وقالت « روز » ألستَ تريد أن تلهو وتمرح ؟ أوَما تحب أن ترقص وتشرب ؟ ! . . هنا . . هنا الحب العصرى ، حيث يبحث الشباب عن المال ، وتفتش الكهولة عن الشباب ! . .فهل بعد هذا لهو ؟ ! . .

ورأيت بعين خيالى هاتيك الغانيات الناضرات ، ذوات الأجساد الممشوقة ، يقلبهن المالُ — فى سرير واحد — مع هؤلاء الكهول ذوى الأجسام الهزيلة ، واللحوم المترهلة ، والشفاه المتدلية ، والوجوه المتجعدة . . وتخيلت أيضًا هؤلاء الفتيان الأقوياء يبيعون — كالغانيات — شبابهم وفتوتهم للعجائز المتصابيات . . وغثت نفسى . . ورجوت رفيقتىّ أن تتحولا

نى إلى ملهى آخر ، لا تكون سمته هذا التناقض الكريه ، الذى لا يمت إلى الحب بآصرة .

فصحبتانى إلى ملهى قد التأم فيه الشبان والصبايا . .

بسمات فاتنة على الشفاه . . دعوات صامتة فى الأعين : . أذرع تتشابك . . أناملُ ساحرة تلاعب أوتاراً رقيقة ، فتتأوّه وتتلوّى ، وتبعث الألحان الناعمة ، فتعلو أغانى الحب الحلوة ، وتشيع البهجة فى كل نفس ، وتحيى الأمل فى كل قلب . . فتيات وفتيان كلهم يغنون ، ويرقصون نشاوى ، ويعيشون مائة عام فى ساعة ! . . أجساد ، وأرواح ، وقلوب ، توهب جميعها لنفحة الحياة !

هذا ما أريد ، وهذا ما أفتش عنه !

وتملكنى فرح جنونى استجاشت عناصرَه الخمرُ والندامى ، والرقص والموسيقى ، والحب والغرام !

وطاف بنفس « ماري تريز » فرح شبيه ألهب حواسها ، وأيقظ قلبها ، فإذا هى بين يدىّ مستسلمة . . أطوق خصرها ، وأخترق بها الجموع ، تحف بنا متع الشباب ، وجنّاته العِذاب . . ونرقص رقصاً لطيفاً ، طليقاً ، غريب الجمال ، لأنه هزة الروح والبدن : .

كم اضطربت بسحر « ماري تريز » ! كم هفوت إلى القبل تزفّها الشفاه الندية الحمراء ! كم فتحت قلبى على تنهدات لذيذة ، بطيئة ، حارّة ، كأنها عبق الورد فى ليالى الصيف !

أجملْ بالحياة تحيا وتمجّد ، وهى تنفخ من روحها فى بنيها !

وقصّت علىّ « ماري تريز » قصتها . . إنها فى الثالثة والعشرين ، وحيدة فى حياتها ؛ فقد فقدت أبويها كليهما وأخاها ، فى أثناء إغارات النازية الوحشية على باريس ، فى أوائل سنوات الحرب العالمية الثانية ، وكانت هى أيّامئذ فى الثانية عشرة ، فكفلتها عمتها ، حتى نضجت ،

وصارت فتنة للناظرين . .

ثم ماتت عمتها ، وهي في بداية مرحلة الدراسة الجامعية ، فطوت الدفاتر ، وعملت في أحد الفنادق الكبيرة ، ترد على نداءات « التليفون » ، حتى حصلت على عملها الحالي في أحد بيوت المال . . وخطبها شاب من نزلاء الفندق الذي كانت تعمل فيه ، وعبث بعفافها ، ثم اختفى . .

وقالت : « ومنذ هجرني ذلك الوغد الغادر لا أقع إلا على رجال يعاشرونني حينًا ، ثم يختفون ؛ فحياتي ليلة مات ضحاها » !

كانت تتحدث في لفظ رقيق ، ونبرات صادقة . . وكان لأنغام صوتها رنين الموسيقى الحزينة المطمئنة . . فهو صوت الحزين قد تفطر قلبه ، وتصدعت كبده ؛ وصوت المطمئن قد استراح إلى يأسه ، فلم يترك للجزع سبيلا يذهب ببهائه ووقاره . .

ورق قلبي لهذه الضحية المسكينة ، وتيقظت فيه ذكريات تلتفع بالحسرة ، وتتشح بالألم . . وانثالت عليّ الأفكار ، وتجسمت أمام عيني الآثام الكثيرة التي اقترفتها ، وتراءت لي النفوس البريئة التي قضيت عليها بلهوي وعبثي ، فلم أستطع أن أمنع عن صدري هزة القلق والإشفاق ، ولم أملك أن أقاوم وخزة الألم التي اعترتني ، فغاليت في ملاطفة « ماري تريز » ، وإحاطتها بألوان الحب ، وضروب الحنان ، وأخذت أمنيها بغد أفضل ، وأبعث في نفسها شعور العزّة ، وأحيي في قلبها ميت الآمال ثقة بأن الإيمان بالمستقبل ليس هروبأ من الواقع المر وحسب ، وإنما هو أيضًا معين في التغلب على متاعب الحاضر وأحزانه .

* * *

وفي مطلع الفجر ، وقد أخذ النور يرشق بأسهمه البيض سواد الليل ، ذهبنا ثلاثتنا إلى شقة « روز » . . : رجل واحد وامرأتان !

والحق أن « روز » كانت جميلة لطيفة ، ذكية لبقة ، غير أن

التجاذب بين روحي وروحها كان أقل من التجاذب بين روحي وروح « ماري تريز » ، ولكن الموقف فرض عليّ أن أجاملها مجاملة يقتضيها الذوق ، وتتطلبها الرغبة في إدخال البهجة إلى قلوبنا جميعًا ؛ فأخذت أقبّل « ماري تريز » وأقبل رفيقتها « روز » . . وأضرم هذا العبث المجنون النيران فينا ، فعشنا في حلم جميل : كله سحر ، وكله نشوة صرفتنا عن التفكير في غير الحب والجنس . . . .

وإذا كان « أبو نواس » — غفر الله له — قد انتشى وقال : « فما لك من سكريْن من بدّ » فإني قد سكرت مائة سكر وسكر . . سكرت من الخمر ، ومن الجمال ، ومن الحرية ، ومن الحديث الشهي ، والمنطق العجيب . . وسكرت من كل ما كان حولي !

* * *

كانت الساعة تدق الثانية بعد الظهر ، حينما صحونا من نومنا . . وكان اليوم يوم الأحد ، يوم الراحة الأسبوعية لهاتين الغانيتين . .

وإذ فرغنا من الحمّام أقبلنا على الطعام المجفف ، والشراب المعتق ، والفاكهة الشهية ، وأخذنا نتقارع الكؤوس ، ونتبادل القبلات والمشهيات.

ومرت ساعات بهجة ومرح ، فاقت ما كنت أتخيله وأتمناه . .

ولست أدري : أكان هذا الاندفاع في الحب ، أو — في تعبير أصدق — هذا الميل إلى الجنس ، لوثة وجنونًا ؟ أم كان سرًّا مستغلقًا ؟ أم كان وسيلة إلى التخفيف من وحشة كنت أعانيها ؟!

لقد فكرت في هذا في حينه ، ثم فكرت فيه من بعد ، فلم أهتد إلى رأي مقنع . .

وعند منصرفي قلت للصديقة « ماري تريز » ، وأنا أطبع على شفتيها قبلة ناعمة : إليك رسالة أخرى كرسالة السينما ! . . ودسست في يدها مائتي فرنك قائلا : اشتري شيئًا ما تذكاراً لهذه الليلة السعيدة ، التي لن

أنساها ما دمت حيًّا . .

وخطوت نحو الرفيقة « روز » ، وكانت لا تزال أمام المرآة تتزين ، وقدمت إليها مائتي فرنك أخرى ، وأنا أقول لها : لك أيتها الصديقة اللطيفة موفور شكرى ؛ فبفضل كرمك ، وحسن ضيافتك ، جعلت ليلتى الأولى فى باريس أحلى ليالى عمرى ، فأرجو أن تقبلى هذا رمزَ تقدير لرقتك ولطفك . .

قالت « ماري تريز » : إنّ « روز » تستحق أجر ضيافتها ، فقد سطونا على ما ادخرت من طعام وشراب . . ويطيب لنفسى أن أنزلَ لها عما أعطيتنى . . أما أنا فحسبي أن أكون معك . . إنك قوى لطيف ، وقد أحببتك . . وإنى ليسرنى أن ألقاك : : إليك رقم تليفونى . . وسأبقى غداً فى شقتى من الساعة الثالثة إلى السادسة مساء أترقب سماع صوتك . . إلى اللقاء أيها العزيز الغريب !

٣٦

عدت إلى فندق « كلاريدج » ، وارتميت فى السرير ، وغبت فى نوم عميق ، لم أستيقظ منه إلا فى الساعة التاسعة مساء على رنين جرس « التليفون » ينادينى . .

إنها « مادلين » — صديقة القطار — تسأل عن حالى ، وتنبئنى أنها ذاهبة إلى « سركل السفراء » ، وتدعونى إلى الذهاب معها ، وتقول إنها ستمر بى بعد ساعة . .

تهيأت للسهرة ، فاستحممت وتطيبت ، وارتديت حلة أنيقة ، ونزلت إلى بهو الفندق ، ثم خرجت إلى الطريق ، فما إن أجلت طرفى فيما حولى ، حتى وقفت أمام الفندق سيارة فخمة تقودها « مادلين » ، وهى كالعروس المجلوّة !

وذهبنا إلى « سركل السفراء » . .

الجدران كلها مكسوة برسوم متباينة الأشكال والألوان ، والأثاث فاخر ، والرياش أنيق ، والنساء والرجال جميعًا فى أكمل زينة ، وأحسن هيئة ، تنطق وجوههم بالبشر والسعادة: حتى الغادات الحسناوات اللائى يخدمن رواد الملهى ، يحملن على شفاههن ابتسامات ملأى بالمداعبات والدغدغات !

وفى « سركل السفراء » التقينا بكثير من صديقات « مادلين » وأصدقائها ، وقدمتنى إليهم كصديق عرفته فى مصر ، حينما زارتها فى الشتاء ؛ وزعمت لهم أننى سبقت إليها بالفضل ، فكثيراً ما رافقتها فى زيارة معالم القاهرة ، وهى تحاول الآن أن ترد بعض الجميل !

وممن قدمتنى إليهن « مادلين » صديقتها الحميمة « مدام جوبير » وزوجها . . لقد حدقت إلىّ « مدام جوبير » ، وهى ترحب بى ، واضطربت حينما سلمتنى يدها ، وعبرت عما ألم بها برعشة سريعة ، ونظرات هادئة نافذة . .

وانطلقت الموسيقى هفافة موّارة ، وامتدت الأيدى تصلح من الثياب وعقد الرقاب ، وتستقر على الأزرار تحبسها ، وعلى مناديل الصدر ترتبها ؛ وانساب الذكور إلى الإناث يدعونهن إلى مائدة الفن بانحناءة فاغرة منهومة . . ودرت بالحسناء « مادلين » بضع دورات ، ثم همست فى أذنها كلمات ، ردت عليها ببسمة ملأت قلبى أملا ، وصبت فى عروقى نشوة عارمة : :

وبعد أن مضى من الليل ثلثاه عدت إلى الفندق فى سيارة «مادلين» ، وقد واعدتنا « مدام جوبير » أن نتناول الغداء على مائدتها : :

* * *

انقضى الليل هادئًا على ما يلف من أشواق ، ورقدت على بواسم

المنى ، أرقب الغد ، لألتقى بمن باتت تداعب أحلامى . .

وأقبلت « مادلين » فى الضحى ، فحملتنى فى سيارتها ، وأخذت تطوف بى فى شوارع العاصمة العظيمة ، فرجوتها أن تزيرنى قصر « ڤرساى » الذى يتجلى فيه فن العمارة بأجمل صوره ، وأبهى أشكاله : .

يطل القصر على حديقة قالت « مادلين » صادقة إنها أجمل حدائق الدنيا ، قد نسّقت فيها الأزهار والرياحين على أنماط بهيجة ، تخلب اللب ، وتسحر النظر . وتتوسط الحديقة نافورة واسعة قد زانتها السلاحف والأفاعى ، يتفجر من أفواهها فى تقوسات بديعة الماء السلسال لا السم القتال . . ويواجه النافورة من أحد جوانبها طريق معبَّد فسيح يؤدى إلى سلم فخم يصل إلى القصر ؛ ويواجهها من جانب آخر طريق ثان ، يمتد إلى نافورة فى شكل الخيول ، وأمامها نهير من الماء الساكن ، تنتظم على ضفتيه الأشجار الدائمة الاخضرار . . وبالحديقة — عدا هاتين النافورتين — نافورات أخرى ، ومقاصير فاخرة ، تعيد إلى الأذهان ذكرى عظمة منشئ هذا القصر : « لويس الرابع عشر » : . وهذا كله تحيط به الغابات التى تضرب غصونها فى السماء ، فى بهجة ورواء !

يقوم هذا القصر العظيم فى وسط « ڤرساى » إحدى ضواحى باريس . وهو معرض صامت لا ينطق إلا بأمجاد تاريخ فرنسا ، فجدرانه وسقفه مزدانة بصور الملوك والأمراء والوزراء والقواد وذوى الأثر البين فى تاريخ فرنسا . وعلى الجدران أيضًا لوحات زيتية بديعة تمثل المعارك الهامة ، وصور المعاهدات الكبرى التى تمس تاريخ فرنسا ، كلوحة فتح « أنفرس » ، وصورة معاهدة باريس . .

ووضعت « مادلين » ذراعها تحت ذراعى ، وسارت بى وهى تقول : سأريك الآن البهو المخصص بالإمبراطور العظيم : .

ووصلنا إلى بهو فسيح ، نقشت فيه وقائع « نابليون » أتقن نقش ،

فى لوحات ذَرْعُ كل لوحة منها عشرون متراً . . ثم انتقلت بى إلى قاعة من أجمل ما يراه الناظرون وقالت : أما هذا البهو فهو « بهو المرايا » . .

إنه بهو واسع قد غطت جدرانه كلها المرايا الكبرى ، أكبر مما يتصوره الخيال للمرايا ، حتى إن الواقف فى أى مكان به يستطيع أن يرى من فيه جميعًا ، من أى زاوية يشاء ، ويرى حركاتهم ، وما يرتسم على وجوههم من انفعالات :

وأشارت « مادلين » إلى منضدة فى منتصف القاعة قائلة : أما هذه المنضدة فلها تاريخ عجيب . . إنها المنضدة التى وقِّعت عليها معاهدة الصلح سنة ١٩١٩ ، فى أعقاب الحرب العالمية الأولى : ومن عجائب القضاء وفلتات القدر ، التى قلما تتكرر ، أن « الإمبراطور غليوم الأول » — إمبراطور ألمانيا — توِّج فى هذا القصر سنة ١٨٧١ ، منتصراً على فرنسا ؛ وبعد مرور ما يقرب من خمسين عامًا على هذا الحادث الأليم ، جاد الدهر على فرنسا ، ومنحها بعض رضاه ، فثأرت لنفسها ، وأملت شروط الصلح سنة ١٩١٩ فى هذا المكان نفسه الذى توِّج فيه « غليوم » : . هنا ، فى هذه القاعة التى تبختر فيها غالبًا ظافراً ، وعلى هذه المنضدة التى جلس إليها فائزاً منتصراً !

قضينا ساعتين كاملتين نطوف بأبهاء القصر وحجراته ، فرأيت حجرة نوم « لويس الرابع عشر » ، ومكتبه . . ورأيت بعض أدوات النجارة وعددها التى كان يلهو بها « لويس السادس عشر » ، الذى كان مولعًا بهذه الحرفة : حرفة القطع والوصل ، والنشر والترميم ، لكنه لم يفد من هذه الحرفة فى سياسته ، فأخفقت وقضت عليه .

إن قصر « فرساى » متحف عظيم حقًا ، يعرض فى مختلف حجراته وأبهائه ما جُمع من قصور ملوك فرنسا القدماء من أثاث ثمين ، ينطق بما كانوا عليه من بذخ وترف ورفاهية .

وجاوزت الساعة الواحدة بعد الظهر ، واقترب موعد الغداء ، فغادرنا قصر « ڤرساى » ، وقفلنا عائدين إلى باريس ، وقد علقت « مادلين » وعلقتنى ، وعشقتها وعشقتنى !

إن جمال « مادلين » لم يكن من ذلك الجمال الذى يبهر النظر لأول وهلة ، ولكنه كان جمالا ينسكب فى النفس قطرة قطرة حتى تمتلىء به دون أن تشعر ! كان جمالا يتسلل إلى أعماق الفؤاد فى حذر ، وعلى مهل ، فلا تشعر إلا وقد استقر فيها وتمكن !

وإذا كان حياؤها قد حال دون أن تفصح عن مشتهاها ، فإن هيبتها فى نفسى قد حالت دون أن أفصح عن مشتهاى ، فكنا نتحدث فى كل شىء إلا فيما تضطرب به قلوبنا ، وتختلج به حواسنا ، وتشتهيه أنفسنا ، وإن زل اللسان بتعريض عابر ، أو بتورية خبيثة !

* * *

رحبت بنا « مدام جوبير » ترحيباً حارًّا ، وعلى وجهها أمارات البهجة الصادقة ، وسمات الفرح الذى لا تكلف فيه ، ثم قالت : إنى لآسفة ، لأن زوجى لن يستطيع أن يتغدى معنا ، وقد طلب منى أن أعتذر إليكما ، حتى يلقاكما ساعة الغروب . .

وبدت لى « مدام جوبير » ذكية لطيفة ، وعلى قسط وافر من الطلاقة والرقة والجاذبية ، والمكر أيضاً !

وبعد تناول الغداء دعتنا « مدام جوبير » إلى الاستراحة قائلة : لا شك أنكما تودان الاضطجاع قليلا . . تفضلا . . استريحى أنت ياعزيزتى « مادلين » فى هذه الحجرة . . واسترح أنت ، أيها العزيز ، فى تلك . . ستجدان كل شىء معدًّا لراحتكما . . إنى معتادة أن أضطجع بعد الغداء ، إذا أفرطت فى الشراب ، كما صنعت اليوم ، وإلا فعلت بى الخمر أفاعيلها ، وأصابنى صداع لا يطاق . .

قالت « مادلين » : استريحى أنت ، ياحبيبتى « بوليت » .. أما نحن فوراءنا زيارات كثيرة . .

وقلت أنا : أشكر لسيدتى العزيزة كرم ضيافتها . . وإنى لسعيد أتم السعادة ، إذ أتيحت لى هذه الفرصة الطيبة ، للتشرف بمعرفتك ، ولرؤية الحياة الباريسية على حقيقتها . .

— أوه ! سترى الكثير مما تود رؤيته ومعرفته . . ألن تبقى بيننا فترة ، فأريك ما تشاء من معالم باريس وأنماط الحياة فيها ؟ !

— بلى ، سأبقى شهرين أوثلاثة . . وإنى لأكرر ، لسيدتى العزيزة ، عظيم شكرى لهذه الرقة البالغة ، والعناية الفائقة ، والكرم الفياض . .

— ثق أنى يطيب لى أن أقوم — نيابة عن أختى وصديقتى « مادلين » — بما تحب هى أن تقوم به نحوك .. إن « مادلين » كأختى حقًا ، وبيتى بيتها ، ويسرنى كثيراً أن أراك ما دمت فى باريس . .

قالت « مادلين » : نعم ، إنى و « بوليت » صديقتان حميمتان ، بل أختان ، إننا لم نفترق منذ طفولتنا إلا بعد أن تزوجتُ ، وأقمتُ فى ليون . . فلتكن ، يا صديقى العزيز ، على اتصال دائم بها ، بعد سفرى .. ستسهل لك كثيراً مما يصادفك ، ويعسر عليك . . شكراً لك يا « بوليت » . . سنتركك الآن لتستريحى ، ونذهب لزيارة « اللوفر » .

اربدّت سحنة « بوليت » ، وقالت : إنى ليحزننى أن تذهبوا . . كنت أحب أن نقضى معاً سهرة طيبة . .

قالت « مادلين » : إننى سأبقى فى باريس بضعة أيام ، وأحب أن أفى ببعض دينى لهذا الصديق العزيز . . .وإنى أدعوك وزوجك إلى تناول الغداء معنا غداً فى « المطعم الشرقى » . .

— أفضل أن نتعشى معاً ، ونسهر معاً . .

— ليكن . . : سأحدثك غداً فى « التليفون » . . :
وودعنا « مدام جوبير » ، وعلى وجهها مسحة من الكآبة !

٣٧

ليس من اليسير أن أصف ما رأيت فى « اللوفر » من تحف ثمينة ، نادرة ، وصور زيتية بريشة مشاهير الرسامين . . فقد مضت سنون طويلة ، وازدحمت الذاكرة ، واختلطت فيها المشاهد : : لكن الذى اجتذب نظرى اجتذاباً ، ولا تزال الذاكرة تعيه ، ولا أظن الأيام قادرة على محوه ، ما رأيته فى هذا المتحف العظيم فى القسم الخاص بالآثار المصرية ، وفى القسم الخاص بالآثار الإغريقية ، وفى القسم الخاص بالسفن البحرية منذ نشأتها . :

ولن أنسى أبداً ذلك المصوَّر الجغرافى للجمهورية الفرنسية الذى جرت أنهاره من خيوط الفضة ، وصيغت إشارات مدنه من الجواهر ، وبرزت أسماؤها من الذهب !

ولن أنسى أيضاً صورة أخرى مشهورة فى العالم كله هى « الجيوكندا » التى رسمها الفنان العظيم « ليوناردو دافنشى » ، والتى يقال إن « نابليون » قد سلبها من إيطاليا .. إنها صورة صغيرة لا تزيد على نصف متر فى ثلاثة أرباع المتر ، لكنها جميلة حقًّا ، تمثل سيدة تحار الابتسامة على شفتيها حيرة لبّ الناظر فى كشف سرها وفهم مغزاها ، فهى لا تقول : نعم ، ولا تقول : لا !

وقد حدث فى العقد الثالث من هذا القرن أن أحد النقاشين الإيطاليين ممن كانوا يعملون داخل متحف « اللوفر » سرق « الجيوكندا » وفر هارباً ، فأعلنت الحكومة الفرنسية عن استعدادها لدفع « مليون »

فرنك مكافأة لمن يدل على موضع الصورة ، ومقر سارقها الأثيم ، الذى لم يلبث أن انكشف أمره فى إيطاليا ، فأودع السجن ، وأعيدت الصورة إلى فرنسا . .

ثم قالت «مادلين» : أنصحك، ياصديقى العزيز، أن تزور «اللوڤر» زورة أخرى ، قبل أن تعود إلى وطنك . . والآن تعال ، فأريك أشياء أخرى . .

وتهادت بنا السيارة فى طريق «الشانزليزيه» الشهير ، الذى يقع فيه فندق «كلاريدج» حيث أنزل . «والشانزليزيه» طريق فسيح طويل ، تظلل الأشجار جانبيه ، ويبهر السائر بنظافته وتنسيقه . . فى أحد طرفيه ميدان «الكونكورد» ومتحف «اللوڤر» ، وفى طرفه الآخر «قوس النصر» الفاخرة ، التى نصبت تخليداً لانتصارات «نابليون» ، ونقشت عليها صور معاركه الحربية التى خلدت عبقرية هذا القائد العظيم . . وتحت هذه القوس أقيم «قبر الجندى المجهول» الذى يحج إليه الناس أفواجاً فى كل وقت ، ولا يمر به امرؤ دون أن يخلع قبعته إجلالا وتقديراً . . وفى مواجهة القوس طريق «غابة بولونيا» الذى ينتهى بعد سير طويل إلى الغابة نفسها . .

وبعد «قوس النصر» تتشعب الطريق إلى اثنتى عشرة شعبة ، يحمل كل شارع منها اسم أحد القواد العظام الذين حققوا لفرنسا انتصارات حربية غالية . .

قالت «مادلين» : سأذهب بك الساعة إلى معرض حى . . سأذهب بك إلى «فونتنبلو» ، حيث تقيم صديقتك التى جئت إلى فرنسا لرؤيتها . . فهل أنت مستعد لهذه الرحلة الطويلة ؟ ! قد نلتقى مصادفة بصديقتك . . كم أود أن أرى تلك التى شغلت قلبك ، وجعلتك تقطع الأميال سعياً وراء رؤيتها !

فطنت إلى ما ترمى إليه « مادلين » بهذه الغمزة ، فقلت : أفضل أن أرى قبر « نابليون » أو « غابة بولونيا » . . : أما صديقتى « أليس » فسوف أراها فيما بعد .

ـ أما تشغل قلبك « أليس » هذه ؟ !

ـ ماذا تعنين بهذا السؤال ، أيتها العزيزة ؟ ! . . : إذا زار ليون بعض من عرفت من أبناء مصر ، وسعوا إلى رؤيتك ، فهل من الحتم أن تكون قلوبهم مشغولة بك ؟ ! . . وإذا زرت أنت مصر مرة أخرى أفما تحبين أن ترىْ من عرفتهم فى زورتك السابقة ، واستراح قلبك إلى صداقتهم ؟ ! وهل يكون معنى هذا أنك قطعت آلاف الأميال لرؤية هؤلاء الأصدقاء ؟ ! . . إنما جئت ، ياسيدتى العزيزة ، إلى باريس لأرى معالمها ومفاتنها ، وأرى ـ فيما أرى ـ صديقتى « أليس » التى التقيت بها فى وطنى . . أنا لا أنكر ، يا « مادلين » أن « أليس » كان لها أثر أيما أثر فى اختيارى زيارة فرنسا ، دون زيارة إنجلترا أو إيطاليا مثلا ، حينما أتيحت لى الفرصة .. أما حديث الحب الذى جرى بيننا فى القطار ، فقد بالغت فيه ، وأسهبت ، ليكون سبيلا إلى الحديث إليك أنت : . أنت التى تشغلين قلبى ، ياحبيبتى « مادلين » !

ـ اطمأن قلبى الآن ، أيها الصديق الحبيب . . هيا إلى « غابة بولونيا » . .

وكلمة « غابة » كانت تثير فى نفسى معنى الأشجار الغليظة الملتفة ، والظلام الذى لا تشقه خيوط الشمس ، والحيوان الذى يمرح طليقاً ، ويفترس بعضه بعضاً ، فإذا « غابة بولونيا » تثير فى نفسى البسطة والجمال . .

إنها متسع عظيم من الأرض ، تغطيه أشجار الصنوبر والبلوط ، وتتوسطه بحيرات عدة ، على سطحها تمرق زوارق الرياضة ، وتختال

قوارب العشاق ، وتتخللها جزر كثيرة قامت فيها ملاهٍ فخيمة ، تعدّ من أجمل متنزهات باريس ، وأمتع ملاهيها . .

أوينا إلى أحد تلك الملاهى ، بين الجمال الطبيعى والمصنوع ، وجعلنا نتناجى . . وأخذت أبثها وجدى وهيامى ، حتّى توارت الشمس بالحجاب ، وبرز القمر يكسو المكان بأشعته الفضية ، فنهضت «مادلين» وشدت يدى ، وجعلت تقود خطاى بين الخمائل العطرة ، والأشجار الباسقة ، والجداول الرقراقة ، والشبان والصبايا المتمددين على الكلأ الرطب ، فقالت : هنا يطيب الحب !

وكنا نسمع من حولنا تنهدات العشاق ، وهم مستلقون فوق الأعشاب يتداعبون ويتضاحكون ويتحابون . . فالشبان والشابات يذهبون جماعات إلى الحدائق والغابات ، وهناك — تحت ظلال الأشجار ، وبين الأحراش والأدغال ، وخلف الصخور — يتطارحون الغرام . .

ضممت « مادلين » إلى صدرى ، وقلت : لا أستطيع . . لا أستطيع الصبر أكثر مما صبرت . . ما لك لا تتكلمين ؟ ! لماذا جئت بى إلى هنا يا « مادلين » ؟ ! أجئت لتزيدى فى عذابى ؟ ! عودى بى ، ودعينى أقرض طريقى بأسنانى ، وأشقها بأظافرى !

مالت بى إلى خميلة من تلك الخمائل المنتثرة دون أن تنطق ؛ فأحسست أننا تقاربنا جد التقارب ، وأن تجربة مشتركة من الرغبة ومن الخوف أيضًا ، تربط بيننا . . . .

وتمتعت مع « مادلين » بالحب فى باريس ، بين الماء والخضرة والوجه الحسن . . فى « غابة بولونيا » ، وفى الحدائق ، وعلى شاطئ نهر السين ، وبين مخارمه الظليلة القاتمة ، والمياه من تحتنا تتدفق ، تدغدغ الصخر والحجر ، وسيقان النبات وجذوع الشجر : .

قضينا معًا خمسة عشر يومًا ، كنا فيها لا نكاد نفترق إلا ساعات

معدودات . . وكانت الصديقة الحميمة « بوليت » تسهل لنا فرص الخلوة فى بيتها ، بعيداً عن الأعين . . وما أرحب بيوت الأصدقاء !

وتعلقتُ الحسناء « مادلين » وتعلقتنى تعلق المرسيلية الحسناء « جوزفين » من قبل ، غير أن الحبيبة « جوزفين » كان عملها يشغلها عنى ، ويتيح لى شيئاً من الحرية ، أما « مادلين » فقد فرغت لى ، فكانت لا تعيدنى إلى الفندق إلا مطلع الفجر ، فأغلق على نفسى باب مخدعى ، وأعيش مع أحلامى ، أو أنثرها فى رسائل إلى الأهل والأصدقاء ، وإلى الحبيبة « جوزفين » . .

كتبت إلى « جوزفين » أبثها أشواق ، وأشكر لها ما أحاطتنى به من رعاية وعناية ، وما غمرتنى به من حب وحنان ، وأقول لها إننى لن أنسى ما حييت الأوقات الهنيئة التى سعدت فيها إلى جوارها فى مرسيليا وفى ليون . .

وبدأت أتلقى منها رسالة يوماً بعد يوم ، وكنت أجد فى هذه الرسائل متعة أى متعة ، وكأنى أعيش مع صاحبتها ، ذات الوله الملتهب ، والعاطفة المشتعلة ، والحنان الدافق . :

كتبت مرة تقول : « إنى لن أنساك أبداً ، أيها الحبيب العزيز عبد الرحمن . .

« لن أنساك أبداً ، فكل ما حولى يذكرنى بك . .

« يذكرنى بك هذا الملهى الذى شهد رقصنا ولهونا . . وهذا المطعم الذى تغدينا فيه أو تعشينا ، بله هذا الطريق الذى سمع وقع خطانا . .

« يذكرنى بك فستانى الوردى الذى أحببته :. .

« تذكرنى بك يدى الصغيرة التى طالما وضعتها بين راحتيك الكبيرتين الدافئتين . .

«يذكرنى بك شعرى الذى كنت تغمر به وجهك وخديك وشفتيك . .

«تذكرنى بك أذناى اللتان كنت تداعب طرفيهما الرقيقين الحساسين بأصابع يدك : . »

ومرة ثانية تهتف :

« إنى كلما سألت مرآتى ذكرت ما قلته فى شعرى ، وعينى ، وخدى ، وعنقى ، وقوامى . . وكلما ارتديت ثوبًا ذكرت ملاحظتك عنه . . »

ومرة ثالثة تصرخ :

« أنا أعلم يا عبد الرحمن ما تفعل فى باريس ، وأتعذب . . فلا تضاعف عذابى وشقائى بالشك والحرمان !

« أنت لا تدرى ، ياحبيبى ، كم أنا فى شوق إليك ! وكم يؤلمنى بعدك عنى ! .. إننى فى الأيام القليلة الماضية لم أفكر إلا فيك وحدك ، أيها الحبيب العزيز : . فلا تتأخر عنى ، وبادر بالمجىء إلىّ ، قبل أن يخوننى جلدى ، فأنتحر ، أو آوى إلى دير يغيبنى عن الحياة ! » . .

لا نكران أنى كنت أحن إلى الحبيبة « جوزفين » أقوى الحنين . . ولا نكران أيضاً أن الحبيبة « مادلين » كانت تجذبنى إليها جذباً عنيفاً بشركها القوى ، ليلاً ونهاراً ، وإنه لشرك منسوج من الجمال والظرف ، والرقة واللطف ، والأنوثة الناعمة ، والثقافة العميقة ، والمال الوفير :

نعم ، إن « مادلين » لم تكن تدعنى — مادمت معها — أنفق فرنكاً واحداً من مالى ، وتقول : « أحب أن تعد نفسك ضيفاً علىّ ، فاحتفظ بمالك . . إنى من ذوات الثراء ، ولولا خشيتى أن تغضب لحملت عنك نفقات إقامتك كلها فى فرنسا » : : .

وهكذا احتلت « مادلين » محلها فى خلايا قلبى القلّب !

وإنى — فى الحق — لمدين لهذه الحبيبة العظيمة بالكثير الكثير ، فبفضلها رايت جلّ معالم باريس ، واطلعت على أنماط الحياة فيها ، دون أن أتكلف جهداً ، أو أنفق مالا ، وبفضلها عرفت كثيراً من الأسر الفرنسية

العريقة ، وفتحت لى أبوابها على مصاريعها ، وبفضلها زرت «صالونات باريس» الأدبية ، وخبرت الحياة الباريسية فى جدها ولهوها ، وبفضلها زرت «مسرح الأوبرا» و«مسرح الرعب» و«مسرح الفولى برجير» و«مسرح الأوبرا كوميك» ، و«كازينو دى بارى» و«الكوميدى فرانسيز» . .

وكان من دأب «مادلين» أن تفاجئنى كل يوم مفاجأة سارة ، بما تعد من وسائل اللهو والرياضة ، وكانت تقدم لما كنا نزوره من معالم بمقدمات نافعة ، كشفت عن ثقافتها الرفيعة ، وإلمامها الواسع بتاريخ وطنها . .

زرنا يوماً قبر «نابليون» ، فقالت ونحن نخطو إليه : كان مما أوصى به «نابليون» أن يدفن جثمانه على ضفاف نهر السين ، بين أبناء فرنسا الذين أحبهم . .

وتنفيذاً لهذه الوصية اختار الفرنسيون لرفات هذا الإمبراطور الأكبر «قصر الأنفاليد» الذى شيده «براون» فى القرن السابع عشر داراً للعجزة وذوى العاهات من قدامى المحاربين. وهو من أفخم الأمثلة للطراز الكلاسيكى فى العمارة الفرنسية. وخلفه قبة «الأنفاليد» ، تحفة المهندس «مانسار» ، وتحتها رفات «نابليون» . .

تأمل . . إن القبر مسوَّر بسور عال . . وفى وضع القبر بهذه الصفة مغزى قل من يفطن إليه ، وذلك أن يطل عليه الزوار من أعلى ، فيطأطئ أعظمهم رأسه إجلالاً وإكباراً لساكنه الفذ ، ولو على كره منه !

— إن هذا لتعليل عجيب ، وتفسير غريب ، ما أظنه يخطر بالبال: .

— إنه الحق ، وإنه الفن ، قد احتفظا لهذا الإمبراطور العظيم بما هو أهل له من تقدير وإجلال . . أترى الناووس ؟ . . إنه مصنوع من الجرانيت الأحمر ، ومحاط بهذه الأعمدة الكثيرة ، التى نصبت تخليداً

للقواد الذين شاركوا الإمبراطور فى حروبه وفتوحاته ، فقد نحت على كل عمود تمثال لأحد القادة الكبار . . انظر هذه المقصورة الفاخرة والصورة التى تتوسطها . . إنها صورة السيد « المسيح » وهو معلق على خشبة الصليب . . وفى جانبها صورة « نابليون » يحيط به أخواه وكبار قواده ، ونقش لبعض وقائعه الحربية ، وانتصاراته الباهرة . . :

— وهل لهاته الأعلام الكثيرة التى ترفرف على رءوس الجميع ، قيمة تاريخية ؟

— نعم . . إنها ، ياصديقى الحبيب ، الأعلام التى غنمها « نابليون » وقواده فى أثناء الحروب . : ومن بينها نيف وخمسون علماً انتزعها « نابليون » فى وقعة « استرلتز » المشهورة : : انظر إلى باب الناووس الرهيب . . إن مصراعيه من الحديد ، وقد نحتت عليهما بعض الوقائع والزخارف البارزة والغائرة . . وكلها من حديد المدافع التى غنمها « نابليون » فى وقعة « استرلتز » !

— أويزور الناس القبر دائماً بهذه الكثرة التى نراها ؟

— إن الزوار من كل الطبقات ، ومن جميع الأجناس ، لا ينقطع توافدهم ، ففى كل وقت تراهم يقفون فى صمت ورهبة وخشوع ، خالعين قبعاتهم ، وكأن على رءوسهم الطير !

والحق أن الشعور الذى أحسسته أمام قبر « نابليون » أجل من أن تحصره الألفاظ ، وأعمق من أن تحده الكلمات ، فلقد تملكنى — وأنا أستمع إلى حديث « مادلين » عن القبر وساكنه — رعشة خفيفة ، وقوية أيضاً ، وذهول عميق ، وروعة جليلة ، واستعرضت — فى خيالى — انتصارات هذا البطل المغوار ، وتصورت همته التى كانت أجل من الدهر ، وتذكرت بيتين حفظتهما فى صغرى يصوران أطماع هذا القائد الكبير :

قالوا لنابليون ذات عشية إذ كان يرقب فى السماء الأنجما
هل بعد فتح الأرض من أمنية فأجاب : أنظر كيف أفتتح السما

ونظرت إلى هذا الحيز الضيق المحدود الذى قهر « نابليون » ، وأرغمه على أن يكون طعاماً لديدانه تحت التراب . . واعتبرت ! فسبحانك (اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير) !

ثم قالت « مادلين » : بعد أن زرتَ قبر «نابليون» يجدر بى أن أزيرك المكان الذى وقف فيه هذا الإمبراطور المعظم وقفته الأخيرة على أرض فرنسا . . سأذهب بك الساعة إلى « فونتنبلو » . . الضاحية التى تقيم فيها صديقتك « أليس » . . : إن بيننا وبينها مسيرة ساعة بالسيارة . . :

— إنى ، ياحبيبتى « مادلين » ، سعيد بمرافقتك ، شاكر لك هذه الرعاية ، ولن أنساها ما حييت . . وإذا كنت أشتاق حقاً رؤية المكان الذى شهد وداع « نابليون » ، فإنى لا أحب أن أزور « فونتنبلو » الآن : .

— أتخشى أن نلتقى بصديقتك ؟ أم تخشى أن تلقاك وأنا معك ؟ !

— « مادلين » . . أيتها الحبيبة العزيزة ، دعينى سعيداً بقربك هذه الأيام القلائل التى تقضينها فى باريس : . إنى لا أحب أن أفكر فى شيء ما قد يشغلنى عنك ساعة . .

— ياحبيبى . . لا تخش شيئاً . : إننا سنزور قصر « فونتنبلو » . . لقد زرت « اللوفر » ، وزرت « فرساى » . . ألا فلتعلم أن قصر « فونتنبلو » يفوق « فرساى » فى نقوشه وزخارفه ، ويضم أثاثاً فاخراً لا مثيل له فى قصر آخر . . أحب أن أذهب بك إلى « فونتنبلو » . .

— فلنذهب إلى « فونتنبلو » . .

وقادت « مادلين » السيارة فى طريق « نبع الماء الجميل » . .

سألتها : متى بنى قصر « فونتنبلو » ؟ ومن بناه ؟

قالت : بنى هذا القصر فى القرن السادس عشر . . بناه الملك « فرنسوا » الأول . . ولهذا القصر تاريخ عجيب ، فقد اتخذه « نابليون » مسكناً له . . وفيه سجن « البابا بيوس السابع » ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أرغمه على التوقيع على وثيقة يعترف فيها برضاه عن إغلاق الموانى فى وجه إنجلترا ، وكان « البابا » قد رفض الموافقة على سلوك « نابليون » ، وأعلن سخطه، وغضبه ، لإغلاق الموانى فى وجه السفن الإنجليزية ، فاعتقله « نابليون » ، وسجنه فى قصر « فونتنبلو » . .

وفى قصر « فونتنبلو » رأيت العجب العجاب . . رأيت عرش « نابليون » ، وقاعة المشورة ، وحجرة نوم « نابليون » ، ومكتبه ، وحجرة الملكة « مارى أنطوانيت » ، وحجرة « هنرى الثانى » التى تعد أفخر حجرات العالم كله . .

وأشارت « مادلين » إلى منضدة صغيرة ، ليس لها رونق ولا بهاء ، وقالت : على هذه المنضدة كتب « نابليون » صك نزوله عن العرش . . وفى هذا المكان ودع حاشيته وقواده ، وسافر منفياً إلى جزيرة « إلبا » . . وهناك كتب مذكراته ، وقد جاء فيها عن هذا القصر : إنه خليق بسكنى الملوك !

٣٨

ودعت « مادلين » عائدة إلى ليون ، بعد أن ملأ حبها أقطار نفسى ، فغلبنى لفراقها الهم والحزن ، وبدت باريس فى عينى كابية مظلمة ، وخواء مقبضاً ، وفراغاً لا حد له . . ففكرت فى أن أكتب إلى العزيزة « أليس » ، أنبئها أنى فى باريس ، وأنى أشتاق رؤيتها ، غير أن شيئاً خفياً كان يقبض صدرى ، ويجعلنى أتهيب الكتابة إليها ، وأخشى

لقاءها . . وفكرت فى أن أتصل « تليفونيا » بالصديقة « مارى تريز » ، لكنى أحسست فى نفسى اشمئزازاً ، فهذه الغانية شيطانة من شياطين الإنس ، ولها — ولا شك — عشاق كثيرون ، ونفسى تنفر من المرأة ذات العشاق الكثر ، مهما يكن جمالها ، ومهما يتعلقها قلبى . .

وربما كان من الواجب أن أعترف أن « مادلين » — بوقارها واتزانها — قد بذرت فى قلبى حب الحياة المطمئنة ، وعلمتنى أن استقرار الحياة يتيح لى أن أتذوق لذات العيش فى دعة وهدوء . . ومن ثم هفا قلبى إلى « بوليت » ، وإلى أولئك الجميلات اللاتى أسعدتنى « مادلين » بأن قدمتنى إليهن : .

وفيما أنا تائه حائر ، غارق فى التقدير والتدبير ، لا أدرى كيف أخطو خطوتى التالية ، إذا جرس « التليفون » يدق . . فبقيت مضطجعاً لا أريم ، وقد عزمت ألا أجيب ، لاعتقادى أن على الطرف الآخر « مارى تريز » ، فهى التى لا تنفك تسأل عنى ، وتطالب أن أزورها فى بيتها . : ولم تكن نفسى ساعتئذ تهفو إلى رؤيتها ، على ما أحسه نحوها من ميل غريب ، ورغبة فائرة ، فإن الدوامة التى كانت تدور فى رأسى جعلتنى لا أحس الظمأ الجنسى ، قدر ما أحس الجفاف النفسى ! : : فحننت إلى « بوليت » ، وإلى الزوجات الجميلات ، وانصرفت نفسى عن الغانيات محترفات الغرام . .

ثم دق جرس « التليفون » مرة أخرى ، وأنا لا أزال مضطجعاً ، أقلب وجوه الرأى ، وأفكر فيما أنا مقبل عليه ، فتناولت السماعة فى تثاقل ، فإذا على الطرف الآخر الصديقة « بوليت » التى كنت أفكر فيها ، لا العاشقة « مارى تريز » التى حزرتها . .

انتعشت ، وأحسست الدماء تجرى حارة فى عروقى ، وقلت أحدث نفسى : لقد فرجت !

* * *

انحنيت أقبّل يد « بوليت » فى حرارة وصدق عاطفة ، فمنذ سافرت « مادلين » مرت بى الساعات القلائل وكأنها دهر طويل ، وكلح وجه الحياة فى عينى ، وامتلأت سماء أفكارى بغيوم الهموم ، وغلبت على نفسى هواجس الغموم ، فرأيت فى سؤال « بوليت » عنى ، وفى دعوتها إياى إلى الغداء ، وفى حضورها إلى الفندق ، نعماً جليلة لا تجحد ، فقبّلت يدها ظهراً وبطناً ، وقلت : أشكر لسيدتى العزيزة هذا الفضل العظيم . . إن ما تغمريننى به ليعقد لسانى عن الكلام ، فعذراً جميلاً ، وشكراً جزيلاً ، ياسيدتى .

ــ لا تقل هذا ، ياصديقى العزيز .

ــ الحق ، يا سيدتى أنى كنت فى شر حال ، قبل أن تتفضلى بالسؤال عنى . . كنت غارقاً فى بحار الهم ، فأنقذتنى !

ــ خمنت أن صدرك ضائق بسفر العزيزة « مادلين » ، فسألت عنك قبل ساعة ، فقيل لى : ربما كنت نائماً .

ــ لم أكن نائماً يا سيدتى . . لكنى اعتقدت أن هنالك خطأ فى الاتصال بى : . فمن فى باريس يسأل عنى ، بعد سفر الصديقة العزيزة « مادلين » ؟ !

ــ كيف يسيطر على خاطرك هذا الوهم ، ياعزيزى ؟ ! ألسنا أصدقاء ؟ ! أفلم أقل لك غير مرة إن « مادلين » أختى ؟ ! أولم أقل لك إنى سأكون بجانبك بعد سفرها ؟ !

ــ هذا كرم عظيم ، ياسيدتى النبيلة ، فشكراً لك ألف شكر !

ــ أحب أن تعدنى صديقتك ، كالعزيزة « مادلين » . . وأحب أن تناديني باسمى الصغير . . « بوليت » . . : لقد تفتح لك قلبى أيها الصديق العزيز ، منذ رأيتك ، وكأنى أعرفك منذ زمان بعيد !

ــ إنك لتوليننى شرفاً أى شرف بصداقتك ، يا سيدتى الكريمة .

ـ قلت لك : نادنى باسمى . . « بوليت » . . « بوليت » . .
أحب أن أسمع لسانك ينطق اسمى ، كما كان ينطق اسم « مادلين » !
ـ حسناً ، حسناً . . ليكن ما تريدين يا « بوليت » العزيزة .
ـ والآن . . أما تحب أن نخرج معاً ؟ ألا تحب أن تزور مكاناً معيناً ؟ !

ـ لقد زرت فى صحبة العزيزة « مادلين » ، كثيراً من معالم عاصمتكم الجميلة ، غير أنى لم أزر بعد برج « إيفل » ولا « الباستيل » . . فهل أطمع فى أن أزورهما فى رفقتك ، ياسيدتى العزيزة ؟ !

ـ إنى ، كما عرفت ياصديقى ، لا ولد لى . . وزوجى يقضى أكثر وقته بعيداً عن البيت ، وهو على سفر فى أكثر الأيام ، فعمله ذوأهمية كبيرة ، ومسئولياته كثيرة خطيرة . . وإنى لتطيب نفسى أن أصحبك إلى حيث تريد ، كما كانت تصحبك أختى العزيزة « مادلين » . .

ـ شكراً شكراً ، ياعزيزتى « بوليت » . .

وانحنيت أقبل يدها مرة أخرى ، فقالت : لنذهب الآن إلى برج « إيفل » :

* * *

استغرقت زيارتنا برج « إيفل » ساعة وبعض ساعة . .

إنه برج عظيم من الحديد الصلب ، يربو ارتفاعه على ثلثمائة متر ، فى شكل شباك متقاطعة ، تدق فتحاتها وتتقارب كلما ارتفعت . . وهو مقسم إلى أربع طبقات ، لكن الزائرين لا يصعدون إلا إلى الطبقة الثالثة ، فإن الرابعة مخصصة بالآلات والأجهزة اللاسلكية التى تربط وزارة الخارجية الفرنسية بأطراف الأرض . .

صعدنا بمصعد كهربى إلى الطبقة الثالثة ، وجلسنا فى « الكافيتريا » الأنيقة ، فبدت باريس العظيمة ، من هذا الارتفاع الشاهق ، صغيرة

ضئيلة ، حتى خيل إلى أن مساحتها لا تتجاوز بضع مئات من الأمتار !

وخضنا فى أحاديث شهية متنوعة ، وجرى ذكر الغرام على لساننا عذباً ناعماً ، ولمعت عيوننا حبًّا ورغبة ، وخفق قلبانا وجداً ونشوة . .

وبعد الغداء عادت بى إلى فندق « كلاريدج » حيث أنزل ، وودعتنى على أن تمر بى فى المساء . .

ومضت أيام ونحن نلتقى كل يوم مرة أو مرتين ، فتحملنى فى سيارتها ، وتطوف بى فى أرجاء باريس ، وتدعونى ، أو أدعوها ، إلى الغداء أو العشاء والسهرة ، حتى أكاد أقول إنى رأيت من معالم العاصمة الفرنسية وملاهيها ما لم يره غريب ، وإنى اطلعت على أنماط من الحياة فيها قلما تتاح معرفتها لزائر .

ويومًا قلت لها فى معرض الحديث : جزى الله العزيزة « مادلين » كل خير . . لقد نفعتنى وآذتنى معًا !

— كيف نفعتك ؟ وكيف آذتك ؟ !

— نفعتنى إذ قدمتنى إليك ، أيتها العزيزة « بوليت » . . وآذتنى إذ حبستنى ، ولم تدعنى أجرب جناحىّ . .

— كانت تخاف عليك السقوط !

— لأن أطير وأسقط ، وأطير وأسقط ، خير من ألا أطير على الإطلاق !

— لقد سحرتها أيها الساحر اللطيف ، فحبستك على نفسها . . كانت شديدة التعلق بك ، وقد حدثتنى عنك كثيراً ، وطلبت منى أن أسهل لكما سبل اللقاء ، فكان أن جعلتُ لكما بيتى مهد غرام ! أليس كذلك ؟ !

— بلى ، ياسيدتى العزيزة ، وشكراً ، ألف شكر . . ولست أخفى عليك أنى أنزلتك من قلبى أكرم منزل ، منذ رأيتك . . وإنى

لأرجو أن تسعدنى أيامى ، فأعرب لك عمليًّا عن عرفانى فضلك، وتقديرى صنيعك . . لكم يسعدنى أن تزورى مصر فى الشتاء المقبل ، فأكون فى خدمتك ، وأسهر على راحتك !

— حدثتنى « مادلين » كثيراً عن مصر ، فشوقتنى إلى زيارتها . . وإنى لأرجو أن تتاح لى هذه الفرصة قريباً . . والآن ياصديقى العزيز ، ألا تود أن ترى نمطًا جديداً من الحياة الفرنسية ، قد لا تتيسر لك رؤيته ؟

— أوَبقى شىء بعد ؟ ! لقد رأيت فى بلادكم الجميلة ما يجعلنى أصف الحياة هنا خيراً مما أصفها فى بلدى .

— إنك لم تر ، بعد ، الحياة فى الريف الفرنسى . . وسأذهب بك الساعة إلى زيارة صديقة تقيم فى أحد أطراف العاصمة، فى بيت جميل، يقوم وسط مزارعها الواسعة ، كما تقوم الجزيرة المنعزلة فى وسط المحيط . فهل يسرك ذلك ؟ !

— يسرنى كل السرور : . ثقى ياعزيزتى « بوليت » أن الاطمئنان والسعادة يملآن قلبى ، ما دمت إلى جوارى . .

وجاوزت بنا السيارة ضوضاء المدينة ، وصرنا بين الحقول ، وهبت علينا أنسامها المنعشة ، فتخدرت أعصابنا ، وتحرك العشق فى أعماقنا، فوقفت « بوليت » السيارة ، وقالت : تعال نستمتع بالهواء النقى ، والطبيعة الساحرة . .

مرحنا بين المروج ، ونحن شوق ورغبة ، وخوف ورهبة . . وكلانا يود لو هيأ له رفيقه فرصة التعبير عما يحسه ويعانيه . . وشاقنا منظر الأشجار والأزهار ، والخمائل النضيرة ، فأخذت « بوليت » تركض بين الخمائل حتى استظلت خميلة مزدهرة . .

ماذا نفعل والطبيعة ترقص حولنا ، وعطر الزهر يخدر حواسنا ، و « كيوبيد » أطلق سهامه ، فأصاب وأدمى ؟ !

لم نستطع إلا أن ننعم بالقبلات الملتهبة ، والأحضان الوثيقة . .

ثم تهادت بنا السيارة بين المزارع ، فى طريق معبد قد نسقت على جانبيه أشجار الفاكهة والأزهار ، حتى وصلنا إلى « ڤيلا » جميلة ، تحيط بها الحقول الواسعة والمروج الشاسعة ، فبدت كجزيرة منعزلة ، كما قالت « بوليت » : .

استقبلتنا « مدام دى مرسان » استقبالاً طيباً ، وبدا أنها كانت تنتظرنا وتتوقع مجيئنا . .

و « مدام دى مرسان » سيدة صغيرة ، جميلة لطيفة . . أنثى كاملة : وقد رحبت بنا ترحيباً حارًّا . . ثم همست فى أذن « بوليت » همساً مسموعـًا : كل شىء على ما يرام ، ياعزيزتى « بوليت » !

وتقدمتنا السيدة الصغيرة ، الجميلة اللطيفة ، وهى تخطو متمهلة مترفقة متكسرة الدلال ، فدخلت بنا حجرة نوم واسعة ، فى أحد أركانها مجلس أعد إعداداً فنيـًا ، يشيع فيه الذوق المترف ، ويتوسطه نضد فوقه صنوف من الفاكهة والريحان ، وزجاجة « شمبانيا » وكأسان : .

وقفت « بوليت » تتحدث فى صوت خفيض إلى السيدة الصغيرة ، الجميلة اللطيفة ، وجعلت أنا أتأمل ما حولى ، مأخوذاً بالأثاث الفاخر ، والصور الجميلة ، والتحف الثمينة ، والذوق الرفيع ، حتى سمعت « بوليت » تقول : لا بد أن تكونى معنا ساعة الغداء يا « أنطوانيت » . . فاتجهت نحوهما ، ووقعت عينى فى عين السيدة الصغيرة ، الجميلة اللطيفة ، فملأت البسمة وجهها : .

ثم خرجت ربة البيت ، وأغلقت الباب علينا ، وهى تتمنى لنا وقتـًا سعيداً هنيئاً ، فقالت « بوليت » فى همس : ما تقول فى هذه المفاجأة ، أيها العزيز ؟ !

ـــ مفاجأة ؟ ! . . ما أشهاها ! . . كم تمنيت هذه الساعة

يا « بوليت » . : منذ التقيت بك فى « سركل السفراء » نادتنى عيناك ، ولبى قلبى النداء !

ونعمنا معاً بالأحضان والقبلات والنشوة الكبرى . . . .

ومع اشتهائى « بوليت »، ورغبتى الشديدة فيها ، كنت أراها دون الحبيبة « مادلين » ؛ فقد كانت « مادلين » تفوق « بوليت » فى صباحة الوجه وأناقة الملبس ، وائتلاق الزينة ورخامة الصوت ، وخفة الدم ، والحديث المهذب ، المنعش المشبع ! كانت ملكة جمال وكمال ، وملكة رقة وأناقة ، وملكة أنوثة ناعمة ومجتمع راق رفيع . .

وغادرت « بوليت » الحجرة، وطال غيابها ، فقلقت نفسى ، وداخلنى خوف ورهبة .: ثم عادت عروساً مجلوّة .. وبعد قليل أقبلت السيدة الصغيرة ، الجميلة اللطيفة، تدعونا إلى الغداء، وهى تتهادى فى تكسرها ودلالها . .

و « مارى أنطوانيت » أصغر سنًّا من « مادلين » ومن « بوليت » . . كانت شابة فارعة ، واسعة العينين ، سوداء الحاجبين ، وضاحة الجبين ، وجهها يشع سعادة ومرحًا ، وجسمها — فى كمال فتنته — دمية مثال بارع ! . . وتحدثت فخلبت لبى ، وجذبتنى إليها جذبًا قويًّا ، وبدا القلق واللّهفة على وجهى ، فنظرت إلىّ فى إشفاق نطقت به عيناها الزرقاوان . كانت تتكلم فى لغة عالية ، وصوت مطمئنّ يتناهى رقة وعذوبة كأنها بلبل يشدو . :

ومضت فترة من أحلى ساعات العمر !

ثم ودعنا « مارى أنطوانيت » ، وقد تبلج لى نور جديد ! !

وعادت بى « بوليت » إلى الفندق ، على أن نلتقى فى أول الليل . :

وفى ملهى « الكوليزيه » سهرنا إلى الهزيع الأخير من الليل، نأكل ونشرب ونلهو ونرقص ، حتى خارت قوانا ، وبحت حناجرنا ، وفترت جفوننا . .

وأوصلونى إلى الفندق سكران ، لا أكاد أعى . .

وضغطت « بوليت » على يدى ، وهى تودعنى وتقول : لقد أفرطت فى الشراب والرقص حتى تعبت . . فلتنم إلى الظهر ، كى تستعيد نشاطك . . لكنى لم أنم ، وإنما ارتميت على الفراش متعباً مكدوداً ، أحس ألماً شديداً فى أحشائى ، حرمنى الراحة والنوم ، فلم يغتمض لى جفن حتى هبت نسمات الصباح .

وزادت آلامى شدة وحدة ، ولم يخفف منها ماتناولت من مسكنات ؛ ورأيتنى غير قادر على النهوض من الفراش ، وشعرت بالحمى تلهب رأسى ، وتتمشى فى مفاصلى ، وأحسست جسمى كله يرتعد ، وأسنانى تقضقض ، كأننى نائم بلا غطاء على فراش من جليد . . واشتدت سخونتى حتى خيل إلى أن رأسى سينفجر ، وثقلت أجفانى حتى ما أكاد أستطيع أن أفتح عينى ، فطلبت أن يدعوا لى طبيباً ، وأن ينبئوا « مدام جوبير » بمرضى ، ويطلبوا منها الحضور ، لتتولى أمرى . .

أقبل الطبيب فى دقائق ، وأقبلت « بوليت » وفى رفقتها طبيب ثان . . وقر رأى الطبيبين على ضرورة نقلى إلى المستشفى ، للكشف بالأشعة وإجراء التحاليل . .

وتقلبت على ذاكرتى خيالات عن المستشفى ، وأوهام ، ما رأيت شيئاً منها ثبت أمام الشهادة إلا كما تثبت الأحلام على نور النهار !

كنت أظن أنى سأرى مستشفى كأحسن مستشفيات القاهرة ، وأنى سأموت فيه . . فإذا ما لاقيت معجب أنيق ، فاق ما رسمت له فى خلدى ، وما ارتضاه تأميلى . . وأين صورة خطتها ريشتك فى خطوط تتعرج فى فؤادك وتستقيم ، من صورة ليس بها وشيجة من حس ، وصلة من عطف ، وإن عقمت عن أمثالها الألوان !

. . طود راسخ . . ولكن أين من جلال الأطواد كآبة الكهوف ووحشة

المغاور؟! :.

يبعد الجبل بُعد الغايات والأهواء، ويتسع كما تتسع العظمة، والحرية، والمجد، والحب؛ ويُخاف كما يخاف المجهول فى الحياة، على حب وإغراء.. أما المستشفى – على قربه – فيبعد كما تبعد الأحزان والآلام، ويتسع كما يتسع الليل يجثم على كل معالم الأرض، فيكتم أنفاسها جميعاً، ويُخاف كما يُخاف المجهول على كره وإشفاق، لأنها جهالة الموت وانقطاع أسباب الحياة!

أجنحة تطول وتقصر، وتتساوى وتتفاضل؛ تضيق حجراتها لغرض، وتتسع لغرض، ولكل وجهة.. ولكن أين من أجنحة الطائر تهم به إلى حب فى درب، أو إلف فى شعب، أو فرخ فى وكر – أجنحة الصخر الصلد، جثمت كالمقابر ؟!.: ولم لا، وهى لها المهاد، ومنها الجلاد ؟.!

وما ظنك بصروح أقيمت ليسرح عنها الناس، لا ليقيم فيها الناس ؟! فكل نزل لقرار إلا أنت أيتها المشافى، فالقرار عنك لا فيك، والسكون دونك لا منك!

تتطلع إليك من بين المماشى والردهات والدهاليز وأسرّة المرضى وضماداتهم وآهاتهم – عيون المرض، فتغض طرفك أن يقع عليها رهبًا لا حياء، ولكنها تظل تلاحقك، تريد أن تتخطفك كجنيات البحار تقوم على جميع الموارد فى ضباب الفجر!

* * *

قضيت فى المستشفى أسبوعين :. وكم وددت او طالت إقامتى، كيلا أحرم حنان «ملائكة الرحمة» اللائى كن معى كرامًا بررة، لا يبخلن بالنظرة الحلوة، والبسمة الماتعة، والغمزة العابرة، والقبلة المختلسة :.

نعم؛ لقد أحببت المرض، وتمنيت لو طالت أيامى فى المستشفى

لئلا أحرم قرب « بوليت » و « ماري أنطوانيت » ، وحنانهما ولهفتهما ، وكيلا أحرم زيارة الجميلات اللائى أحطننى برعايتهن ، وبذلن لى من ودّهن وبرّهن ما حبب إلىّ السقم ،ورغبنى فى سجن المستشفى ، بين الورود والأزهار ، والملائكة الأبرار !

وقبيل مغادرتى المستشفى ، فاجأتنى « ماري أنطوانيت » بزيارة مبكرة ، وقضت معى ساعة ما كان أطيبها ! دار فيها الحديث شهيًّا عذبًا ، يتشح بالوداد ، ويرشح بالحنان . .

ولمحت « أنطوانيت » على المنضدة « كشف حساب » المستشفى ، فتناولته وتطلعت فيه ، ثم نهضت ، فغابت برهة ، وعادت تقول : فكرت أنك قد تكون غير مستعد الآن ، فدفعت — نيابة عنك — نفقات العلاج . . ما لك ؟! . . لماذا تنفعل هكذا؟ ! سآخذ ما دفعت بعد أن تعود إلى فندقك !

— هذا لا يكون ، يا سيدتى العزيزة . . حسبى ما غمرتنى به من رقة وحنان ، وطيب ملاينة . . إن معى لألوفاً من الفرنكات ، ورصيدى فى المصرف وفير . . فشكراً لك يا سيدتى . . إليك ما دفعت . . أرجوك . . ألف شكر !

— لن آخذ شيئاً حتى تزورنى فى بيتى . . ليتك تقضى فى ضيافتى أيام النقاهة ، فتتمتع بالهواء النقى ، والطبيعة الساحرة ، بعيداً عن ضوضاء باريس ، وما يخنق جوها من غاز وبخار . . إن بعض الأسر الصديقة تقضى عندى عطلة نهاية الأسبوع . . فهل تأتى ؟

— سيدتى !

— ألا تود أن ترانى ؟ !

— سيدتى !

وانحنيت أقبل يد السيدة الصغيرة ، الجميلة اللطيفة ، وأمر بيدى على

ساعدها ، وهى راضية مبتهجة ؛ وقلت : سيدتى ؛ إنى لأتمنى رؤيتك، وأشتهيها كل لحظة . . كم أفكر فيك يا « أنطوانيت»! . . كم أشتهى أن نكون أصدقاء!

ـ ياصديقى العزيز ، إننا أصدقاء . . فلا تظن رعاية الغريب الوحيد فضيلة مقصورة على الشرقيين وحدهم!

ـ من قال هذا يا سيدتى ؟! . . إنى لأحس بينكم أننى أحسن حالاً مما كنت بين أهلى ومواطنى . . وإنى ـ ويعلم الله ـ لعاجز عن التعبير عما يزحم صدرى من عواطف الود والحمد والتقدير ، والاعتراف بالجميل :

ـ إذاً . . لا تستثقل زيارتى ، وقضاء أيام فى مزرعتى . . إن زوجى شاب لطيف ممراح ، ولست أشك فى أنه يفرح لرؤيتك ، ويستريح إلى مودتك . . إليك رقم تليفونى . . سأتركك ، وأنا أنتظر أن ترد على زيارتى . . إلى اللقاء أيها الصديق العزيز.

ـ إلى اللقاء ، ياسيدتى العزيزة . . مع أطيب تمنياتى ، وأحر عواطفى .

وهطلت على يدها دمعة كانت معلقة بين أهدابى .

٣٩

وعند « أنطوانيت » لقيت ما أشتهى من لذات الحس والعقل والروح جميعًا!

ولئن كنت قد فتنت بسحر « أنطوانيت » ، وانصرفتُ إليها ، إنى ـ فى الوقت نفسه ـ لم أنصرف عن « بوليت » ، ولا انقطعت عن زيارتها ، ولا تخلفت يومًا عن دعوتها ؛ فقد كان من الفطنة أن

أحتفظ بصداقتها ، وأن أستكثر من مثيلاتها ذوات الجاه والخطر ، وأن أحرص على استدامة الود بيني وبينهن ، فهن السند القوى لمن كان مثلى غريبًا وحيداً : .

ثم عرضت علىَّ « مارى أنطوانيت » أن تختار لنا « عش غرام » ، نتعاطى فيه كئوس الهوى مترعة ، بعيداً عن أعين الخدم وألسنتهم الطوال : .

واستأجرنا حجرة أنيقة فى « رامبويليه » ، تولت الحبيبة دفع أجرها سلفًا عن أشهر ستة : .

ويومًا قضينا فى « عش الغرام » ساعات هانئة أنستنا كل شيء ، وجعلت « مارى أنطوانيت » — وهى تعود بى إلى الفندق — تقود السيارة فى طريق غير الطريق الذى تعودت السير فيه ؛ إذ وجدنا أنفسنا فجأة فى ميدان واسع ، به أنقاض بالية ، قد قام بينها عمود من « البرنز » ، يتوجه تمثال الحرية ، ممسكًا فى إحدى يديه بشعلة النجاح ، وفى اليد الأخرى يمسك بسلاسل الاستعباد محطمة . .

انفجرت « أنطوانيت » ضاحكة تقهقه وقالت : أتدرى أى ميدان هذا ؟ أتعرف كم بينه وبين فندق « كلاريدج » ؟ !

— من يدرينى ، وأنا الغريب ، الحديث العهد بالحياة هنا ؟!

— ماذا جرى ؟ ! كيف تهت وضللت الطريق ؟! : : يا لى من بلهاء ، أوعاشقة ! : . هذا يا حبيبى ميدان« الباستيل » ! : : أنت تعرف « الباستيل » ، ولا شك :

— كل من درس تاريخ الثورة الفرنسية يعرف « الباستيل » . . يعرفه سجناً فظيعاً ، ذاق فيه العلماء أشد العذاب ، وقاسى وراء أسواره رجال الفضل ألوان الأهوال ، وهُدم حين قامت الثورة الفرنسية . .

— صواب كل ما قلتَ ، يا صديقى الحبيب : :

ـ أتعرفين ؟ ! . . إن من حسن الحظ أنك تهت ، وجئت بي إلى هنا . . فقِفِي بنا لحظة : . لقد كنت أحب أن أزور آثار هذا السجن الرهيب : :

وقفت « أنطوانيت » السيارة ، وسرنا نحو تمثال الحرية فقالت : كان هنا أفظع سجون العالم !

ـ ألا حدثتني ، أيتها الحبيبة ، عن تاريخه ، وسبب شهرته الخالدة ؟.

ـ كلمة « باستيل » كانت في أوربا ، زمنَ العصور الوسطى ، اسماً لمبان ضخمة ، أعدت لسجن « المجرمين » السياسيين . : وكانت فرنسا ـ كسائر دول أوربا أيامئذ ـ تضم عدداً من هذه « البساتيل » : موزعة على مدن كثيرة . .

ـ لكن المرء لا يكاد يذكر « الباستيل » حتى ينصرف الذهن إلى « باستيل باريس » : .

ـ نعم ؛ فهذه الكلمة أصبحت علماً عليه ، نظراً للأحداث الهائلة الفظيعة التي جرت بسببه . :

ـ ومن ذا الذي بنى هذا السجن ؟ !

ـ إنه لم يبن سجنا ، وإنما بنى حصناً . . ويرقى إنشاء هذا الحصن إلى القرن الرابعَ عشرَ : : في عهد ملك فرنسا « شارل الخامس » ؛ فقد كان هذا الملك يرى نفسه مهدداً بثورة الشعب ، وظن أن قصر « سان بول » لا يكفي لحمايته ، فأمر ببناء « الباستيل » . : ولما تولى الملك « شارل السادس » في أواخر القرن الرابع عشر ، زاد في أبراج الحصن حتى صارت ثمانية ، يتصل بعضها ببعض بأبنية بلغت الغاية في الضخامة والصلابة ، إذ كان سمك الحائط يبلغ ثلاثة أمتار : : ثم أحاط الحصن بخندق جاوز اتساعه ٢٥ متراً ، وعمقه ٥ أمتار : : وبذلك أضحى

« باستيل باريس » أمنع حصون العالم أيامئذ . .

ـ وأضحى أيضاً علماً على الحكم المطلق ، ورمزاً للاستبداد الشنيع ؛ فكم فيلسوف عظيم هلك فى بؤره الرطبة ! وكم مصلح كبير تلاشى وراء جدرانه ! وكم سياسى خطير قتل فى كهوفه وسراديبه !

ـ هو ذاك ، أيها العزيز . . ومن هنا تركزت فى نفوس أجدادنا كراهة « الباستيل » ، وعدُّوه مستقر العسف والظلم ، ومهبط القسوة والغشم ، فما كادوا يثورون على حكومتهم ، سنة ١٧٨٩ ، حتى كان « الباستيل » أول أهدافهم ، فهدموه هدماً ، واقتلعوا أصوله اقتلاعاً .

ـ قرأت مرة أن جداتكن حلّين صدورهن بحصاه ، بدل لآلئ العقود . .

ـ نعم ؛ فقد كان هدم « الباستيل » بدء عهد : الحرية ، والإخاء ، والمساواة . .

ذكرت حينئذ الحبيبات « جوزفين » ، و« مادلين » ، و « بوليت » وعجبت ! . . أكل نساء فرنسا على هذا المستوى العالى من الثقافة التى تلم بكل شيء ، وتفلسف أحداث الحياة ؟ !

وذكرت « أليس » . . لقد زرت برفقتها دورَ الآثار المصرية والقبطية والعربية ، ومعالم القاهرة ، وآثار الأقصر ، فلم أستطع أنا ، ولا أحد من المرشدين السياحيين المتخصصين ، أن نتحدث عن معالم بلادنا وآثارها ، كما كانت تتحدث إلىّ « جوزفين » و« مادلين » و« ماري أنطوانيت » ، وغيرهن ممن عرفت من نساء فرنسا ، يمثلن مختلف البيئات والثقافات والطبقات . .

حقـًّا ، إن فرنسا أم الثقافة الرءوم !

* * *

كانت كل ساعة تمر بى ترفع من قدر « ماري أنطوانيت » فى نفسى ،

وتشدني إليها شدًّا قويًّا . : وزاد معروفها عندي عظماً أن أعمالها كلها كانت تفور من نبع خفي مصدره حب حقيقي . .

واعتزمت أن أتوب ، وأن أقنع من باريس بصداقة هذه العاشقة المعشوقة التي احتلت قلبي ، واستبدت به . : لكن أية توبة هذه؟ إنها لتوبة زائفة تسخر منها الملائكة ، وتطرب لها الشياطين ، وتضج في الضحك ! فإن القدر الجبار قد استكثر عليّ أن أتمتع طويلا بهذه الجنة الراضية ، فحرمنيها . .

ثلاثة أشهر عشتها في هذه الجنة ، ثم أهبطت منها إلى أرض الحقيقة ، ودنيا البحث عن حب جديد ، يروي ظمأ القلب ؛ فقد فارقتني «ماري أنطوانيت» وسافرت في رفقة زوجها إلى إيطاليا ، ومنها إلى غيرها من بلاد الله ، ولن تعود قبل شهرين ونصف شهر : :

بروحي تلك الشمائل الحسان ، والفواتن اللدان ، والشباب الريان !

٤٠

جئت إلى باريس وأنا أشد ما أكون حماسة للإقبال على الحياة ، والرغبة فيها : .وقد أعجبت غاية الإعجاب بهذه العاصمة العظيمة ، بشوارعها وميادينها ، بمتاحفها وحدائقها ، بقصورها وصروحها ، بنسائها الجميلات ، وغوانيها الفاتنات . . وأعجبت بما يغمرها من حيوية ونشاط ، وبما تمثله من مدنية وحضارة ، وبما يملؤها من ألحان رائعة ، تخف عليها أجساد الصبايا ، وترقص قلوبهن في كل مكان ! : . لكني — وسط هذه الجنة التي يشتهيها الكثيرون — كنت أعيش في جحيم داخلي ، يأكل نفسي أكلاً ، ويقف بي دائماً على التخوم ، بحيث لا أرى أين تقوم الحدود بين الحقائق والظلال !

ولقد حاولت غير مرة أن أقهر نفسى ، وأخضع قلبى للأمر الواقع ، فأخفقت . .

وما إن فارقتنى « مارى أنطوانيت » وسافرت ، حتى أحسست الفراغ يحيط بى ، ويغمرنى ؛ وكلما مر يوم تضاعف إحساسى به . . صار قلبى خاوياً فى حاجة إلى من يملؤه ويوقد فيه الحرارة ، فانطلقت انطلاق الطبيعة الحرة التى ترسل الريح أنّى تشاء ، وتفجر الينابيع من صم الصخر حين تروم ، ومن رخيّ التراب ساعة تريد ، وتجريها هادئة فى السهل ، أو تقذف بها من أعالى الجبال ! . . انطلقت انطلاق الطبيعة الحرة التى لا تفرق بين فوضى وانسجام ، ولا تتقيد بجهل أو علم ، ولا تبالى أسخط الناس عليها أم رضوا ! ! . . فالجبال بجانب الأودية ؛ والأشجار تجاور الصخور ، والزنابق تنبت بين الأشواك ، وحشرة صغيرة تطل من جحرها على ثور ضخم !

كذلك كنت ، وكذلك عشت ، وكذلك أكببت على اللهو ، وانغمست فى اللذات ، أنهب المتعة نهباً ، كأنما أسابق إليها الحياة . . ومن سابق الدهر عثر !

لم أعد أرى الحياة ، كل الحياة ، إلا الاستمتاع باللذات الثلاث مجتمعة : المرأة ، والخمر ، والموسيقى . . وقد تيسر لى ذلك كل اليسر فى باريس ، فأتيت المعيشة من بابها !

كم من نساء عرفت ! وكم من أحضان دافئة تقلبت فيها . . زوجات عاشقات ، وعذارى غافلات ، وغانيات عازفات ، وفاتنات مغردات ، وساقيات مرويات ، وراقصات مائسات ، تضوّى بهن حانات باريس وملاهيها ، من كل جنس ، وكل طبقة ، وكل لون ، وكل لسان ! . . كم أبكتنى خفقات قلبى ! وكم أطلقت الضحكات من أعماق روحى ! والقدر يقف لى بالمرصاد ؛ فكلما أخذت أنثى تلتصق بنفسى ،

ويغزو حبها خلايا قلبي ، فرّق بيني وبينها . : فرق بيني وبين « نعيمة » و« مرجريت » في مصر ؛ وفرق بيني وبين « جوزفين » المرسيلية ، و « مادلين » الليونية ، و« مارى أنطوانيت » الباريسية . . وفرق بيني وبين كل من احتلت ركناً في قلبي ، أو سكنت زاوية من زواياه !

وسئمت . . ويئست . . وبدت مباهج الحياة حولي ناصلة كابية ، فاستيقظت في قلبي ذكرى الحسناء « أليس » وألحت نفسي في الحنين إليها . .

ذهبت إلى ضاحية « فونتنبلو » ، وتوجهت إلى قصر « دى لومليه » ، فإذا أنا أصدم بأن « أليس » تقضي إجازتها في « دوفيل » ، وأنها لن تعود إلا بعد أسابيع ثلاثة . .

ياللقدر العنيد ! . . كيف يمكن أن أحيا ثلاثة أسابيع تلك الحياة التافهة التي لا غاية لها ، ولا هدف وراءها . . فعدت أتخبط في طريقى . . أصطاد من تثير مشاعرى ، وتهز قلبي ، وإن عجزت عن أن تملأ فراغه !

ويوماً اصطدت الإسبانية الحسناء « ماجى » ، وقضيت معها النهار كله في « عش الغرام » الذى كانت « مارى أنطوانيت » قد استأجرته لحبنا في « رامبوييليه » . .

كانت « ماجى » دمية جميلة ، ووجبة دسمة ، فقررت أن أقضي جزءاً من السهرة في خمارة الفندق ، ثم آوى إلى فراشي ومنتصف الليل ، لأجدد نشاطى ، وأستعيد قواى . .

وأمام « البار » رأيت « فيكتوريا » تجلس ، وهى لا تنفك تجرع الكأس تلو الكأس . .

إنها امرأة نَصَف ، جاوزت العقد الثالث ، أو كادت . : تعبّ الخمر في نهم ، وكأنها لا تطيق أن ترى كأسها فارغة ، ولا تطيق أن

تراها ملأى ! . . وكنت جالساً عن يمينها ، أعجب لنهمها فى الشراب ، وأستمع إلى نقاشها مع الساقى . .وسمعتها تتحدث عن مصر ، فاهتبلتها فرصة ، وسألتها : هل زارت سيدتى مصر ؟

— زرت مصر ؟ ! . . لقد عشت فيها خمس سنوات كاملة . . أنت مصرى ، لا شك !

— نعم، إنى مصرى . .

— ما أجمل مصر ! ما أطيب أهلها ! ما أشهى الحياة فيها ! . . لقد كان زوجى من كبار رجال « السفارة البريطانية » هناك . .

وقرّب ما بيننا الحديث عن مصر ؛ ودعتنى إلى تناول الشاى معها فى أصيل الغد ، لأنها تحب مصر ، وتحب أن تسمع أخبارها ، وتلم بتطورات الحياة فيها . .

وفى أثناء تناول الشاى قالت « فيكتوريا » إنها ستسافر بعد ثلاثة أيام إلى « دوڤيل » لتقضى هناك أسبوعاً . : ودون أن أعى قلت : أسافر معك . . فإنى أريد أن أرى « دوڤيل » ، لكنى استثقلت السفر وحيداً . .

— يسرنى كثيراً أن ترافقنى فى هذا السفر . .

* * *

« دوڤيل » : . إنها مسرح الحب والغرام : بين الخمائل العطرة ، والأشجار الباسقة ، والجداول الرقراقة ، والبيوت الصغيرة التى تحيط بها الأزهار والثمار ، فتبدو أجمل من القصور !

كل ما حولى ساحر فتان : . والناس هنا من كل جنس ولون وسن ، والصبايا يختلن بأجسامهن البلورية ، لا يسترن منها إلا كنوزهن ، بما يشبه ورقة التوت التى استترت بها أمنا « حواء » !

وجوه وأجسام تعبت الطبيعة المبدعة فى تكوينها ، فأتقنت فيها كل

شيء ، وأدفقته وأجلته ، فكانت نشوة الحس ، وعربدة الخيال !

هذه شقراء ذات قد ممشوق ، وعينين زرقاوين ، وشفتين أرجوانيتين، تلبس « بنطلوناً » أحمر قصيراً . . وهذه سمراء ذات ساق رقيقة ، « بنطلونها » أزرق يظهر كل الخفايا . . وهذه ربة الجمال ، بعنقها المتطاول ، ونظراتها الساكنة . . وهذه دمية متقنة الصنع ، تمشي خفيفة في خطوات متسقة ، وقد تركت مفاتنها نهباً للعيون !

هذه تخالط فتى جميلا ، وتلك تكاد تخلط أنفاسها بأنفاس رفيقها ، وهاتيك تميل على صدر صديقها ، تستمع إلى مناجاته !

هنا — في « دوفيل » — يسترسل العشاق إلى الحب ، تحت زرقة السماء ، وبين خرير الماء ، وعطر الأزهار ، وفي ظل الأشجار ، وعلى مرأى الغيوم والعصافير : والنسيم العليل يداعب شعورهم ، ويضاعف نشوتهم وبهجتهم : :

جعلت أطوف أتصفح الوجوه باحثاً عن « أليس » ، وإلى جواري « فيكتوريا » ، تحصي على حركاتي ونظراتي ، وتحيطني بسياج سميك من رقابتها ، وتثور نفسها غيرة وحقداً ، كلما حملقت في أنثى ، أو أظهرت بها إعجاباً ، وتقول : هل تجد عندها شيئاً غير الذي عندي ؟ !

يالمغبية ! : . ما أجهلها بالحب ! . . إنها تظن الحب متعة جسد وكفى ، وتحسب أجساد النساء متشابهة : وتخال جسداً واحداً يغني عنها كلها ! فأين — إذاً — متعة النفس ، ومتعة القلب ؟ !

و« فيكتوريا » — فوق نهمها الجنسي — تقيد حريتي ، وأنا لا أطيق أن تقيد حريتي امرأة ، مهما تجمع من صفات الجمال والكمال : . فما كان أسرع ما اختلفنا ! . . وتركتها في « دوفيل » تبكي وتعول ، وعدت وحدي إلى باريس . .

ومرت الأيام ، و« عش الغرام » في « رامبوبليه » يستقبل كل يوم

امرأة غير التى استقبلها فى الأمس . .

وقد أدهشنى أن ليس الباريسيات جميعهن بيضاً ، فقد اصطدت مراراً ، مراً يكسوهن اللون القمحى فى خفة ورشاقة . .

٤١

فى صباح صافٍ ضاحك اتخذت لى مجلساً فى حديقة « البلفدير » ، وقد مدت باريس ذراعيها لاحتضان النور ، وفتحت قلبها لارتشاف الشعاع البهى ؛ وغرق حسى فى ماضىّ القريب ، وزاغَ بصرى فى الأفق البعيد ؛ وذكرت « أليس » ، وتمشى فى كيانى شوق جديد إليها . :

إن الرسائل بينى وبينها لم تنقطع طوال السنوات الأربع التى قضيتها فى وطنى بعد سفرها ، فكنت أناجيها بما يضطرم فى جوانحى ، وتطالعنى به أيامى ، وأحدثها عن كل جديد يلقانى ، وأشكو إليها فراغ القلب القاتل ، والوحشة المرة التى كنت أتوه فيها . . وكانت هى تناجينى بالود والحب ، وتحدثنى عن محيطها ، ولا تنفك تغرينى بالسفر إليها ، وتحثنى على اللحاق بها . .

وقد كتبت فى آخر رسالة تسلمتها قبل سفرى تقول : « إنى ما زلت أنتظرك ، يا "عبد الرحمن" وما زلت آمل أن ألقاك فى باريس . . ولو لم ينقل شقيقى "جاك" من مصر لجئت إليك . : »

وخالجنى شعور بأن قلبى لا يزال يعلقها كأول عهدى بحبها . . وزهّدنى طيفها فى النساء ، فعشت أياماً بلا حب ، أليف الهم والأسى ، تصطرع فى فؤادى عوامل الأشجان ، وقد عز علىّ أن أزور فرنسا ولا أراها ، فكتبت إليها أنبئها أنى فى باريس ، وأنى قد سعيت إلى

قصر « دى لومليه » فعلمت أنها فى « دوفيل » . . وقلت فى رسالتى :
« . . سافرت وراءك إلى " دوفيل " كما سافرت وراءك ، منذ أربع سنوات ، من القاهرة إلى الأقصر ، لكن الحظ لم يسعدنى برؤيتك . .
فإن تسلمت رسالتى هذه فى خلال عشرة أيام ، فإنى لأرجو من أعماق قلبى أن أراك ، قبل أن أغادر باريس . . وإلا فالوداع يا " أليس " . .
يا حلم صباى ، وخيال شبابى ، وأمل غدى ! ! »

ومرت أربعة أيام كئيبة ، كأنها أربع سنوات . . وفى ضحى اليوم الخامس صحوت على رنين « التليفون » ، فعلمت أنها هى . . فقد سبق أن نبهت ألا يدقوا « التليفون » ، وألا يقلقوا راحتى إلا إذا كانت المتحدثة هى « الآنسة دى لومليه » . .

ما إن سمعت صوتها العذب الحنون حتى شفيت من أدوائى ، واستراحت روحى ، وهدأت ثائرة نفسى ، واطمأن قلبى ، وانشرح صدرى ، وعادت باريس فى عينى مرابع سحر وفتنة !

وسألت نفسى : ماذا يدفعنى نحو هذه الفاتنة ؟ ! . . منذ أربع سنوات اضطربت لرؤيتها ، والآن أضطرب لسماع صوتها . . أضطرب اضطراب البهجة والانشراح ، واضطراب القلق والخوف معاً . ما الذى يتجاوب بين نفسينا ، ويجذب روحينا ؟ !

إنى لأحس أنها تكشف لى فى كمال صاف عن احتمال سعادة وافية صافية !

* * *

بدت « أليس » فى جاذبية فاتنة تفوق مائة مرة ما أذكره عنها . .

رأيتها وقد تم نضجها ، واكتملت أنوثتها ، ولمع فى عينيها بريق الوفاء والإخلاص ، ونطقت قسماتها وملامحها بحرصها على العهد ، وتمسكها بالمودة والألفة التى سبق أن جمعت بيننا ، منذ أربع سنوات

فى القاهرة وفى الأقصر .

لقد تخرجت – منذ عامين – فى كلية الطب ، وعملت طبيبة للأطفال فى أحد مستشفيات باريس ، وأخذت مكانها اللائق بها وبأسرتها ذات المجد التليد والطريف ، وصارت زهرة من زهرات المجتمع الراقى ، وريحانة من أبهى رياحينه . .

ودعتنى « أليس » إلى أن أترك الفندق ، وأنزل ضيفاً عليها ، وعلى أبويها ، قائلة : القصر كبير ، وحجراته كثيرة لا نكاد نجد من يعمرها ، وينشر فيها الحياة .

أبيت وشكرت واعتذرت . . لكن « أليس » ألحت وألحفت وأصرت ، واضطرتنى إلى أن أنزل عند رغبتها ، وأحل فى قصر « دى لومليه » ضيفاً عزيزاً كريمًا . .

راعنى ما رأيت فى القصر من مظاهر الترف والثراء ، وألوان الرفه والنعيم ؛ وسرنى ذلك الاستقبال الطيب الذى استقبلنى به السيد « بيير دى لومليه » والسيدة الفاضلة قرينته ، وما لقيت منهما من ضروب الرعاية والبر التى ذكرتنى بمظاهر الكرم العربى ، وقواعد الضيافة الشرقية . .

وأحاطتنى « أليس » بحبها الدافق ، وحنانها الفائق ، وغمرتنى بنداوة نفسها ، وعطفها على رغائبى ؛ وقدمت إلى رسائلها التى أعيدت إليها ، وهى لا تنفك تكرر عتبها ولومها ، لأنى جئت إلى فرنسا منذ أشهر ، ولم أخبرها ، أو أتصل بها . وإذا كانت قد رفضت كل ما قدمت من أعذار ، فإنها قد غفرت لى ذنبى ، وجعلت تقضى معى شطراً من النهار وهويًّا من الليل . .

و « أليس » فتاة غير عادية المظهر والنضج والتفكير . . وهى – فوق هذا وذاك – جمة الحياء ، شديدة التوقى ؛ فى حديثها عذوبة وطلاوة ، وفى شخصيتها جاذبية وقوة . . وقد اعترف لها الجميع بالتفوق والامتياز ،

وسماحة الطبع ، وندرة العفاف ، . . : نعم ؛ فإنها — مع النشأة المنعمة التي نشئت عليها ، وعلى ما كانت تتمتع به من حرية كاملة فى كل ما تأتى وما تذر — قد نجت من شرور الحرية والانحلال التي وقعت فيها الفتيات فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وهذا — على ما رأيت وخبرت — أمر نادر فى فتيات باريس ، فأكثرهن فقدن زهراتهن ، وصرن ذوات عشاق ، وأقبلن — كما أقبل الشبان جميعاً — على اللهو المباح وغير المباح ، بعد أن رأوا الحضارة ومقوماتها يقضى عليها فى دقائق معدودات ، والموت يحصد الناس حصداً ، وما تعبت البشرية فى بنائه وتشييده ينهار فى ثوان قليلة بأسلحة الدمار والفناء !

وماذا نريد من الناس خارجين من أفظع مجزرة بشرية شهدها التاريخ ، بعد أن ظلت ست سنوات تباعاً تحصد الألوف والملايين ، وهم فى زهرة شبابهم ، وريعان فتوتهم ؟ !

ما قيمة الدين والعقل والحكمة ، والمثل العليا والقيم الأخلاقية فى نظر الإنسانية البائسة المعذبة ؟ ولماذا تقتصد ، وتنهل من الحياة على مهل ، ما دامت رأت ما تصير إليه ؟ . . : وهل يحيا الفتيات والفتيان حتى يستمتعوا بشبابهم وفتوتهم وقوتهم ، أو يمسون كما أمسى الملايين : تدوسهم الدبابات ، وتنثر أشلاءهم القنابل ، وتهدم عليهم منازلهم ، وتخرب مصانعهم ومتاجرهم ؟ !

عفاء على الروح والحكمة ، وعلى العقل والدين والأخلاق ! . . ومن هنا ترامى الناس على اللذات والشهوات والمسرات ينالون منها أكبر حظ فى أقصر وقت ، وتهافتوا عليها ؛ فقد لا يتيح لهم الغد فرصة الحلال الطيب ؛ فما الغد فى نظرهم إلا البؤس والمرض والفقر والعاهة والموت الزؤام !

* * *

فى الصباح كانت « أليس » تصحبنى فى سيارتها من « فونتنبلو »

إلى قلب باريس ، وتركني حراً أذهب حيث أشاء ، على أن نلتقي — بعد منصرفها من المستشفى — في مكان نتفق عليه قبل أن نفترق . . فيوماً كنا نعود إلى « فونتنبلو » ، ويوماً كنا نلبي دعوة بعض أقاربها وأصدقائها ، ويوماً كان الحنين إلى المناجاة في خلوة يستبد بنا ، ويلح علينا فنتغدى وحدنا ، حيث يطيب لنا ، ثم ننطلق نطوف في الشوارع والأحياء المختلفة ، ونخرج من حفل إلى ندوة ، ومن ملهى إلى مسرح ، ومن زيارة إلى سينما أو مرقص ، ونحن نحلق في سماوات الآمال المشرقة ، والأحلام الزاهية . .

لله تلك الأيام الغر ! ما كان أنضر نعيمهن ، وأبهى رواءهن ! كنت فيها سعيداً بحب « أليس » ، أحس حنانها ، وآنس بمباهج طلعتها ، وعذب حديثها ، وأستنشق عرفها ، وأشعر بأنفاسها تتماوج في وجهي وعنقي : . وكنت — وهي إلى جانبي — لا أحس مر الزمن ، ولا أدرك المرئيات إدراكاً حقيقياً ، فكل ما تقع عليه عيناي حسن بهيج ، وكل ما يحيط بي جميل محبوب ، فإن غابت عني خلت حياتي من البهجة ، وبدا كل شيء مشوهاً بغيضاً !

وقد استطاعت « أليس » — بمفاتنها الجسدية والروحية والعقلية — أن تصرفني عن العبث والمجون ، وأن تثبت قلبي الذي شاء له القدر ألا يثبت على هوى ! وصار حبي إياها هو الحياة نفسها ، تتدفق هادئة هانئة ، وأصبح لحياتي هدف وغاية ؛ فأقلعت عن صيد الحسان ، وقل ترددي على الحجرة التي استأجرتها في « رامبوييه » الحبيبة الغائبة « ماري أنطوانيت » ؛ وإن كنت لم أستطع أن أنسى الحبيبة المرسيلية الفاتنة « جوزفين » ، أو أقطع عنها رسائلي ؛ وإن كنت أيضاً لم أستطع أن أتخلف عن دعوات الصديقات ذوات الجاه والخطر ، فكنت أزورهن في صدر النهار ؛ وأرى في استدامة الود بيني وبينهن سنداً

قوياً فى غربتى . .

ولقد زرت فى رفقة « أليس » معالم باريس ، تلك التى سبق أن زرتها فى رفقة « مادلين » و« بوليت » و« مارى أنطوانيت » وغيرهن ، لكن متعتى بزيارة هذه المعالم فى رفقتها هى أربت أضعافاً مضاعفة على متعتى بزيارتها فى صحبة الأخريات . وأكاد أجزم أنى — بفضل « أليس » — قد رأيت من معالم باريس ، وخبرت من أنماط الحياة بين طبقاتها ما لم يخبره زائر من قبل !

ترى أتتفتح لى الحياة عن أيام كأولئك الأيام يزحزحننى عن مواكب اليأس والخذلان ، أم تلك أحلام لا تطولها الأوهام ؟ ! . . إنها أحلام الشباب ، وأنت يا قلب شيخ ، وأنت يا قلب محطم طعين !

* * *

قضيت فى قصر « دى لومليه » عشرة أيام ضيفاً على « أليس » ووالديها الفاضلين الكريمين . وبدا حبنا واضحاً لمن فى القصر ، وللأقارب والأصدقاء ، ففى نظراتنا تلهف وحنين ، وفى حركاتنا حذر وتوجس ، وفى كلامنا تعثر وتعمية . .

ورأيت من الفطنة أن أعود إلى الفندق ، وحدثت « أليس » فى هذا ، فغضبت ورفضت ، وقالت : أنت هنا ضيفى ، والفندق باهظ النفقات ، وإنى أعد نفسى مسئولة عنك ، وعن مالك ، فى وطنى . .

— أقدر هذا قدره ، يا حبيبتى . . وأشكر لك هذه العواطف النبيلة ، وما حبوتنى من أنعم لا تحصى . . لكنى أرجو أن تسمحى لى أن أغادر هذه الجنة . . أرجوك . .

— هل ساءك شىء ؟ . . هل آذى شعورك أحد ؟ !

— يا حبيبتى ، يا مليكتى . . إنى أخرج من قصركم خروج أبينا الأول من الجنة !

— أبونا « آدم » عصى ربه ، فطرده من الجنة !

— اصنعى بى هذا الجميل، واسمحى لى أن أطرد نفسى من الجنة!

— إذا كنت مصرًّا على ترك القصر ، فعليك أن توافقنى على أن أختار لك شقة صغيرة مفروشة ، أو حجرة بين أسرة طيبة ، فى باريس أو فى فونتنبلو . . كما تشاء . .

— أفضل حجرة وسط أسرة طيبة، فقد لا أقيم طويلاً ، ولست أحب أن أشغل نفسى بأمر شقة ما ، مهما تكن صغيرة . .

— وأين تحب أن تقيم يا صديقى العزيز ؟

— أفضل الإقامة فى قلب باريس . .

— ليكن ما تريد ، ياحبيبى . . سأهيئ لك حجرة لا تكلفك الكثير ، فتتيح لك أن تبقى بيننا فترة أطول . .

— شكراً يا حبيبتى الغالية . . آه ، لو تعلمين ! . . لقد مرّت بى أيام ، قبل أن ألقاك ، كانت الحياة فى نظرى كالعدم . . ولولا أنى لم أقنط من رؤيتك لحطمت روحى ، ووضعت بيدى نهاية لآلامى، فقد كرهت الوحدة والغربة ، وسئمت الحياة على الصورة التافهة التى كنت أحياها . .

— صبراً يا « عبد الرحمن » . . صبراً ، صبراً . . سوف أجعل أيامك بهجة لا تخطر على بال . . لا تظننى لا أقدر حبنا قدره . . فما أزال أحفظ لك فى نفسى أجمل الذكرى . . ولقد انتظرتك طويلاً . . ستعيش معى هنا ، وسأهيئ لك عملا يرضيك . .

ملكتنى عند سماع هذه الكلمات عاطفة غريبة، وطار بى السرور إلى يدها فضغطتها فى رفق ، وقبلتها فى حرارة ، وقد احتبس الكلام فى حلقى ، وزحم الدمع مقلتىّ . .

٤٢

عرفت الكثيرين من أقارب « أليس » وأصدقائها وصديقاتها ، ومن الأسر ذوات الجاه والخطر، والمكانة السياسية والاجتماعية ؛ وكانت هي وأبواها الفاضلان يقدمونني كصديق من أصدقائها وصديق شقيقها « جاك » الذى عمل خمس سنوات بسفارة فرنسا فى القاهرة. وقد أتاحت لى هذه الصداقات أن أعيش الحياة الباريسية الأصيلة على حقيقتها، وأندمج فى أوساطها المختلفة ، وأعاشر طبقاتها المتباينة . .

ومن حق باريس أن يثير اسمها كثيراً من التناقض فى أذهان من لم يروها ؛ فهى عند بعضهم مهد العلوم ، ومجلى الفنون ، وعند بعضهم الآخر منبع الخلاعة ، ومباءة اللهو والمجون ، ولا عمل لمن فيها سوى انتهاب اللذات واقتناص الشهوات : . وكلا الفريقين يخلع عليها من خياله — فيما يذهب إليه — حلة فضفاضة ، وكلا الفريقين غير مغال فيما يظنه ، ولا مبالغ فيما يتصوره !

فباريس مدينة العلم والعمل ، والفن والجمال والحب ، والعظمة الرائعة فى كل مناحى الحياة . : اجتمع فيها كل ما يشخّص الحضارة الإنسانية فى عصرنا . . فيها الفرح والحزن، والابتهاج والبؤس، والرجاء واليأس ، والأمل والقنوط . . فيها ما يوائم كل ذوق ، ويلائم كل رغبة :

بلاد تروق العين والقلب بهجة
وتجمع ما يهوى تقىّ وفاسق

ومن الحق والعدل أن أقول إن الباريسى على خلق عظيم ، وإن معايبه ورذائله أقل خطراً من معايب الآخرين ورذائلهم ، وإنه يحافظ على عادات قومه ويحترم تقاليدهم ، ويفخر كثيراً بأصله وثقافته ، وإنه

إذا حدثك ملك عليك لبك وسحرك ، حتى كنت أتوهم الواحد منهم يحيك الحديث فى صدره ، قبل أن يلقيه فى لطف ورزانة وبشر وزلاقة ! . .

وحب الصدق من أظهر أخلاق الباريسى ، فهو يَصدُقك إذا حدثك ، ويُصدِّقك إذا حدثته ، ولا يميل إلى غش نفسه وغيره ، بل يحب دائمًا أن يواجه نفسه بحاله الحقيقية ، ولهذا كان سعيد الحال ، صادقًا فى فكره وقوله وفعله ، نشيطًا فى شىء من التهور والعنف . .

ووداعة الباريسى ، وكرم خلقه ، ولطفه وسخاؤه ، تتجلى كلها فى معاملته وسلوكه حيال الأجانب . . وهو — إلى جانب هذا — سريع النسيان ، قريب الغفران لآثام من يسيئون إليه ، إلا أعداءه السياسيين ، فإنه ينظر إليهم نظرة الحقد والكراهية . .

والباريسى يتميز من بين الأوربيين بدقة الفهم ، وحضور البديهة ، ورقة الحاشية ، ولطف المعاشرة ، وفرط الأدب . . كما يتميز بأنه أكثر الأوربيين ميلا إلى البهجة والسرور ، وأنه — كأهل القاهرة — ذو نكتة حاضرة !

وهو — فى ثقته الفائقة بنفسه — لاينسى اعتماده على الله فى تحقيق آماله العريضة ، وإنجاز مشروعاته التى لا حد لها ، والتى يحتمل فى سبيلها كل ما تواجهه به الحياة من المنغصات والآلام ، ويذلل كل ما يعترض طريقه من صعاب وعقاب ، فى صبر يوشك أن يكون عدم مبالاة ، لكنه — فى الواقع — صبر دفين ، يدفعه إليه حبه الحقيقة ، وأمله فى سنوح الفرصة التى لا يتركها تمر به سدى ، بل إنه ينتظرها ويهتبلها للتقدم ، وتحقيق الحياة الناجحة . .

وليس الباريسى نزّاعاً إلى اللهو ، مقبلا على العبث والمجون ، بالصورة التى يصفونه بها ، فهو لا يمضي حياته يلهو ويعبث ويمجن ، كما كنا

تسمع ونقرأ ، وإنما هو يلبس لكل حال لبوسها ، ويساير نظاماً لا يعدوه ، هو السعى فى راحة أسرته وإسعادها ، والعدل على رفعة وطنه وتقدمه ، ثم الترويح عن نفسه من بعد . . وهذا — من غير جدال — خير نظام يحتذيه إنسان !

والباريسى يقدس ساعات لهوه تقديسه ساعات عمله، لكنه لا ينسى — كما ننسى نحن الشرقيين — فى هذه الساعات كل شىء ، حتى أنفسنا ، فنطاوع غرائزنا ونتهور ، ونحمل رأس الطفل الصغير ! وإنما يرفّه عن نفسه فى حكمة بالغة ، ويلهو مع التفكير فى غده ، فلا يغلو فى لهوه ، ولا يسرف فى دعابته ومجونه . .

إذا كان هذا هو خلق الباريسى ، فمن أين — إذاً — اكتسبت باريس العظيمة هذا الصيت الذائع فى اللهو والمجون ؟ !

مرجع ذلك أن باريس مسرح دولى ، و « عصبة أمم » تضم فى أحشائها أجناساً مختلفة ، نزحوا إليها من جميع بلدان العالم ، واستوطنوها معجبين بمدنيتها ، ونعيمها المتجدد . . ولو علمنا أن فى باريس عشرات الألوف من أثرياء العالم وسراته ، وأن هؤلاء لا عمل لهم إلا اللهو والمجون ؛ ولو أضفنا إلى هذه الألوف مئات أخرى من الألوف يفدون إلى باريس فى مواسم الربيع والصيف من كل فج ، رجاء اللهو وحده ، ورغبة فى الترفيه حسب — لو قدرنا هذا لأدركنا كيف تجتذب هذه العاصمة الكبيرة طوائف الغوانى من كل صقع وواد . : فهؤلاء الأثرياء الأجانب ، وأولئك الغانيات الباحثات عن المال والحب ، هم الذين خلعوا على باريس هذه الصفات التى اشتهرت بها فى ميادين اللهو والمجون . . لكن الباريسى الأصيل قلما يخرق النظام الذى وضعه لحياته .

أمّا المرأةُ الباريسية فقد غيرت الحرب العالمية الثانية عقليتها وحياتها تغييراً محسوساً ؛ فبعد أن كانت مضرب المثل فى الأناقة والانصراف إلى اللهو ،

والإقبال على المجون ، أضحت تزاحم الرجل فى أعماله مزاحمة ظاهرة. ويكاد المرء يحكم– بدون أن يتهم بالمبالغة – أن النساء الباريسيات العاملات أكثر عدداً من الرجال ، فحيثما سرت وجدت المرأة ، وأينما تلفت وقع نظرك عليها .. فى المحال التجارية كبيرها وصغيرها ، وفى عربات الترام ، وسيارات الركوب ، وفى دُور الخيالة والمسارح والملاهى ، بل فى المصانع والمعامل ، وفى مصالح الحكومة ووظائف الدّولة ، حتى سكة الحديد ، ومصلحة البريد !

ولا ريب أن الحرب كانت العامل الأول فى إقدام المرأة الباريسية على هذا كله ، وفى تحملها كثيراً من المشقة والعناء ، وفى البعد عن غرائز الأنوثة وطبائعها ، فقد يتّمت الحربُ الفتيات ، ورملت الأمهات ، فهرعن إلى ميادين الرجال يعملن عملهم ، ليحصلن على مورد يعشن منه ، بعد أن فقدن العائل والمعين ، فهن يشغلن المراكز التى كان الرجال يشغلونها ، قبل أن تأكلهم الحرب الضروس..

وكان للحرب أيضاً أسوأ الأثر فى فضيلة البنات ، إذ جعلت زهرات الطهارة والعفة عرضة للاقتطاف والذبول ، بعد أن رأت الفتيات الحياة يقضى عليها فى لمح البصر ، وبعد أن عشن سنوات فى حزن دائم ، وهمّ مقعد مقيم . فلما انتهت الحرب أتيحت لهن الفرصة لنسيان آلامهن ، فانغمسن فى غمرات المباهج واللذات . .

ومن الأخلاق التى تدل على نبل الباريسيين ، وصفاء سريرتهم ، عرفانهم حق الآخرين فى التمتع بالحرية ، وإيمانهم بشرف غيرهم ، وعدم إساءة الظن بهم . . فالباريسى – مثلا – لا يلتفت إلى رجل وامرأة قد وقفا على قارعة الطريق يتناجيان ، ولا يلتهمهما بنظراته ، ولا ينالهما بكلمة نابية ، أو غمزة وقحة ، كما نفعل نحن فى القاهرة !

إنى لأومن أن هذا دليل على سمو نفس الباريسى ، لا على غفلته وتهاونه ؛ لأنه :

إذا ساءَ فعل المرء ساءت ظنونه
وصدق ما يعتاده من توهم !

٤٣

اختارت لى « أليس » حجرة أنيقة - بين أسرة باريسية أصيلة . .
وقد أخذ منى العجب مأخذه حين قالت : هذه الحجرة تكلفك ألف فرنك فى الشهر ، تدخلها وجبة الفطور . .

– ألف فرنك فى الشهر ، تدخلها وجبة الفطور ؟ ! . . شيء لا يصدق ! إن هذا المبلغ هو أجر أربعة أيام فقط فى فندق « كلاريدج » !

– أنت رجل مبذر تبعثر أموالاك !

ومنذ انتقلت إلى هذه الحجرة لم تتخلف « أليس » يوماً عن زيارتى ، وقضاء الساعات معى ؛ بل لم أغادر البيت يوماً قبل أن أتلقى منها تحية الصباح ، ونتفق على موعد لقائنا ، بعد فراغها من عملها فى المستشفى . .

وذات ليلة بعد أن لهونا ورقصنا ، فاجأتنى « أليس » بأننى سأعود معها إلى « فونتنبلو » ، فأبيت هناك ، لأشترك فى الصباح فى رحلة تضم لفيفاً من الشبان والشابات . .

وقبل أن تدق الساعة ثمانى دقات ، من صباح نقى البسمة ، تجمّع سرب من فتيان الأسر العريقة ، وزواهى فتياتها ، فى حديقة قصر « دى لوملية » . .

وانطلقنا جميعاً صادحين وشاديات ، نقصد أن نقضى النهار فى « غابة بولونيا » . .

وفى فرنسا لا ضير على العذارى والشبان فى رحلات ينظمونها ، وينطلقون فيها أفواجاً فى نقى الهواء المعطر بأريج الصداقة والحب ، فالمجال فسيح لهم ، ولا سيما لذوى اليسر والخطر منهم . . والأهل أنفسهم يجدون فى هذه الوثبات رياضة حافلة بالأنس والبهجة ، قد انتظمت

فيها المشاكلة ، ووفق بين الجمع حسن المخالقة . فتنطوى على فيض من شهى المفاكهات ، وتنقضى فى متعة حاوة كرغيد الأحلام !

تجوب هذه المواكب المزقزقة الضواحك أنحاء الغابات ، وتموج فى شعاب الحدائق والبساتين ، وتتغلل فى جنبات النوادى ، مندفعة فى قهقهات طويلة متلاحقة ، لا ينقطع سيلها . . وقد آلفت ضواحى باريس مرأى هذه المواكب الفياضة بالسحر ، وتعودت أن ترحب بها ، وتزجى إليها البسمات الفضفاضة ، المنطوية على بهيج الترحيب ، وفائر الإعجاب .

شخص الركب إلى « غابة بولونيا » . . وفى خمائلها الأريضة ماج السرب ليحط عصا الترحال ، فحيا بمأنوس بغامه الأرض المبرقشة الأديم ، الحالية العود ، كأنها لوح من معجزات رسمته بخصيب الألوان يد متفوق موهوب ، ففيه النصاعة والدكنة ، والظل الهادئ والأفق الصحيان ، وفيه الحصاة والصخر ، والماء والخضرة والوجه الحسن !

جمع السرب بعضه إلى بعض تحت ظل خميلة كعين محفوفة بمستطيل الأهداب ، وانتثرت صنوف الفاكهة ، وزجاجات الشراب ، وارتفعت السواعد بالكؤوس ، فى قهقهات لا تماسك ، وكأن كل قهقهة أنشودة تناهى فيها الإبداع !

وكان للغناء سوق رائجة أزرت بعندلة العندليب ، وشجو الكنار . . ولو ملكت الأشجار الحناجر لأفاضت بصيحات الإعجاب ، مرنحة الأعطاف ، لكنها انحنت تتيماً وخشوعاً ، وقد أحست السحر يجرى فى لبها وجذعها . .

ولم يشا الرقص أن يحتجب عن مجلس الطرب ، فماست القدود تجلو فواتنها الباهرات . .

فى هذا اليوم رأيت قلوباً كثيرة تتطلع إلى « أليس » وتتشوف إليها ،

وتتمناها باذلة كل ما تستطيع . . رأيت أعناق الشبان تتطاول إليها ، وكلهم كفء ، وكلهم من ذوى الجاه واليسار ، وأنا لا أستطيع منازلتهم فى شىء ، إلا أن قلب « أليس » معى ولى !

كنت أرقبها وهى تراقص غيرى ، فأرى عينيها علىّ ، وهى تشارك رفيقها الحديث بما تفرضه واجبات اللياقة والمجاملة ، فإذا راقصتنى ألقت خدها إلى خدى ، وأقامت من عنقى وسادة لعنقها ، والبشر يتلألأ فى منشور جوارحها ، وجسمها اللدن ينبض بالحيوية والشباب وروحها الجميل يطفح بهجة ومرحاً ، وعيناها الصافيتان تفيضان بالود الذى يكنه قلبها . . وكانت تنسى نفسها كل النسيان حينما أضمها إلى صدرى !

يا رعى الله ذلك اليوم ! . . لقد طرت فيه على أجنحة السعادة ، وتذوقت من الهناءة ما لن تجود به الأيام : . لكن . :واأسفا على تلك الذكرى وياجزعا ! . . لقد بقيت فى عنق الزمان عهداً لم يوفّ ، وحلماً قصياً بخل بنظيره !

ليقل القائلون فى السعادة ما شاءوا ، وليتبجح الفلاسفة فى تقويمها ما اشتهوا ، وليسكر بها الشعراء ما طابت لهم النشوة ، وما طار بهم خيال ؛ أما أنا فما أجدها إلا ضرباً من الوهم ، وإلا أثراً من بلادة التفكير ! . . فأين هذه السعادة ، والسماء الصافية ترسل صواعقها بدون سابق إنذار ، أو سالف إعلان ، وتصيبنا إصابات لم نستعد لاقائها ، ولم نحصن لها موضعاً ؟! . . أين هذه السعادة ، والقدر لا ينفك يتربص بنا ، ويقطع كلّ طريق علينا ، ويترصدنا فى كل خطوة نخطوها ؟!

لقد اتفقنا أنا و « أليس » على أن نتزوج ، ونعود معاً إلى القاهرة ، لنحيا فيها ، على أن نقضى فى أوربا شهراً من كل سنة : .وحسبنا الدهر غافلا عنا ، وما كنا ندرى أنه يعد عدّته ليفرق بيننا . .

تقدمت إلى السيد « بيير دى لوملية » والسيدة حرمه ، خاطباً ابنتهما ،

فتغيرت سحنتهما ، واربدّ وجهاهما ، وصمتا لحظة ، ثم استمهلانى حيناً ، للتفكير فى هذا الأمر وفيما يترتب عليه من فراق ابنتهما العزيزة . .

وعرفت أنهما أخذا يحاولان أن يثنيا « أليس » عن هذا الزواج ، حتى أثاراها وهيجاها هياجاً عربيداً ، فجاهرتهما أنها لن تتزوج غير المصرى !

ساءت العلاقة بين الوالدين وابنتهما ، وسادتها الجفوة . . لكن « أليس » أقسمت أن تخرج من هذا النضال ظافرة ، محققة آمالنا فى الحياة معاً ، يظللنا الحب والوفاء . .

وقلّ ترددى على « فونتنبلو » ، وكثر تردد « أليس » على الحجرة التى اختارتها لإقامتى ، وطالت الفترات التى نقضيها معاً ، ننسى فيها الدنيا ومن فيها ، ولا نبالى إلا بتعاطى كئوس الحب مترعة ، وتشييد قصور الآمال شامخة !

كان كلانا سعيداً بصاحبه ، يبادله عواطف الحب والتقدير ، وينظر إلى الحياة معه نظرة تفيض بالبهجة والهناءة ، ويملؤها الأمل الحلو ، والرجاء الباسم ، والتطلع إلى المستقبل البعيد فى طمأنينة وثقة . . لكن الله الذى يدبر أمر الخلق على مقتضى حكمته وقدرته ، لم يشأ لنا أن نندفع مع الآمال إلى بعيد ، فقدر علينا أن نفترق إلى الأبد ، قبل أن نرتدى ثياب العرس . .

بقيت ذات صباح فى البيت أنتظر تحية « أليس » التى تعودتها ، حتى دقت الساعة تسع دقات ، و« التليفون » صامت لا ينطق . .

انقبض قلبى ، وبدأت الهواجس تتوافد على خاطرى ، والهموم تتواكب إلى صدرى ، وتوجست شراً مستطيراً ، فأمسكت سماعة « التليفون » فى رهبة ، وسألت عن منية النفس ، فإذا الصاعقة تنقض علىّ ، وتصيبنى بما يشبه الشلل ، فتسقط السماعة من يدى ، ويعجز عن النطق لسانى . .

لقد ودعتنى « أليس » قبيل الفجر ، وهى أبهى ما تكون جمالا ، وأسعد قلباً ، وأتم عافية . . واتخذت طريقها إلى « فونتنبلو » ، فإذا سيارة نقل تصدم سيارتها وتقلبها ، وإذا هى تصاب إصابات قاتلة . .

ووقفت فى المستشفى أرى هذه الشعلة المضيئة تنطفىء أمام عينى رويداً رويداً ، وأشاهد سكرات الموت تسرى فى ذرات هذا الأمل المتألق الساطع ، وأقف ــ ساعة بعد ساعة ــ على غيوب هالة من الجمال النورانى ، وتلاشيها ، فتهمى دموعى غزيرة ، أحس مرارتها وحرقتها !

ما أقساها أياماً ثلاثة عصرتنى عصراً ، وامتصت دمى قطرة قطرة ، فجفت الدموع فى عينى ، واحتبست الكلمات فى حلقى ، وطوق حزام حديدى صدرى ! . .

ثم طار البلبل عن روضه ، وحنجرته ملأى بالأغاريد !

ودُفنت « أليس » فى ظلال الخمائل ، ومثواها خليق بالمرقد الرفيه ، تشدو فى جنباته الأطيار الصوادح ، وتنبت حوله زواكى الأزاهير . .

ووقفنا من حول القبر نساخ من أكبادنا أنات التفجع ، ودعوات الرحمة لمن ترصدها القدر ، وأودى بها ، وزفها إلى التراب عروساً رخصة ، تلاشت كقطرة من ندى فى مراشف الشمس الحرار !

مَن لك أيها الغريب المسكين ، وقد حرمك الموت « أليس » ، وتركك كاليتيم اللطيم ؟ !

من لك اليوم ، وقد نزع منك القدر الرهيب كل سند وذخر ؟ ! . .

إن كلومك لا تضمد ، وإن بلواك لا عزاء فيها ، وإن كل ما شيدت من آمال قد انهار وتبدد !

لك الله أيها البائس الشقى المشئوم . . لتعصر كل ما فى مآقيك من دمع ، أيها العاشق المفئود ، فالأرض والسماء فى مناهضتك !

٤٤

شقيقى الحبيب «عبد الحميد» :

ذابت نفسي . . احترق قلبي ، وصار رماداً . . طارت الآمال والأحلام التى طالما ندّت نفسى ، ونضرت أيامى . . دب اليأس بين جنبىّ دبيبـًا مفزعـًا . . حالفنى الشرود والذهول ، وجفانى المنام ، ونزل بى صداع لم ينفع فيه دواء ، وقال الطب إن أعصاب مخى قد التهبت !

لكم أخشى الجنون ، يا أخى ! ولكم يوسوس إلىّ الرجيم أن أدفن فى أعماق السين نفسى ، أو أخرق برصاص المسدس جمجمتى ، وأنثر ما جمع لؤم الزمان ، وأضع حدًّا لعذابى ومخاوفى !

أترى فى هذا زيغاً وشططاً ، ياشقيقى ؟ ! . . ألست حرًّا أتصرف كيف أشاء فيما أملك ؟ ! ألست أستطيع أن أستريح حين أتعب ، وأنام حين تئودنى اليقظة ؟

إن أحداً لا يأبى علىّ شيئاً من هذا ، فلماذا يأبى علىّ المجتمع — إذاً — أن أطلب الراحة الكبرى ، وقد تنكرت لى الحياة ؟ ! . . كيف يستضعف الناس المنتحر ، ويحتقرونه ، ويشمئزون من فعلته ، وهم موقنون فى قرارة نفوسهم أن راحة الموت علاج ناجع أدين الكل أدواء الحياة ؟ !

لا نكران أن كلاًّ منا قد قُذف به إلى الحياة من دون أن يسأل أو يستشار . . والشرائع كلها تجيز — فى حال الإكراه — أن ينقض المرء عهده ، ويخيس عنه ! . . فلِمَ أحرص على الحياة ؟ وفيم تعلقى بها ، وخضوعى لها ؟ ! . . وما يمنع أن أريح نفسي ، وقد استشعرت الشقاء والعناء ؟ !

إن التعلق بالحياة من شان الأحياء الذين لهم مسكة من همة، وفضلة من عزم ، وبقية من أمل . . أما من كان مثلى : لا تغيب شموس أيامه أو تطلع إلا على آمال تصوّح ، وأحلام تبدد ، فليس من دون أمله إلا باب واحد يجد الداخلوه الراحة الكبرى ، وينأون عن نكد الدهر ، وعبث الأيام ؛ فوراء هذا الباب تستوى السعادة والشقاء ، والأمل والقنوط ، والفرح والترح ، ويصبح كل ما فى الحياة زيفًا وباطلا !

ما حظى الآن ، ياشقيق ، وقد أصبحت غرض الأيام ، ومحطّ كيدها وأذاها ؟ ! وكيف يطيب لى عيش بعد اليوم ، وأنا كلما لمعت فى حياتى بارقة أمل ، عدا عليها القدر ، فقضى عليها فى عنف وقسوة ؟ !

لقد كلح وجه الحياة فى عينى ، وانطفأ النور الذى كان يكسبها نضارة وجمالاً ؛ فهل ثمة محزنة أقسى من هذا، وأدعى إلى يقظة الأنفة، واستفزاز الكبرياء ؟ !

فقدت « أليس » فأقفرت حياتى ، وأجدبت دنياى . . فقدت « أليس » ، ففقدت الوجه المشرق ، الذى كانت تشملنى رؤيته ، تملؤنى بهجة وأنساً ، وسعادة وهناءة ، ونشوة وسروراً . . فقدت « أليس » ، ففقدت النظرة الحنون ، والعقل الرصين ، والعاطفة الملتهبة ، والقلب الطيب ، والوفاء النادر ، والطبع السمح الكريم . . فقدت « أليس » ، ففقدت الحب الصادق ، المليء بالوجد والوله والهيام ، الحب الذى تصبح الحياة بدونه عبئًا لا يحتمل ولا يطاق . . فقدت « أليس » ففقدت كل أمل يزين الحياة ، ويرغب فيها ، وأعيش أرتقب تحقيقه !

أوّاه ، ياشقيق ! . . واحزنًا ! . . لقد ماتت وتركتنى شريداً عاجزاً ، لا أملك من أمر نفسى شيئاً ، ولا أجد لى وليًّا ولا نصيراً . . ماتت . . ولم يبق إلا طيفها يطالعنى فى كل زمان ومكان ! فسلام على

قلبي ، وعلى نفسي ، وسلام على كل ما يجعل للحياة وزناً وقيمة !

نعم ، ياشقيقي ، نعم . . إن الحياة قد فقدت في عيني كل حياة ، وباتت حقيرة ، دنيئة ، تافهة . . أفليس — إذاً — في التمسك بهذه الحياة الفظيعة عناد وجنون ؟ ! أوَ ليس فيما أقاسي — وفي يدي دفعه واجتنابه — بلاهة وحمق ؟ ! . . إن من كان في مثل حالي استوت في إحساسه القيم جميعاً ، وانقلبت رأساً على عقب مفاهيم الأخلاق والقانون والنظام والعرف ، لتصبح كلها أشياء لا قيمة لها . . بل إن الجريمة نفسها لتبدو مغرية فاتنة تستهوى النفس الحزينة المكدودة المتألمة !

ومن يخبر الحياة كما خبرت ، ويتذوق فيها ما تذوقت ، ويعاني منها ما عانيت ، لن يحلو له شهد من بعد . . وأنّى يتأتى الشهد ، والحب والإخلاص ، والسعادة كلها تفقد جمالها الرائع ، وتتلاشى لذاتها الحلوة دائماً في طرفة عين ؟ !

إني — يا أخي — لفي ألم صاعق ، لم يخلق له صبر ، ولم تبتدع له أعصاب . . وإني لا أحيا إلا على وهم شتيت تلملمه الحياة ، لتجذبني إليها مرة أخرى ، أو لتنتزع مني آخر رمق في همّتي ، وتستنزف آخر قطرة في عزمي ، ثم تلقي بي في الهالكين !

غفرانك ، أخي ، إن زل بي القلم ، أو طغى عليّ الرأي ، فإن للنفس جماحاً لا يكبح ، وما هذا إلا بعض همسها ، وأنت أحق من يصغى إليه !

والذي أمدني بالأحزان قادر أن يمدك بالبهجة والعافية والتوفيق . .
ولا زالت أيامك ممدودة بين أمل لك تبلغه ، وأمل فيك تحققه . .

وتقبل تحياتي ، وما يكنه لك فؤاد شقيقك الحزين .

عبد الرحمن

باريس . . . .

حاشية :

أرجو أن توافيني بثلثمائة جنيه على فرع « بنك مصر» فى باريس ، وقل للشقيق « سيد » إن هذا المبلغ قد يكون آخر ما أطلب . . فإما عدت إليكم ، وإما رحلت إلى العالم الآخر !

٤٥

شقيقى وصديقى « عبد الرحمن »

الساعة الآن الثانية من صباح الجمعة ، وقد سكن كل شىء حولى ، ونام الجميع ، وأنا ساهر أنشر رسالتك التى بعثت إلى نفسى قليلاً من الطمأنينة ، وكثيراً من القلق والهم ، بعد أن قضيت الأسابيع الماضية فى حيرة وألم . .

صدقنى إذا قلت لك إنى لا أدرى ماذا انسلّ إلى نفسى ، منذ أن قرأت رسالتك ؟ ! . . لقد تهت فى بحر عميق من الأفكار والهواجس ، وانتابتنى نوبة الشك ، تصاحبها لذة اليقين ، وقد كاد يذوب ، فأمسيت أضرب بين لعل وعسى ، وسوف وربما ! وصرت كمن نظر إلى النور ، فبهره جلاله ، لكنه لم يقبل نحوه ، أو كمن أبصر الظلام ، فتأثر بقتامه ، لكنه لم يدخل قلبه !

إن رسالتك ، يا أخى ، قطعة حية من الألم واليأس ، وإنى — والله — لمشفق عليك من هذا الحزن ، فقد جربته فى نفسى ، ووجدته شيئاً فظيعاً . . إنه ريح قوية عاتية ، تجرّد أغصان النفس من أوراق رجائها ، لتنشئ مكانها قبوراً للخيبة . . إنه سم زعاف يمزق الأحشاء ، ونار بطيئة ماكرة ، تسير فى خفوت ، لتندس فى حنايا النفس ، فتحرقها ، وتدك صروح آمالها ، لتقيم مكانها أنصاباً سوداء ، حالكة السواد ،

كأنها أخيلة القدر المحتوم !

إنى لمشفق عليك، لأنى أعلم سر هذه الوحشة التى تالناك، وباعث هذا القتام الذى يغشى نفسك ، وسبب هذا الشجن الذى يشيع فى حياتك ، وينغص عليك عيشك . . إنه الحاجة إلى غامض أعجزك الحصول عليه ، وخاب سعيك فى نيله ، وهو عندك عديل الروح ، وشقيق النفس . . إنه الحب العنيف الثائر ، الذى يضحى المرء فى سبيله بكل شىء ، بالمال ، وبالمواهب ، وبالكبرياء أيضاً . . لكن هذا الحب الذى يسام النفوس إلى الإيمان والفضيلة والسمو ، وثمرات الذهن المتقد والقلب الوثاب ، حب نادر ندرة الكبريت الأحمر ، كما يقال ، بل لعله لا وجود له ، ولعله من اختراع الشعراء ، وخلق الروائيين ، وتصوير الفنانين . . « ومن طلب المعدوم أعياه وُجْدُه » !

ولقد حاولت — غير مرة ، وأنت فى القاهرة — أن أزين لك تغيير أسلوب حياتك ، ولكنك كنت مزعزع الرأى ، واهى العزم ، تعتقد أن الجنس روح الحياة ، وأن الحب نعيمها وهناءتها . . وما أشد بؤس من يعاق حياته وسعادته بأنثى ، ويتخذ منها إلهاً يتوجه إليه بالعبادة والتقديس ! . . إن هذا الوثن — ياشقيقى — من طين ، فإذا لاح لك ألماساً ، أو شيئاً كالألماس ، فإنما هو ضوء المشاعل التى تحملها أنت !

لا ألومك ياشقيقى العزيز ! فالنفس تثور ، وتتاق أحيانًا ، وترغب عن أحب الأشياء إليها ، وتحن إلى أمور غامضة ، لا تستطيع تكييفها وإبرازها فى صورها الحقيقية ، ولا تدرك أنها أمانى قد تكون فيها المنية والهوان !

لقد فقدت قبلك — منذ سنين — من أحببتها وأحبتنى ، وعانيت ما تعانى أنت اليوم ، بل شراً منه . . فحبنا لم يكن — كحبك — ثمرة بضعة أشهر ، أو عام ، وإنما كان زمالة سنين ، وصداقة أعوام . . ولولا أنى لا أريد أن أنبش ما دفنت فى صدرى ، لعرفت قدر ما عانيته.

وليس ذلك ضناً منى عليك بما أخفى فى قلبى ، وإنما لأنى لا أحب أن أعكر صفو حاضرى بتذكر ما فات . . وحسبك أن تعلم أنى وصفت نفسى — فى مذكراتى الخاصة أيامئذ — بأنى « أعيش فى قبر بارد من الرخام الصاقع » ! أما اليوم فقد نضج فكرى، واتزنت عواطفى ، واهتديت إلى خير الطرق للانتصار على ظلم الحياة وظلامها . . إنه تناسى سوءاتها وسيئاتها ، وتذكر محاسنها وحسناتها ؛ فإن الشمس التى يقتل لافحها فى الصيف ، هى التى ينسج من شعاعها ثوب الدفء فى الشتاء !

والهمة لا تنقصك ، ياشقيق ، لتتغلب على ثورات النفس الأمارة بالسوء ، فلست أول محب يفجع فى حبه، ولست بآخر من أصابه عنت الأيام ، فغدا باكياً بعد حبور ، شقياً بعد سعادة ، يائساً بعد هناءة .

لماذا تحزن ، ياشقيق ، وتبكى ، وأنت فى ضحى شبابك ، ولا تزال الحياة لك باسمة ؟ ! . . لماذا تعول وتنوح وما فتئ العيش لك ضاحكاً ؟ !

لـم غاضت عن شفتيك الابتسامة العذبة البريئة ، ابتسامة من عرف من الدهر حلوه ، وذاق من العيش رغيده ؟ ! . . إن أمامك لعالماً زاخراً بطيب الآمال ، ولذيذ الأحلام ، تستطيع أن تصل إليه ، لو رفعت بصرك قليلاً ، ووضعت قدمك فى ثبات وشجاعة ، ولم تجبن عن نازلة تخيرتك لها الحياة ، ورأتك أهلاً لها . .

ولست أفهم كيف تسمى ثباتك ضعفاً ، واحتمالك جبناً ، ومقاومتك خوراً ! . . إن هذا لحكم جائر ، وجرأة على الحق ، فليس الضعف والجبن إلا فى أمر يمكنك قهره ، فتفر منه ، أما التسليم بما نعجز عنه ، فأمر لا بد منه لمن فهم سر العيش ، وأدرك كنه الحياة . وأحق ما صُبر عليه ما لا سبيل إلى رده !

فتأس ياأخى ، ولا تنح ، فإن الدمعة التى تنحدر من عينيك لن تجد من يكفكفها . . لا تذهب نفسك حسرات على من فقدت ، فنفسك المأخوذة

لن تجد حولها من يطيِّب خاطرها .. تأسَّ يا أخى ، ولا تيئس ، وروِّض نفسكَ على تقبل الحياة فى مختلف ألوانها ، فهى ليست دائمًا كالحة قاتمة ، وليست دائمًا مشرقة باسمة .. لكنها — فى كلتا الحالتين — أنضر من رضا الراضين ، وتفاؤل المتفائلين ، وأقوى من سخط الساخطين ، وتشاوم المتشائمين !

إنه لواجب أن نذعن لسنة الحياة ، فإنما هى قضاء المدبر الأعظم ، ولا مفر من الرضا به .. وكلنا صيد يطلبنا الموت حيثما نعتصم ، ويدركنا أينما نكن .. وليس أضعف عقلاً ، ولا أسخف رأيًا ، ولا أضل حلماً — ممن يتفزع ويجبن ويتشاءم ويفرق .. والعهد بك أنك فطن رشيد ! فلا تترك اليأس يفسد عليك عيشك ، وحرقة الجوى تصهر قلبك ، وتذوى شبابك النضير .

إن محزنة الحياة الصادقة ، ومأساتها الحقيقية ، هى أن تروح فى أيدى الناس آلة تستخدم فى سبيل مقاصد تعلم أنت نفسك مبالغ دناءتها وحقارتها .. أما ما خلا ذلك من أحزان الحياة ومآسيها ، من مرير خيبة ، أو نكد عيش ، أو عاثر حظ ، أو سوء منقلب ، فليس إلا طبيعة الأيام :

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار !

وإن الفرح الصادق بالحياة — وهذا ، والله ، مطلبها الأكبر — هو أن تضع نفسك ، وتحشد قواها كلها ، لتحقيق غرض تؤمن بأنه عظيم ، والتماس مطلب تعتقد أنه فوق كل مطلب ، وأن تبلغ آخر حدود الكلال ، وتعالج أقصى عصارة القوة والمراس ، قبل أن تسلم فى النهاية ، وتقعد ملومًا محسوراً ، وتتهالك على الثرى لاهث الأنفاس ، يائساً مهزوماً مدحوراً !

فأخلقْ بك ، يا أخى ، ألا تحزن ، وأحرِ بك ألا تتألم وتأسى لما نزل

بك ؛ ولتكن كالمحراث يشق طريقه فى الأرض الصلبة ، أو لتكن كالنبتة تميل للريح إذا عصفت ، وتعود فتنتصب من جديد ! . . لتكن قوة من قوى الحياة ، لا كتلة محمومة ، ومجموعة آلام وآهات وحسرات ، لا تكف عن الشكوى من أن القدر قد أساء إليك ، وأن الدنيا قد ظلمتك ، وجارت عليك ، ولم تبذل كل ما عندها لتجعلك الناعم السعيد !

ألا ولتعلم أننا — حين نشغل أنفسنا بلذات الحياة ، وشهواتها — نعطيها من القيمة أكثر مما تستحق ، وأننا — حين نهملها — تقبل علينا باسمة مسالمة ، ونجد فيها محلولاً بسيطاً كل ما كان من قبل معقداً مركباً . .

ألا ولتعلم — وأنت عالم — أن ليس بين الناس جميعاً ، منذ آدم إلى اليوم ، من صفت مشاربه ، واجتمع له من نعم الحياة ما يشتهى ويريد ؛ فمن عاش عمره فى فرح دائم ، لا تغيم فى سماء حياته سحابة من الحزن ؟ ! لا أحد ! . . هذا ناموس الكون ، فإن الله — جلت حكمته — يعطى الصحة ويمنع المال ، أو يهب الصحة والمال ، ويسلب العزة والكرامة ، أو يمنح الصحة والمال والجاه ، ولا يهب البنين . . وهكذا دواليك ! فلا يضق صدرك — بعد اليوم — بما تعانى ، ولا يعظم حزنك على ما حُرِمت ، ولا يشتد أسفك على ما فات . .

ولست أكتمك ، يا شقيقى العزيز ، أنى مسرور لهذه المصائب التى تنتابك ، لأنها تطهر معدن نفسك ، وتبرئها من أدوائها ، كما يبرئ صاب الدواء علة الجسم ، فمقصد الحياة الأخير غلبة الخير على الشر !

أجل يجب أن تجتاز المحن ، وأن تتلظى بنار الخيبة ، لتكسب معرفة آكد بنفسك وبالحياة ، ولتعلم أن الاسترسال فى رسم الغايات بخطوط الخيال جرئ إلى حيرة لا نهاية لها ، وأن الخطر يهدد كل من

يحاول الانفصال عن واقعه الذى يرتبط به ، مهما يكن هذا الواقع محدوداً ضيقاً ، أو تافهاً مملاً !

وإن لم يكن بد من أن تعشق وتتدله . فليكن مبدؤك فى الحب قول الشاعر :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن عليك شجاً فى الحلق حين تبين !

أرانى أكثرت الثرثرة . . وما دفعنى إليها — علم الله — إلا تألمى لأجلك ، ورغبتى فى صلاح أمرك : . وإنى لأكتب إليك ودمعة تسيل من عينى ، فتنهمر وراءها أخواتها . . : وما أرانى قلت كل ما أريد ، فهذا القلم الجامد لا يمكنه أن يعبر عن شعورى . فالجماد لن يعبر عن الإحساس ، ولن يستطيع أن يخرج من مكنونات النفس دفين شعورها . هيهات ، يا أخى ، هيهات !

أنا لا أقوى ياأخى على أن أتصور أنك تتألم وتتعذب ، وأنا بعيد عنك ، لا أستطيع أن أواسيك . . أنا لا أقوى على أن أتصور أنك لا تزال شارداً فى أكناف مظلمة ، يلفك الليل فى ثوب أسود ، ويستقبلك الفجر فى ثوب حالك ، وأنا بعيد عنك ، لا أستطيع أن أمد لك يد العون . .

هبك — ياشقيقى العزيز — تزوجت « أليس » ، وعشتما معاً حيناً فى سعادة وصفاء ، ثم أصابها ما شوه جمالها ، وأذبل نضارتها ، وأقعدها ، وجعلها غير صالحة للرفقة والألفة والمعاشرة ، وصير حياتكما جحيماً لا يطاق . . ماذا كنت تصنع ؟! . . أفما كنت تتمنى الموت ، وتسعى إليه أكثر مما تصنع اليوم ؟ !

ألا ترى نفسك يعرض لك اليوم أمر ، فتلوى به ، وقد كنت تشره عليه ، وتتوق إليه ؟ ! . . أفلا يدل هذا على تقلب النفس ، وعدم ثباتها على حال ؟ ! . . فما رغبتك فى شىء ولا نفورك منه ، إلا بمقدار ما يحقق لك من حاجة ، أو يدفع عنك من سوء ، فأنت الذى تعطى الأشياء أثماناً وأقداراً . .

وما الأحزان والآمال والمسرات إلا رغبات تخطئ أو تبطئ أو تستجيب !

ويحك ياشقيقى ! أتجحد كل ما منحك الله من نعم ، ولا تذكر إلا شيئاً فاتك ؟ ! . . يا لك من جحود كنود ! غفرانك ربى ! . . ماذا تنقم من دنياك ، ياشقيقى ؟ وكيف جرفك تيار الجحود ، فنسيت آلاء الله عليك ؟ ! .. لقد أسبل عليك ستره ، وأسبغ عطاءه ، وحرسك بعينه ، وكنفك بعزه ! .. يالجحود الإنسان ! .. اللهم نسألك أن تملأ بالنور سرنا وجهرنا ، وأن تمنحنا رضاك ، وتكفينا سخطك ، وتوفقنا لذكرك ، وتعيننا على حمدك وشكرك . .

إن الحياة لجميلة ، إذا عرفنا كيف نحياها . . فافتح شباك حجرتك ، واملأ صدرك بالهواء النقى ، وتطلع إلى السماء حامداً شاكراً ، وانظر إلى الأشجار يداعبها نسيم الصباح ، فتنحنى تحية للشمس البازغة والنهار الجديد ، الزاحف على عطر الزهر ، وشدو الطير — تدرك أن الحياة جميلة . : لكن « كن جميلاً تر الوجود جميلاً » !

فكر مليًّا ، وقل صدق أخى وأصاب . :

والعليل المعنَّى طبيب إذا عرف علته ، والأريب اللبيب هو الذى يشفى نفسه من الحاجة ويكفها عن تتبع المآرب ، والجرى وراء الوهم والخيال ! والنضج الحق يقتضى الإنسان القدرة على أن يعيش بلا أحلام ، وأن ينفض عن نفسه الأوهام ، ويقاوم الإغراء ، ويجابه الواقع وجهاً لوجه ، بدون خوف أو وجل !

لا تتوانَ فى الكتابة إلىّ ، لأقاسمك لذاذات العيش وهموم الحياة ، فمن رحمة الله بنا أن يكبر السرور بهذه القسمة ، وبها تصغر الأحزان !

أسأل الله أن يوليك سلام النفس ، وراحة البال ، وأن يقشع عن سماء أفكارك غيوم الهموم وهواجس الغموم ، لترى الحياة على حقيقتها ؛ فكل أمر شديدٌ ، وكل شىء نقمة إذا كان قلب المرء مغتمًّا ، فلا الجمال جمال إذاً لاح ، ولا النعيم نعيم حين يسنح ويستجيب . . وكل شىء

نعمة تستحق الشكر ، لمن صفت نفسه واستراحت أمانيه ! . .

يا أعز الإخوة والأصدقاء ، أما كفاك عشرون شهراً ضيعتها فى لهو ومجون ؟ ! ألم تشبع بعد ؟ ! ألا تعود إلى أهلك ووطنك ؟ ! ألا تريد أن تبدأ حياتك بداية طيبة ؟ !

إنا إياك لمنتظرون .

شقيقك

عبد الحميد

الإسكندرية . . . . . .

حاشية :

حولت لك منذ يومين مائتى جنيه ، على فرع « بنك مصر » فى باريس . . وقد استخلصت هذا المبلغ من الشقيق « سيد » بخلع الضرس ! وهو يقول لك إن فى هذا فوق الكفاية ، حتى تعود .

٤٦

أخذت أعيش فى غير اكتراث ، وأتصرف فى كثير من البلاهة الطارئة : والبلاهة أدنى إلى الخلاص من فطنة بتراء ، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء ! ومن ثم صرت لا أعبأ بما توشك خواطرى وخطاى أن تقودنى إليه ، فأقبلت — فى شراهة — على السم البطىء الذى يمشى بالإنسان إلى ساحة الموت على هينة ومهل ؛ فبت أنادم الكأس ، حتى تشل فىّ حركة العقل ونشاطه ، وتقتل فى نفسى المشاعر الإنسانية جميعاً ، وأرتمى فى الفراش لا أعى . .

ولا بد للمحزون من مادة قتالة كالخمر ، ولا غنى لشعوره عن الفرار ساعة فى غشية الشراب . . لكن الخمر قد زادت الطين بلة ، فساءت

حالى ، حتى نصحنى الأطباء بقضاء أسابيع فى مصح خاص ، فى جبال « الألب » ، على الحدود بين فرنسا وسويسرا وإيطاليا . .

قضيت فى المصح شهراً . . وتملكنى أيامئذ إحساس عميق أنى قريب من السماء ، بل أقرب ما أكون منها !

وخفف همى الطبيعة تخلب اللب ، والجمال يأسر العين : جمال أبدعه الخالق ، وصنعه المخلوق ، فكان الفريد المنقطع النظير . . واطّف جواى ممّن عرفت من غانيات فاتنات ، ومن رأيت من جميلات ساحرات : وما أحاط بى من مباهج ولذات ، فطبت من علة جسمى ، أما علة قلبى فقد عجز عنها الطب والجمال !

لكن . . ألم تؤت نصيحةُ الأطباء أكُلها ؟ !

بلى ! لقد فعلت فىّ فعل السحر ، فوجدتنى أستمرئ هذا الحزن الذى أعيش فيه ! . . وإذا اجترّ المرء أحزانه ، فهذا أول علامات السلو والعزاء !

ووجدت الدموع تندّى عينى ، وقد تخيلت « أليس » تطل علىّ من فردوسها الروحى ، لتبارك إخلاصى لها ، ولوعتى لفراقها ، وتفكيرى فى اللحاق بها ، فكبرت فى عين نفسى ، وهمست : لا شك أنى بلغت أرقى ما يمكن أن يسمو إليه محب من النبل والوفاء !

وإذا لم يكن هذا صحيحاً بالنسبة إلى الحق المطلق ، فقد كان صحيحاً بالنسبة إلى النفس التى ركبت بين جنبىّ ، ذلك أنى وجدتنى جديراً بأن أثيب نفسى على هذا الوفاء بالانغماس قليلاً فى هذا الجمال الذى يحيط بى ، والاستجابة شيئاً لنظرات الحسناوات التى لا تنى تصوب إلىّ عاطفةً على هذا الحزن الذى يطل من عينى . . وما منعنى الولوغ فى العبث مع هؤلاء العاطفات إلا حرصى على الظهور أمامهن بمظهر التفرد بالوفاء لمن أحببت وعشقت !

أما خيال « أليس » فقد بدأ يشط مزاره ، ويقصر لبثه ، إلا حين

أخلو إلى نفسي ، وتعصف بي الوحدة المرة .

* * *

عزمت أن أعود إلى باريس ، فأودّع من عرفت ، ثم أستأنف السفر إلى مرسيليا ، رجاء أن أجد العزاء فى جوار الحبيبة « جوزفين » ؛ فالحق الذى لا مرية فيه أنى كنت أحب « جوزفين » كما كنت أحب « أليس » . ولا ريب أن حسب « أليس » ومركزها الاجتماعى ، وثقافتها الرفيعة ، كانت ترفع قدرها فى نفسى ؛ فإذا كان الموت قد اختطفها منى ، فإنى واجد سعادتى المفقودة فى حضن « جوزفين » . .

. . وفى باريس بدأت نفسى تتفتح للحياة من جديد ، وتبسم لها بعد عبوس ، وتخرج من غاشية الهم والحزن ، وتحاول أن تقدر الأشياء قدرها ، وأن تزنها بميزان الواقع لا الخيال !

رعى الله الصديقتين « بوليت » و « مارى أنطوانيت » ، وأحسن إليهما الجزاء ! فقد أعانتانى على اجتياز تلك المرحلة الشاقة الأليمة بمرحهما ورقتهما ، وبما كانتا تصبانه فى أذنى من عبارات العزاء والسلوان ، وبما كانتا تحيطانى به من ألوان الرعاية وضروب التدليل والملاينة ، وكأنى طفلهما الغالى المريض ، حتى عادتا بى إلى حال البهجة والإقبال على الحياة . .

واجتذبتنى باريس مرة أخرى ، وعادت تهز قلبى صباياها الحسان اللائى أحطن بى . وما حيلتى ، وأنا إنسان رهيف الذوق والحس والشعور ، أتلقى الجمال ، فأتأثر به ، وأتذوقه وأسيغه ، وأتمثله ، وأذوب فيه ؟ !

ومع هذا كله ظلت خواطرى قاتمة ، وما برح قلبى كسيراً ، وما انفك بالى مشغولاً بالتفكير فى « جوزفين » . . كنت أكتب إليها من كل بلد أنزل به ، دون أن أتلقى جواباً ، فكنت يوماً أتهم البريد ، ويوماً أصبّر النفس بكثرة تنقلى ، ويوماً أقول : ربما نسيتنى ، أو لعلها تزوجت . .

ثم أعيدت إلىّ رسائلى ، بعد أن طافت ورائى بلاداً كثيرة ، وعليها

ما يفيد أن « جوزفين » قد تركت العنوان المذكور ، وأنها مجهولة المكان ؛ فتبلبلت أفكارى ، وتضاعفت همومى ، وصممت على السفر إلى مرسيليا ، واستقصاء أخبار الحبيبة التائهة .

وفى مرسيليا أخلف الأمل وعده ، وأنجز اليأس وعيده ، فقد دخلت « جوزفين » الدير ، ودفنت فيه نفسها حية !

قصمت الفجيعة ظهرى، وقوّضت البقية الباقية من همّتى وعزمى ، وبدت لى الحياة كذبة كبيرة،وغمرنى يأس حالك ، لا يخترّقه بصيص من نور ، أو شعاع من أمل ، فحزمت حقائبى لأعود إلى وطنى . .

* * *

الشمس ذبيحة يصطبغ بدمها الغسق الرهيب ، وهى توشك أن تغرق فى البحر ، ومعظم المسافرين على أسطح السفينة قد غرقوا أيضًا فى تأملات وخيالات ، أمام هذا المنظر البديع الحزين !

ملت على حاجز السفينة، وسرحت طرفى فى البحر العظيم بجلبابه الأزرق قد اشتدت زرقته ، وصدره الرحب قد تراخت أبعاده . . وسبح خيالى مع الأمواج ، يستعرض أيام الطفولة : أفراحها ومخاوفها ، وآمالها العريضة بالمقاييس التى كنت أراها بها أيامئذ ــ حينما كنت ألعب مع أترابى فى الفناء الواسع المستطيل ، وفى الحديقة ، وفى الشارع أمام البيت . .

ودارت فى رأسى صور كثيرة ، لبلاد بعيدة ، ومناظر مختلفة ، ووجوه تمتّ إلى أيام الطفولة والصبا ، وأيام الدرس والتحصيل ، وأيام الشباب والفتاء . . واختلطت الذكريات متشابهة فى أهميتها ، حتى لا أقف عند واحدة أكثر من الأخرى !

وشاهدت بعين الخيال بلدتى الوادعة ، ودارنا الكبيرة . . وتمثلت لى أمى التقية النقية ، بوجهها الباسم ، وقلبها المفعم بالحب والحنان ، وتراءى لى « الشيخ » الذى كنت أخافه وأقدسه فى وقت معًا . . رأيته

بوجهه المشرق ، وجبينه الشامخ الناصع ، وعينيه الواسعتين ، ونظراته النفاذة ، ولحيته البيضاء ، وهيئته المهيبة ، وحديثه الهادئ اللبق الرزين .

وطار بى الخيال كل مطار فرأيت « هدى » و« نعيمة » و« مرجريت » و« ريتا » . . . وعشرات وعشرات من الصبايا والغانيات : :

وغبت فى خواطرى وأفكارى ، واعتزلت المسافرين، ولزمت « قمرتى »، لا أكاد أغادرها إلا لحظات أقطع فيها سطح السفينة ذهابًا وإيابًا ، لا أكلم أحداً ، ولا أسمر مع المتسامرين .

ومرت أربعة أيام ، والسفينة تسير فى الليل سيرها فى النهار ، وتسبح آمنة فى مجراها . . تمر بجنوب إيطاليا فلا تقف ، وتمر بجزيرة مالطة فلا تعرج ، لأنها لن ترسو إلا فى بورسعيد : .

واحتضن الشاطئ المصرى السفينة ، ووطئت قدماى أرض وطنى الحبيب .

٤٧

رحلت فلا دنيا ولا دين نلته وما أوبتى إلا السفاهة والخرق !

رحم الله « شيخ المعرة » ! ما أصدق بيته هذا فى تصوير حالى ! فقد سافرت إلى فرنسا وأنا شقى مريض ، وعدت وأنا شقى ومريض ومحسود ، يظن الغافلون أنى سعيد مجدود ، إذ أتيحت لى فرصة زيارة أوربا ، والحياة فيها عامين وبعض عام ، وهم لا يدرون أنى أعود بقلب كسير ، ونفس كئيبة ، وجسم واهن ، وعقل ذاهل ، وفكر شريد ، وقد انطبق علىّ قول « شكسبير» : « قد باع أرضه ، ليشاهد أرض غيره » ، فاغتنت عيناى ، وافتقرت يداى !

وهيأت لى مثوى فى القاهرة : . وعدت إلى العمل فى « شركة التأمين » : . وعدت أيضًا إلى الاستجابة إلى الشهوات فى اندفاع

لا تريث فيه ولا عقل ، فوقعت فى ورطات ومشكلات لم أستطع الخروج منها إلا بجهد جاهد . .

والعجيب أن كثيراً من التعساء أمثالى لا يبرحون يكررون عيوبهم وأخطاءهم ، ثم يُنحون على أنفسهم يجلدونها بسياط التأنيب على آثامهم ، ليزيدوا تعاستهم ، فهم لا ينفكون يوجهون اللوم إلى نفوسهم ، ويضاعفون شعورهم بالإثم والجرم ، فيزدادون غماً على غم . .

ثم حدثت مفاجأة سعيدة ، كان لها أثر أيما أثر فى حياتى . . : فقد التقيت مصادفة بصديقى القديم ، وزميلى منذ الصغر ، الأستاذ « عبد الرءوف » ، الذى كان يعمل مدرساً فى مدرسة بنى سويف الثانوية ، ثم نقل مؤخراً إلى إحدى مدارس البنات فى القاهرة . .

كنا أبناء شارع واحد ، وسرنا فى طريق واحدة ، وقضينا معاً مرحلة الدراسة الثانوية والجامعية ، ثم افترقنا ، وانقطعت أخبار كل منا عن صديقه حتى فوجئت به ليلة يتناول عشاءه فى مطعم « الكورسال » .

كم فرحت وابتهجت لرؤية « عبد الرءوف » ! إنه ألصق الأصدقاء بقلبى ، وأحبهم إليه . . ليس بيننا خبر نستره ، أو سر نطويه ، فكلانا ينفض جعبته لصاحبه فى صراحة وصدق ، وكلانا يستريح لحديث صديقه ، ويستمتع بمحاورته ومجادلته ، برغم ما بيننا من تباين ظاهر فى الأمزجة ، واختلاف ملحوظ فى المشارب والأهواء ، وفى الطباع والسلوك . .

ولاختلافنا فى المشارب وجوه كثيرة ، فأنا سهل القياد ، لين العريكة ، رقيق الطبع ، وهو وعر الجانب ، صلب الإرادة ، حاد المزاج . . أنا جرىء مهذار ، وهو حيىّ خجل . . أنا فاجر النفس ، ماجن القلب ، وهو إيمان ملحد ، وتقشف هلوك ! . . أنا أعب الخمر عباً ، وأسافر أميالاً وراء أنثاى ، وهو لا يذوق الخمر ، ولا يقبل على النساء مجبنةً لا تقى !

واختلافنا فى الشكل واضح بين . . أما هو فطويل القامة ، نحيف البنية ، له سمة النبلاء ، ووجهه الهضيم ينبئ عن انحداره إلى شيخوخة مبكرة متداعية .. وفى حركاته سذاجة كتلك التى ترى فى رجال الريف ؛ وأما أنا فممتلئ الجسم ، سوىّ الخلقة .. أجيد السلوك على قواعد اللياقة ، ونظم « الإتيكيت » !

مسكين « عبد الرءوف » هذا ! إنه يكبرنى بأربع سنوات ، لكن حياته لا نفع فيها ولا ضر ، « وما الناس إلا من يضر وينفع » ! فهو يعيش فى دنيا خيالية ، خارجة عن نطاق الكون ، بعيدة عن محيطه ، لأنه لا يقدر أن يعيش فى دنيا الواقع ! .: تراه فلا تكاد تفهم له أمراً ، فعلى وجهه مسحة من الكآبة ، وفى عينيه نور دقيق من الأسى الصامت ، فكأن حزنه يتكلم وهو واجم ، وكأن قلبه يتفطر وهو باسم . . وقد طُبعت على زاويتى فمه دلائل الألم والحرمان ، ونطقت قسماته بذكاء الرجل الذى تعهد مداركه العقلية ، وأكب على الدرس والقراءة ، ثم أهمل ما عداها ، ولا سيما مظهره ، وهندامه . :

تغالى « عبد الرءوف » فى حب المطالعة ، وعكف — بكل ما أوتى من وقت وجهد — على الدرس والبحث ، ووقف عمره على إطعام أحلامه الجائعة إلى العلم . : وكان أيام الجامعة يتشهى أن يعقد صداقات بين زميلاته ، لكن حياءه كان يعقد لسانه دائماً إذا تحدث إلى إحداهن ، أو حاولت إحداهن أن تمزح معه ، أو تروى له نكتة ، فانصرفت عنه الزميلات ، وأعرضن عن صحبته رحمة به ، وإشفاقاً على حيائه . . وحالت كبرياؤه دون أن يسعى إليهن ، أو يطلب صحبتهن ، وانكب على الدرس والتحصيل ، وراح يلتهم ما فى بطون الكتب ، مما يتصل بالمرأة والحب والجنس ، فنمت فى نفسه عقدة ، بعد أن عرف المرأة فى الكتب والأسفار ، ولم يعرفها فى الحياة والمعاشرة . .

ومرت بنا سنوات الجامعة و « عبد الرءوف » لا يعرف طعم القبلة . . حتى القبلة العابرة يخطفها من خد زميلة ، ويتلقى بعدها صفعة أو لكمة !

كان يسخر من الحياة لأنه لم يحب ، وهو لم يحب لأنه تعالى على الحب ، أو جبن عنه ، وراح يبحث عنه فى الكتب لا فى واقع الحياة !

وكان قلبي يحس التياعًا كلما رأيته على صورته الساهمة . . وكم حاولت — بكل ما يسعى الصديق لخدنه — أن أواسى فؤاده ، أو أضمد جراحه فما كنت لأفلح فى تسكاب حنانى على آلامه إلا غبار الميل !

أخذ « عبد الرءوف » يرافقنى إلى مجالس اللهو والشراب ، لكنه كان يجلس ينظر ويستمع ، ويأكل « المزة » بدون أن تمتد يده — مجبنة — لرفع كأس ، أو غمز عضد ! فقد كان منكمشًا متخاذلا ، وكان خجله يصيبه برعدة خفيفة خشية أن يبدو مضحكًا ، وحين يتكلم كان يخالجه التردد ، وتلوح عليه أمارات الانفعال ، غير أنه ينقلب متكبراً متعجرفًا حين يلفى نفسه فى محيط لا يعرفه فيه أحد . ولولا هذه الكبرياء التى تقيد حركاته لكان له من شبابه ما يدفعه إلى غير قليل من الحماقات والسخافات التى تورطت فيها ، ويأخذها على ! . . . .

وما إن مر عامان حتى وصلت إلى النهاية التى لابد أن يصل إليها كل من سلك سلوكى ، وانتهج نهجى ، فضاعت الثروة التى ورثتها عن أبوىّ ، أو كادت ، وضعفت صحتى ، وذبل شبابى . . ولولا أنى وجدت فى صديقى « عبد الرءوف » هذا إنسانًا يأسى علىّ أكثر مما آسى أنا على نفسى ، ولولا أنى وجدت فيه مواسيًا ورائداً ينتشلنى من نفسى حين أهمّ بأن أوردها — استهتاراً أو يأسًا — موارد التهلكة ، لولا هذا لما قدر لى أن أسود هذه الصفحات !

وأفقت أخيراً من غفلتى ، وأدركت — بوساطة هذا الصديق الناصح الملحاح — أنى أبعثر أطيب أيام عمرى بلا جدوى ، وفطنت إلى أن هذه خسارة

لا تعوض بوجه ولا حيلة ، وأحسست عمق حاجتى إلى الهدوء والاستقرار . .

وخطا « عبد الرءوف » خطوة إيجابية لتكوين أسرة ، فخطب إحدى زميلاته . . وقد رافقته غير مرة فى زياراته لخطيبته « أبلة سعاد » فى بيت أهلها ، وصحبتهما معاً ليالى كثيرة — داعياً أو مدعوًّا — إلى المسارح ودور السينما . .

و « سعاد » شابة على قدر من الجمال والذكاء ، وعلى قدر أكبر من المرح والجاذبية ، وهى تعرف عنى الكثير ، فإن « عبد الرءوف » لا يفتأ يقص عليها بعض أمرى ، ويحدثها عن غرامياتى ، فتألم لحالى ، ولا تمل من ترغيبى فى الزواج كلما التقينا . .

كم قالت ناصحة مشفقة تلك العبارات المتواترة : تطلع إلى المستقبل ، فمن جار على شبابه جارت عليه شيخوخته . . عزيز علىَّ أن أراك تقضى تسعة أعشار الليل والنهار فى الشوارع والمقاهى والحانات ، خشية لقيا تلك الحجرة التى طالما تحدثت عن الفوضى التى تعمها . . إلى متى تبقى نزيل الحجرات المفروشة و « البنسيونات » ؟ ! إلى متى تظل « ردّ » ملاه وحانات ! : . لقد جاء الوقت الذى يجب عليك فيه أن تنظف سمعتكَّ . . يجب أن يكون لك بيت تستقر فيه ، وأسرة تنعم بينها . . فى نفسى أن اختار لك عروسًا تسكن إليها وتستريح . . عروسًا تملأ عليك حياتك ، وتسد فراغ عينك . . إنى أفهمك أكثر مما تفهم أنت نفسك . . وإنى — والله — لحزينة لأجلك ، متألمة لحالتك . دعنى فأختار لك « التيب » الذى يوائمك ، فمثلك لا تصلح له أى عروس ، مهما تكن جميلة . . أنت تحتاج إلى شاعرة رهيفة الحس . . أنا لا مصلحة لى فى زواجك ، لكنى مشفقة من سهرك الليالى ، وتبذيرك مالك وصحتك . .

ويوماً كنت فى زيارة « سعاد » ، فى صحبة خاطبها « عبد الرءوف » ،

فلفت نظرى إطار جديد أنيق ، على النضد فى حجرة الجلوس . .

تناولت الإطار فإذا الصورة صورة «سعاد» بين صبيتين فى مثل سنها . .

أخذت أتأمل الصورة ، فألفيت إحدى الصبيتين قد جمعت فى ملامحها مشابه من الحسناوات الغاليات : « أليس » و « مارى أنطوانيت» و « جوزفين » . . لها من هذه عيناها وجبينها ، ومن تلك فمها وذقنها ومن الأخرى سحنتها وقسماتها . .

وغرقت فى بحار الأفكار . .

ولحظت « سعاد » ذهولى وأنا أتطلع إلى الصورة ، فضحكت ، بل قهقهت ، وربتت كتفى ، وقالت : إلى أين سافر بك الخيال ، يا « عبد الرحمن » ؟ !

— أوه ! . . من هذه التى عن يمينك ؟ !

تأملت الصورة ، والإطار فى يدى ، وقالت : هذه . . « سمية » . . « أبلة سمية » . . زميلتى ، وزميلة « عبد الرءوف » . . مدرسة العلوم . . نقلت إلى مدرستنا فى هذا العـــام . . إنها الكاملة المحاسن ، وإنى و « عبد الرءوف » لنرشحها عروسًا لك . . واعتقادى أنها سوف تنسيّاك — متى عرفتها — من عرفت من قبل ، فهى جمال وكمال ، وحلم وأدب ، وظرف ورقة . .

قال « عبد الرءوف » : أخرجينى أنا من هذه المسألة . . إنى أحب أن أسير على الحكمة القائلة : « امش فى جنازه ، ولا تمش فى جوازه » !

قلت : أفهم من هذا أنك غير موافق على ما وصفت به « سعاد » زميلتكما من كمال المحاسن ؟

قال : لا . . ما قلت هذا ، ولاعرضت له . . وإن زميلتنا « سمية » لجديرة بكل ثناء وإطراء ، غير أن ترشيح زوج مسئولية كبيرة ، لا أحب أن أتورط بالاشتراك فيها . . وفى اعتقادي أن الزواج اليوم يجب أن يقوم

على التفاهم الكامل. أما اللجوء إلى طريق « الخاطبة » — وإنْ فى صورة مهذبة — فلا أظنه زواجاً ناجحاً .

قالت « سعاد » : وكيف يحدث التفاهم الكامل ، إن لم يكن لقاء وحديث ؟! .. إننى لا أفعل أكثر من أن أقدم إلى صديقنا العزيز زميلة طيبة جميلة وديعة ، يشهد لها الكل بالاستقامة وعزة النفس .. سأمهد لهما اللقاء الأول ، لإيمانى بأن « سمية » هى العروس التى يريدها « عبد الرحمن » ، ويحتاج إليها ، وأنها التى تنتشله مما هو غارق فيه .. :

قلت : هل تعتقدين أن رجلاً مثلى يسعد فى زواجه ، ويصلح لتكوين أسرة ورعايتها ؟ ! .. لقد عرفت حسناوات كثيرات اختلفت ألسنتهن وألوانهن ، وتباينت أديانهن وجنسياتهن ، فأخشى أن تكون هذه المغامرات ..

— هذه المغامرات الماضية إنما هى « بوليصة تأمين » ، تضمن نجاحك فى الزواج .. لقد عرفت كل شيء ، فلن يخونك عزمك لو تزوجت !

قال « عبد الرءوف » : تقصدين أن ماضى الرجل « حقنة تطعيم » ضد الإخفاق ، تحصّن الزواج ، وتحفظ الزوج من الانحراف ؟ !

قالت : نعم ، فلا بد من تعثر قبل كل استقامة على السواء .. و « دوران » الرجل يزيد من رغبته فى الهدوء والاستقرار ، ويجعله أشد حرصاً على حياته الزوجية .. على كل حال اسمع يا « عبد الرحمن »... « سمية » سترافقنى غداً إلى الحلاق ، فى ميدان « سليمان باشا » لنسوّى شعرنا ، ثم نذهب إلى حديقة « جروبى » ، لنتناول الشاى ، حيث يكون « عبد الرءوف » فى انتظارنا هناك .. فتعال .. ستكون هذه فرصة لتراها ، وتتحدث إليها ، ثم تحكم ..

قلت : أتعرف زميلتك أنى قد أحضر ؟ !

— من أين لها أن تعلم وأنا لم أحدثها فى شىء بعد ؟ ! . . لست واثقة أنك راغب فى الزواج ، بل فى رؤية عروس ! ثم . . يجب أولاً أن تلتقيا وتتعارفا ، ليمكن أن نسأل كلاً منكما عن رأيه فى الآخر . .
— حسنًا . . سأحضر . .

٤٨

رأيت « سمية » ، ودار بيننا حديث ذو شجون ، فإذا شخصيتها لا تبعث فى النفس أثراً طاغيًا ، بقدر ما تثير الشعور بخوف مبهم خفى . والإحساس بأنها من أولئك الفتيات « الناصحات » اللائى لا يسهل اكتساب ودهن واستمالتهن ! . . إنها جميلة وديعة ، لكن يخيل إلىّ أن هذا الهدوء ، أو البرود ، الذى يطبع مظهرها ، ليس إلا صدى حزن دفين ! ففى عينيها المليحتين قلق مكبوت ، وتطلع إلى مجهول . وانتظار طال أمده ، وعاطفة جاشت ، ثم هجعت إلى حين !

وهى تحاول أن تكون فاتنة جذابة ، فتتحدث فى رقة وشبه همس ، وترفع عينيها كما ترفع أزهار البنفسج كؤوسها الحيية متعطشة إلى الندى ؛ وتدرج رشيقة الخطى ، كالعصفور حين يهبط ليستقى أو يلقط الحب ! . . لكن هذه المحاولة لا تخفى على عين خبير مثلى ، فإن « سمية » ظمأى صادية ، تبحث عن ينبوع حب ، وإن وراء هذا المظهر الخارجى البارد ناراً ملتهبة تشتعل فى حذر وحرص !

هذا هو الأثر الذى تركته « سمية » فى نفسى ، فى أول لقاء . وقد أويت إلى فراشى ، فى تلك الليلة ، وأنا أفكر فيها ، وذاكرتى تستعيد حركاتها وسكناتها ، وأقوالها وإشاراتها . .

كنت أفكر فيها لا كما كنت أفكر فى الحسان اللائى عرفتهن من قبل ، وإنما هو تفكير يحيط به الحنان ، وتلفه الرغبة فى امتلاكها ،

لإسعادها هي ، ومحو شقائها الذى تحاول إخفاءه . . إنه تفكير غريب حقًّا ، فكأنى أريدها لنفسها ، أكثر مما أريدها لنفسي !

وأبى خيالها أن يفارقنى حتى الصباح . :

وفى تلك الأيام كنت أحيا حياة عارية من المباهج ، ودواعى السرور والهناءة ، ورأيت « سمية » جديرة بأن أغزو قلبها ، وأتسلط على عواطفها ، وطمعت فى أن أفيض على قلبي بعض الدفء الذى يبعثه قربها وحبها . . لكن . . ما لى ؟ ! . . أى تغيير أصابنى ؟ . . ما هذا الاضطراب الذى يعرونى لذكراها ؟ ! . . ما هذه الرعدة التى أحسها حين أراها ، وأجلس إليها ؟ !

لو استطاع إنسان أن يقرأ قلبي أيامئذ لاعتقد أنى هاو فاتر الحس ، خامد العاطفة ، أو محب مبتدئ ، يقيد الشغف لسانه ، ويحبس الكلمات فى صدره !

أتراني أحببتها ؟ !

يخيل إلىّ أن نعم !

ولماذا أحببتها ؟ !

ألجمالها ؟! : . ما أكثر ما عرفت من جميلات !

ألذكائها ؟! . . لم يظهر منه ما يصح أن يكون ميزة لها !

ألثقافتها ؟! . . مهما تكن فلن تسمو إلى ثقافة الحسان الباريسيات !

ألمالها ؟! . . لا أظنها تفضلنى فى هذه الناحية !

فلا شك — إذاً — أن هناك موحيات خفيّة قديمة راسبة فى أعماقنا ، توجهنا ، وتسيطر على حياتنا !

* * *

قرأتْ « سمية » ما فى عينيّ ، وقرأتُ ما فى عينيها ، وتفاهمنا . . فميولنا تكاد تلتقي وأغراضنا توشك أن تتحد ، وأمزجتنا يلفّها الوئام والوفاق . .

وأحببت « سمية » . . وشقيت بهذا الحب من مبتدئه ، بقدر ما سعدت به ، إذ استحوذ عليّ خوف وجبن ما عهدتهما فى نفسى من قبل . . وقد فكرت فى هذا الخوف والجبن ، فإذا مأتاهما أن ماضيّ حالك ، حافل بالذكريات ، وأن « سمية » تمشى مرفوعة الرأس ، بلا ماض يثقل خطاها ، فكيف يجتمع النقيضان ؟ !

هبنا تزوجنا . . أفلا تحس « سمية » بعد حين عبء ماضيّ يثقل على قلبها ، ويضيق به صدرها ، فتتنغص هناءتى وهناءتها ؟ !

إن هذا الماضى الأثيم هو مصدر ما أحسه فى حضرتها من اضطراب كان يفارقنى حين أبتعد عنها ، ليترك وراءه هياجًا وأسى وقلقاً ، أكثر مما كنت قبل رؤيتها ! إن هذا الماضى شبح يقف بينى وبينها !

كانت « سمية » تفارقنى ، فأسقط فى وحدة بشعة ، أتألم فيها وأشقى ، وأنفر من المجتمع ، ولا أطيق أن ألقى إنساناً أفضى إليه بألمى ، وأجد الراحة فى جواره . . ثم تنقضى ساعات . . وإذا أنا أحس حاجة ملحة إلى الاجتماع ،لكن الليل قد تقدم ، فآوى إلى حجرتى ، وأطرح نفسى على الفراش ، وأبيت أتقلب ، والآمال والذكريات تعبث بى عبثاً جريئًا لا يرحم وحدتى ،فأنظر فى حيرة وغيظ إلى جدران الحجرة الصماء ، الجاثمة فى جمود ، وأنا أتمنى لو أستطيع أن أحطمها ، وأنطلق فارًّا منها . . كانت هذه الجدران تمثل سجنًا يضمنى وحدى ، فلا أغمض عيناً ، وإنما أبكى كالطفل فقد لعبته العزيزة .

كم كان قاسيًا هذا الذى كنت أعانيه ! . . إنه حالة مريعة كنت ألتذ بها فى الماضى ، وأحسها تشبع روحى ، وتهدئ ثورة نفسى . أما الآن — والليالى تمضى بى بطيئة مكتهلة متشابهة — فإنى أشعر بالحقد على هذا الماضى الذى اقتنصه الشيطان ، وسخرنى فيه تسخيراً . .

كان ماضيّ قاسيًا عليّ ، وكنت ألتذّ فيه بهذه القسوة ، وأفتش

عنها ، وأسعى إليها ، حتى ضيعت مالى ، وأنهكت قواى ، وأنا فى هذا كله أشعر بالسعادة الشاذة ! أما الآن فقد ازدادت نقمتى على نفسى . ووصلت إلى الوقت الذى أطالب فيه الحياة . . أطالبها للصديقة الجديدة « سمية » أكثر مما أطلبها لنفسى !

ألم أقل من قبل إن حادثًا واحداً قد يكفى ليطردنا من أنفسنا ، ويضع فينا وجداناً جديداً ، وإرادة جديدة ، ويخلق منا إنسانًا جديداً ؟ !

أترانى أمر بهذا الدور ؟ ! أو تراك أيتها الصديقة بطلته ؟ !

* * *

قضينا معًا أوقاتًا طيبة هانئة ، فى جزيرة الشاى بحديقة الحيوان ، وفى صحراء الهرم ، وصحراء مصر الجديدة ، وفى نوادى القاهرة ، وبساتين القناطر . . شاهدنا معًا الشمس تلملم أشعتها الواهنة ، وتختفى وراء البيوت . . رأينا معاً القمر يخطو وئيداً ، ويفرش الصحراء بنوره الفضى الهادئ . . سمعنا معًا الريح تصفر صفيراً خفيفًا ، كأنه أنة ناى بعيد . .وأحسسنا الرمال الناعمة تسفى فى رفق ولين ، كأنما تنبهنا من غفوة نخشى أن نستسلم لها !

وتأملت « سمية » جيداً . . إنها ليست فاتنة المنظر ، لكنها فاتنة الروح والنفس ! وهى متحفظة ، حتى يبلغ بها تحفظها حد الاكتئاب ، وهى ليست ثرثارة ، حتى أحس أنها لا تبدى التلطف فى بعض الأحيان إلا كواجب تفرضه المجاملة وقواعد اللياقة ! وصمتها يغيظنى ويحنقنى ، فلم أظفر منها إلا بالقليل ، فانعقد لسانى ، وقاومت رغبتى فى أن أضمها إلى صدرى !

وأكثر ما يلفت النظر فيها عيناها وشفتاها ، فعيناها الدعجاوان الواسعتان ، الفياضتان بالأسى ، تتحدثان عن حزن عميق ، وتومضان ومضات سريعة متتابعة ، وشفتاها الممتلئتان تنبآن عن عاطفة زاخرة ،

وتختلجان كأنهما تهمسان بكلمات غامضة !

اقتربت منها مرة ، وحدقت إلى عينيها ، فإذا هما تلمعان لمعاناً خاطفاً غريباً ، ارتجف له بدنى كله . . كانت نظراتها مجردة من ذلك الإغراء الذى تتكلفه الحسان فى هذه الأيام ، وكانت توحى بمعان يفهمها القلب ، ولا ينطق بها اللسان ! . . فلما لمست ذراعها العارية ، نظرت إلىّ نظرة غاضبة راضية ، ممتنعة راغبة ، مقبلة نافرة ، فتصنّعت الأسف ، وجرى لسانى بكلمات المعذرة والاستعفاء والوجد والوله ، حتى أشرق وجهها ، وتبسم محياها . . ولما أعطتنى يدها أقبلها ، أحسست الراحة تغمر نفسى ، وشعرت برغبة فى أن أرقص وأغنى كطالب صغير !

وبعد أربعة أشهر استطعت أن أطبع على شفتيها قبلة طويلة ، وكأننا قد التقينا مصادفة بعد تيه طال عليه الزمان ! . . وقضيت ليلتى أهتف بالغمض فلا أعرف السبيل إليه ، وأتملق الهدوء فلا يطمئن إلىّ نافره !

لم يعد للتبصر والحذر مكان فى نفسى ، واعترفت لها — لنفسى ، وأنا صافى النية ، نقى السريرة ، متمالك كل قواى — أنى قد أحببت « سمية » ، وأنى مشغوف بها . . ولم يعد يتسلط على مشاعرى ما كان يتسلط عليها من قبل من أمل فى إخضاع الأنثى الجميلة ، والرغبة فى استسلامها ، وإنما استحوذ علىّ شوق ملتهب إلى رؤيتها بجانبى فى كل آن !

وازداد إحساسى بوحدتى المملة ، وبأن شيئاً مهمًّا ينقصنى . . ينقصنى صميم كيانى ، وملء فراغ قلبي . .

٤٩

استشرت إخوتى وأخواتى وأصدقائى فى زواجى من « سمية » . فتباينت مشورتهم . .

زعم بعضهم أن صلات الحب ضروب من اللهو والعبث . وأنها إن لم تكن مباحة فهى — على الأقل — موضع الصفح والغفران . . وحذر بعضهم الآخر مما سموه « عمل الجنون » ، وهو أن يصل الرجل حياته بأنثى لا يعرف عنها كل شيء ، أو لا تساويه تمام المساواة فى الحسب والنسب ، والمزايا الظاهرة . . وقال الخبثاء أصدقاء السوء : إن الشاب يستطيع أن يتصل بكثير من الفتيات ، على اختلاف الطبقات ، وأن يهجرهن حين تحلو له القطيعة . . وهذا أمر لا ضير فيه . مادام الزواج لا يدخل فى منهج هذه الصلات . . : إن هذه الحال تسبب لهن قليلا من الهم ؛ لكنها توفر لنا — معشر الرجال — كثيراً من المسرة واللذة !

أما إخوتى وأخواتى وأصدقائى الذين استجابوا لرغبتى ، وأقروا فكرة زواجى من « سمية » ، فقد نصحوا بالتريث والانتظار ، وبأن الحزم ألا أتعجل الأمر . . وهكذا نحن دائماً : ننسج لأنواع عجزنا ، وضروب الضعف فينا ، بروداً تكسبها زى التبصر والقواعد المنظمة !

فكرت . . فكرت فى الأمس ، وفى اليوم ، وفى الغد ، وفيما يأتى به الغد . . وقررت — كما أشار شقيقى « عبد الحميد » — أن أبوح لها بماضى كله ، فهذا خير لنا كلينا ، لنعرف إلى أين نسير ، قبل أن « نتورط » ويمسى الفكاك عسيراً . .

ويوماً ، بعد أن تناولنا الغداء فى « جزيرة الشاى » ، أخذت أصارحها بكل ما أريد ، وأجسم لها ما أقاسى بدون أن أرفع عينى إلى وجهها ،

كيلا تصلدنى ابتسامتها وشعاع ناظريها عن إتمام اعترافى . . .

ولست أدرى كيف تقبلت هذا الاعتراف ، ولا كيف كان وقعه على قلبها ! . . وسواء لدى أبالرضا تقبلته ، أم بالسخط والنفار ، فحسبي أنى أرحت ضميرى ، وجلوت لها ما ينبغى أن تعامه ، يدفعنى إلى هذا أنبل دافع .. فلشد ما كان يؤلمنى أن أخدعها اليوم ، فنشقى معاً فى المستقبل . وإنه لخير ألف مرة أن أذل كبريائى ساعة ، من أن أراها — فيما بعد — منغصة فى حياتها ، نادمة على ارتباطها بى ؛ ومن ثم كان هذا الاعتراف واجباً ، وكنت مضطراً إلى أن أفضى لها بما يخنقنى ، فجاء اعترافى نفثة مضطرمة لإحساس يعانى ألماً مبرحاً ، يتجدد برؤيتها والتفكير فيها .

إنها لحرة . . فلها — بعد هذا الاعتراف — أن تقبل يدى أو ترفضها . . فقد أديت واجبي كرجل شريف ، وبصرتها بحقيقة أمرى ، وبما هى مقدمة عليه ، ولم أحاول غشها والتغرير بها ؛ فإن ارتبطنا عشنا سعداء ، وإلا يكن ، فسأتم وحدى ما كتب علىّ من شقاء . .

يا لسخرية الحياة ! وما أعجب ما تأتى به الأيام من متناقضات ! فقد نحيا فى رفقة بعض الناس طويل زمن ، فى مودة وصداقة ، لكننا لا نخاطبهم مرة واحدة من صميم نفوسنا ؛ وقد نرى بعضاً آخر ، فلا يمضى على تعارفنا غير القليل ، حتى نظهره له مكنون ضمائرنا ، ونطلعه على أسرارنا ؛ وهذا ما كان بينى وبين « سمية » : بحت لها بسريرتى ، وكشفت لها نفسى ، وحدثتها عن أشياء لا يعرفها غير الخلصاء ، ولم أحبس عنها إلا ما لا يقال ، لأنه لا يقبل أن يقال !

وإذ فرغت من اعترافى الطويل ، لم تقل إلا : « ربنا يدبرها » !

وغرقتْ من بعدُ فى دوامة تفكير عميق . .

وقضيت الليل أفكر فيها ، وأحلم . . أحلم ، فأرتاح وأطمئن ، وأبتهج وأبتسم للحياة ، ويشرق المستقبل فى وجهى كالفجر الوردى !

يا رعاك الله ، أيتها الصديقة ! . . إنى — حين أفكر فيك — أسلو بك عمن فقدت ، وتختفى الأحزان !

* * *

كنا على موعد نلتقى فيه أمام دار « سينما مترو » ، لنشاهد عرض قصة « تزوجت ملاكاً » . . وكنت أنا وصديقى « عبد الرءوف » نسير فى شارع « فؤاد الأول » ، فى منتصف المسافة بين مبنى « المحكمة المختلطة » و « الأمريكين » حين لمحت « سمية » بين « سعاد » وشقيقتها ، فدفعنى الشغف — أو النزق والطيش — إلى الإسراع ، لألحق بهن قبل أن يملن إلى شارع « سليمان باشا » . .

وفجأة وجدتنى مرمياً على الأرض ، وفوقى سيارة . .

تجمع الناس ، وجرى « عبد الرءوف » ، ووضعونى فى السيارة التى صدمتنى ، لتنقلنى إلى « الإسعاف » . . ثم عدا « عبد الرءوف » ، وعاد بهن . .

وتحملت من الألم شديداً ، وأنا أحاول أن أظهر بمظهر القوى الجليد . .

كانت إصابتى الظاهرة خفيفة ، فأصررت على أن نذهب إلى السينما كما تواعدنا من قبل ، وهم يحاولون أن يصرفونى عما أريد ، وأنا لا أزداد إلا إصراراً . .

ذهبنا إلى السينما . . وكان شكلى وحده سينما . . « أفندى » طويل عريض وجهه معفر ينطق بالألم على الرغم من الابتسامة المزيفة ، وثيابه ملطخة ، وأحد حذاءيه مقطوع ، والآخر مخلوع ، وقدمه معصوبة ، وهو يمشى يعرج مستنداً إلى رجل ، وثلاث صبايا حسان يحطن به ، ويدخل السينما ليشاهد مناظر الآخرين !

اشتد بى الألم ، وورمت رجلى ورماً بالغاً ، وفقدت الشجاعة التى

كنت أستعين بها على تحمل هذا الألم المتزايد . .

وذهبوا بى إلى « المستشفى الفرنساوى » ، وكشفت الأشعة أن مشط قدمى اليسرى ، وكعبها ، قد أصابتهما كسور وشروخ . .

زارتنى « سمية » فى الأسبوع الأول ثلاث مرات . . وفى المرة الرابعة التقت بشقيقى « عبد الحميد » ، ودار بينهما حديث طويل ، فتوهمت أنه يبغى إفهامها أن أهلى غير راضين عن زواجى بها ، فتركتنا كئيبة غاضبة . وانقطعت عن زيارتى . .

وأحسست إحساساً مضاعف الألم بالوحدة تسحقنى سحقاً ، وبالفراغ يرهق أعصابى تلفاً واضطراباً . .

لقد توهمت أنى واجد فى « سمية » الشريكة التى تقاسمنى همى وحزنى ، كما تقاسمنى فرحى وسعادتى ؛ وأحسست أنى أحببتها ، وأنها أحبتنى ، ولأجلها هجرت الصديقات جميعاً ، واستولت علىّ حالة تصوف عجيب ، وظللت نصف عام أتخيل حياة الهدوء والاستقرار ، وأحلم بالبيت السعيد ، والأسرة والأطفال . .

أكانت تلك أحلام أطفال كبار يخدعون أنفسهم ؟ ! أكلما التقيت فى دربى بالصدر اللين الحنون ، الذى أريح فوقه رأسى ، فقدته وحرمته؟! أترى قدّر علىّ أن أترك الدنيا محروماً شطر روحى ؟ ! أتنقضى حياتى بدون أن أنعم فى جوار من جئت إلى الدنيا لأجلها ؟ ! أعلى كثرة ما شربت من خمر الغيد أروح آخر اليوم ظمآن ؟ ! أعلى كثرة ما غنيت أموت وبين جنبى أغان حبيسة ، لم يتح لى أن أشدو بها ، لأن الأصابع التى خلقت لتجذب أنغامها من قلبى لم أهتد إليها فى سفر الحياة ؟ ! أواه ! أيتها الأنغام الشجية ، يا أشجى من كل ما غنّيت ، ارقدى بسلام ، فقد قدّر عليك ألا تخرجى إلى الوجود ، وأن تظلى سجينة قلبى إلى الأبد !

* * *

انقضت ثلاثة أسابيع منذ انقطعت «سمية» عن زيارتى فى المستشفى، لكن طيفها أبى أن يفارقنى . . وحاولت أن أتصبر وأتناساها، فأخفقت محاولاتى كلها، بل لم تزدنى إلا تعلقاً بها . .

وكرهت المستشفى. وكرهت الحياة . . وقبل أن أبرأ وتلتئم جراحى، وتنجبر كسورى، تركت المستشفى متوكئاً على عصا. وعلى الصديق العزيز «عبد الرءوف» . .

٥٠

تعبت . . تعبت حقًّا . . وزاد من أساى أنى لا أملك تغييراً ولا تبديلا لشىء قد وقع ومضى . وهل للإنسان حيلة فى تغيير ما كان ؟ !

وبدأت أروض نفسى على أن أحبس فيها كل ما أشعر به، وأخذت أفكر فى الخطط التى تمس الوحدة لا الاجتماع، وصرت لا أعتمد إلا على نفسى فى إنفاذ ما أضع من خطط؛ بل لقد عددت آراء الآخرين مضايقة لى، وعثرة فى سبيل هناءتى.

ويوماً بعد يوم جعلت الرغبة فى العزلة تغزو نفسى، وحب الانقباض عن الناس يتغلب علىّ، وسئمت الصلات بينى وبين من حولى، وأصبحت أتنزع من عقد صداقات جديدة. وأمسيت لا أشعر ببرد الراحة وعذوبة الاطمئنان إلا فى الوحدة؛ وأخفيت فى أغوارى ما يعتلج بين جنبى. لا أخرج عن صمتى، ولا أطيق الحديث إلا بمعاناة؛ وفى هذه الحال كنت أقطع الحديث بالنكات الهزيلة، والدعابة المتصلة، لأعمِّىَ الطريق إلى نفسى، وأخفى عن الناس أفكارى!

وفى وحدتى عكفت أدير الأفكار فى رأسى . . وانتهيت — بعد تفكير طويل عميق، وبعد مجاهدة عنيفة — إلى نوع من الفلسفة،

هو أنى أريد أن أغير روحى . .

نعم ؛ أريد أن أغير نفسى كلها . . وليس فى ذلك شىء من المغالاة أو شىء من الاستحالة . . بل إنه أمر معقول ، وتجربة يمكن أن تنجح ؛ فما أنا إلا ربع قرن من العادات والحوادث ، والأفكار والأقوال والأعمال!.. إن نفسى هى العمل الذى أعمله ، والحى الذى أعيش فيه ، والمنزل الذى أسكنه ، وصديقاتى وأصدقائى وزملائى . . إنها ذلك العالم المألوف لى ، المحيط بى ، الذى يضغط علىّ ، ويخنقنى ، والذى أريد أن أرفعه عن عاتقى ، وأطوّح به بعيداً . .

ولم أروّ أو أتأنّ ، بل اندفعت كالمحموم ، فغيرت الحى والمنزل ، وتركت الإقامة فى قلب القاهرة إلى ضاحية المعادى ، وهجرت الصديقات وتجنبت جل الأصدقاء ، واعتزلت . .

وأطلقت العنان لخاطرى ، فانطلق يتنسم كل حرز ، ويرتاد كل مكان ، فراعنى أن ألفيت كثيراً مما لُقّنته هراء وسفاسف وأوهاماً . . وقد هالنى ذلك ، وآذانى ، وحمل إلىّ الشك فى كل شىء . . ففزعت إلى نفسى أصفى جوهرها مما علق به من أدران الأباطيل : أقذف هنا بالشبهات ، وأرمى هناك بالسخافات ، وأهزأ بما لا يقره المنطق من متوارث السنين والعادات ، حتى وجدتنى كأنما نشئت خلقاً جديداً ، حرًّا قبل كل شىء ، طليقاً ، مستقلا ، ما يربطنى بالحياة إلا الفكر ، ولا يصلنى بالناس إلا الرأى الأصيل !

وهكذا نفعنى العقل ، وآذانى . . أما النفع فلأنه فتح عينى على مواضع الزلل ، فاجتنبتها ، ووسع علىّ أبواب الحياة ، فدخلتها باباً باباً ، وعلمنى معنى الرجولة الحق ، بعد أن رفع من قدرها فى نظرى وكرّمها علىّ . . وأما الأذى فلأنه فتح عينى على مخزيات كان من الخير ألا أعرفها ، وبث لى فى كل سرور ألماً ، وأرانى طىّ كل نعمة نقمة ، وطوانى على القلق والحيرة

والشك ، فضيق علىّ هنا من حيث وسع هناك ، وجمّل الحياة فى عينى من جانب ، من حيث شوهها فى كل الجوانب !

ولجأت إلى كتاب الله أتلوه فى وعى وخشوع .. وتباىج لى فجر جديد .. وآمنت .. آمنت إيماناً لا يقوم على التقليد والوراثة ، ولا على الإحساس والعاطفة ، ولا على العقل واقتناعه ، وإنما آمنت إيماناً قائماً على الإيمان وحده ! .. « ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شك » ، كما قال النظام !

لم أفكر فى أن أصير عابداً زاهداً .. لا ، فحسبى أن أصبح إنساناً طيباً خيّراً ، أعين المحتاجين ، وأخفف آلام المنكوبين – وما أكثرهم ! .. حسبى أن أضحى بشهواتى ، وأن أوثر الآخرين بالحب والبر ..

وبدأت أمارس الفضائل وأعمال الخير ، وأخذت نفسى أخذاً عنيفاً بأداء الصلاة لوقتها . ولحرصى على صلاة الفجر فى المسجد اتهمت بأنى قد أصبت بلوثة دينية !

كنت أستيقظ فى جوف الليل ، فأغتسل بالماء البارد صيفاً وشتاء ، وأخرج إلى الطريق الصامت الساكن ، كأنه مدينة الموتى ، لا أبالى بعصف الريح ، أو هطول المطر ..

وجعلت أتفقد اليتامى والأرامل ، والعجزة والمرضى ، وأبذل جهدى ما استطعت لأدخل البهجة على الحزانى والمتألمين ..

لم أعد أجرب اكتساب الفضائل بطرق خيالية ، وإنما سرت فى الطريق السوىّ ، وضربت الأمثال للناس على نجاح التوبة ، والقدرة على التضحية والإيثار ، فحظيت بإجلال عارفىّ ، وتقدير من حولى ! .. صحيح أن طيبتى وإنسانيتى لم تخففا الكثير من هموم البشر الثقيلة ، لكنى كنت سعيداً ، لأنى صرت إنساناً خيّراً ، يؤمن أن العمل الطيب هو روح الحياة ، وملاك السكينة وأس السعادة والسلام النفسى ..

وتقدمت فى طريق الفضيلة ، لأنى قنعت ورضيت ! .. لقد جربت

كل شيء ، حتى سئمت كل شيء ، فلم يعد يلفتني اليوم ما كان يصيبني بالأمس ، ولم يبق للحوادث على نفسي من سلطان إلا بمقدار ما يسمح به عقلي ، ويرتضيه فكري . .

وشفيت من دائي ، واستراحت نفسي المتعبة ، وهدأت ثائرة ضميري الحائر ، وانشرح صدري المنقبض ، وولجت الحياة من باب جديد !

* * *

كتبت إلى « سمية » رسالة حملتها العزيزة « سعاد » . .

وحضرت « سمية » في الموعد الذي ضربته . .

كانت حزينة واجمة . وبعد حديث طويل قالت : ساءني كلام شقيقك « الدكتور عبد الحميد » . . فلهجته كانت توحي بظن أهلك أني أعترض طريقك ، وأعرض عليك شيئاً تأباه نفسك ، وأفرض عليك أمراً يرفضه ذوقك . . وساءني أيضاً أنك لم تحاول تلطيف الجو ، وتخفيف التوتر .

— إن الصراحة في مثل هذا المقام خير من الخداع والنفاق . وإن ما علمته عن ماضيّ قد يكون ذا أثر سيئ في نفسك . . ولهذا أقول لك إن زواجنا قد يتم ، وقد لا يتم . لكن الأمر الذي لا ريب فيه هو هيامي بك . . وسواء تزوجنا أولم نتزوج فموقفي منك لن يتغير . . وسأعيش وأموت على الولاء لك . . وسأكون دائماً صديقك الصدوق الوفي . . فاذكري هذا جيداً يا « سمية » . .

— وهل من الحصافة أن أتزوجك على كره من أهلك ؟ !

— أعتقد أن مرجع هذا لنا كلينا ، لا لأهلينا وذوينا . . وثقي أني رجل رشيد ، وإن عزمت على شيء فلن يردني رادّ ، ولن تثبت في طريقي عقبة . . المهم أن تغفري لي ما مضى !

— أتظن أني أحقد عليك لهذا الماضي ؟ ! . . لا ، يا صديقي . .

إن الماضى الميت هو الذى صقل روحك ، وأرهف حسك ، وجعل منك هذا المخلوق المحبوب . . إنك لن تكون رجلى المنشود إلا إذا كان لك ماض ، وإلا إذا مات هذا الماضى لأحيا مكانه .. إن الرجل الذى لا ماضى له مثل الكتاب الذى كسدت سوقه بعد طبعته الأولى ! .. أما الكتاب الناجح فيقاس بعدد طبعاته السابقة، وكلما تكررت الطبعات دل ذلك على أن الكتاب لا يزال مرموقاً بعين التقدير والإعجاب . . والذين حصلوا على الطبعات القديمة يحسدون من يفوزون بطبعته الجديدة المنقحة المهذبة المصقولة ، الغالية الثمن ! . . ليس المهم أن أغفر لك ما مضى ، وإنما المهم أن تنسى أنت هذه الذكريات !

كانت — وهى تتحدث — كأنها تتناول رأسى فى رفق ، وتسكب الكلمات فى أذنى بحنان ، وكأننى طفل مدلل . .

لقد كنت أنشد مثل هذه الفتاة منذ زمان . . . .

* * *

ثم لعبت بعقلى الظنون، واستولى علىّ خاطر غريب ، لوّث خيالى عن « سمية »، وزعزع ثقتى بها ، وجعلنى أرتاب فى صدق حبها ووفائها؛ فقد انتابتنى غيرة رهيبة قاتلة ، غيرة شاذة لا تستند إلى أساس ، لأنها غيرة من الماضى !

لم لم تتزوج بخاطبها السابق؟ ولم تأبى الحديث عن فترة خطبتها هذه ؟ . . إن امتناعها الحذر عن الاسترسال فى الكلام عن هذه الفترة ، وصرفها الحديث إلى أى شأن آخر ، أمر يدعو إلى الارتياب وإمعان الفكر . .

إن صلتها بخاطبها كانت صلة علنية ، ولم تكن بالعلاقة الخفية كالتى بيننا ، وليس من المعقول أنها هى التى رفضت الزواج به، بعد أن استمرت خطبتهما قرابة عام ، وليس من المعقول أيضاً أنها هى التى رفضت — فيما

بعد – خطبة أربعة من كرام الخاطبين ، فقد كنا أيامئذ فى أزمة زواج ، وكان فى البلد مليونا فتاة ينتظرن . .

رباه ! لكم هو عذاب أليم أن يشك المرء فى عزيز عليه ! . . لكن ماذا أفعل ، وهى تخفى عنى أشياء كثيرة ؟ ! ربما كانت أشياء تافهة لا قيمة لها ، لكن يجب أن أعرفها ، وأن تحدثنى عنها ، فأى رجل أكون أنا إذا ظهرت أمام الناس وبجانبى زوجتى التى أحببتها ، واخترتها من بين الفتيات ، ورجل أو اثنان أو أكثر – من هؤلاء الذين يزحمون المقاهى والشوارع ودور السينما – ينظرون إلىّ وإليها ، وهم قد عرفوها قبلى ، وأنا أجهل من هم ؟ ولا أعرف ما كانت صلتها بهم ؟ وماذا قالوا لها ؟ وأى الأمكنة ترددوا عليها ؟ ! . . أريد أن أعرف كل شىء . .

إن حبى لها ليزداد لو عرفت ، وإن بغضى ليزداد أيضاً لهؤلاء الذين سبقونى إلى معرفتها ، والجلوس إليها ، والتحديق إلى عينيها . .

أريحى قلبى المعذب يا « سمية » . .

لا ريب أن لك ماضياً حافلا بأنواع الهناء وأسباب الشقاء . . ولا شك أن رأسك قد امتلأ بالأفراح والأحزان ، بالظلال الضخمة والأطياف المزيلة . . فبوحى لى بهذا الماضى يا حبيبتى . . أسمعينى ذكرياتك ، لأعرف عنك الكثير . . لقد مر بك ربع قرن . . فماذا كنت تفعلين ؟ وفيم كنت تفكرين ؟ وماذا قلت ؟ وماذا قيل لك ؟ وكيف كانت تجرى حياتك ؟ !

لولا هذا الماضى المجهول لحملتك إلى جهات نائية ، وكشفت لك فتنة المساء فى ليالى الصيف ، وجعلتك تتذوقين جمال الطرق الطويلة المهجورة . وأخبرتك بأسماء القرى الجميلة التى يقع عليها بصرنا ! . . لولا هذا الماضى لأريتك العالم ، وفتحته لك ، فأنا أجيد هذا كله .

وارحمتاه لى !.. لقد سبقونى إلى بعض — أو كل — ما أريد ، وتركوا طابعهم محفوراً على حياتك ، فلا أستطيع الآن شيئاً !

٥١

آمنت « سمية » أنى جاد فى تنفيذ مشروع الزواج ، بعد أن تخطيت العقاب ، وذللتُ الصعاب ، وتم الاتفاق على يوم إعلان الخطبة ..

وقالت باسمة الثغر ، مشرقة الوجه : لا تظن أنى غبية لم أفطن إلى ضيقك بكثير من تصرفاتى .. فالحق أنى كنت أتعمد هذه التصرفات ، وأرى فيها السلامة !

— لم يكن يثيرنى إلا صمتك وإباؤك الحديث عن الماضى ..

— أتظن المرأة كالرجل تستطيع أن تتحدث عن خاصة نفسها إلى كل من هبّ ودبّ ؟!

— أتعدّينى بين من هبّ ودبّ ؟!

— لا تغضب .. لقد كنت كذلك !.. فأنا لا أومن بصداقة تنمو بين ذكر وأنثى ليس بينهما وشيجة قرابة ، أو صلة رحم .. وأنت لم تكن فى نظرى سوى صديق لخاطب إحدى زميلاتى .. ثم تفتّح لك قلبى .. لكنى — مع حبى — طويت عنك أمرى ، لأنى أحسست أن كشف نفسى أمامك يشدنى إليك ، ويزيد تعلق قلبى بك ، وأنت من أنت .. صياد نساء لا يشبع !.. فأبوء أنا بالحسرة والحرقة والندم ..

— يا لك من ماكرة !.. على كل حال لا يهمنى إلا أن أعرف موقفك من خاطبيك ..

— خاطبىّ ؟!.. هكذا بصيغة الجمع ؟!

— ألم تخطبى غير مرة ؟

— أنا لم أقبل خطبة أحد إلا مرة واحدة .. وكان خاطبي هو الأستاذ « يوسف » . . المدرس بمدرسة طنطا الثانوية للبنات ، حيث كنت زميلة له . إنه شاب أسنّ منك ، وعلى حظ من المرح والرقة المصطنعة . وقد استمرت خطبتنا سبعة أشهر . وكنت أنا أسكن فى المدرسة ، وكان هو يروح كل يوم إلى قريته، التى لا تبلغ المسافة بينها وبين طنطا طول شارع من شوارع القاهرة . : وصدقنى إذا قلت لك إن « يوسف » — طوال هذه الأشهر السبعة — لم يظفر منى بقبلة كالتى ظفرت أنت بها ! .. ولم يكن ذلك عن عفة وتقى ، بقدر ما كان منه رعاية للعرف والتقاليد فى بيئته ، فهو من أسرة زارعة فى الريف . ولما بدأ ينشط ، وتلتهب عاطفته ، كنت أنا قد بدأت أنفر منه . لقد تبينت أنه « يهودى » فى استثمار المال والحرص عليه ؛ فلم يكن يشغل باله إلا العجول التى يشارك فى تربيتها ، والزرعة التى سيحصل على نصف حصادها خالصاً من دون جهد . . وكنت أتمنى آن تبدو منه بادرة غيرة علىّ بدون جدوى ! فى حين كان خاطب إحدى زميلاتى يغار علينا جميعاً — لا عليها وحدها — من أجل فراش شاب كان يقوم بخدمتنا . وأذكر أن « يوسف » رآنى مرة أجالس فى النادى هذا الخاطب — وهو أجمل منه وأثرى — لأحمل إليه رسالة اعتذار من خطيبته عن إبطاء مفاجئ .. أفتعرف ماذا حدث؟ ! .. لقد مر بى وكأنه لا يعرفنى ، ففرحت أكثر مما جزعت ، وقلت : لقد دب دبيب الغيرة أخيراً فى قلبه ؛ ولكن ما كان أشد جزعى وتقززى حين تقدم منى بعد ذلك يعتذر ضاحكاً : لو أنى جالستكما لاضطررت إلى الدفع ، ولهذا أشحت بوجهى ليدفع هو الحساب ! . . إن « يوسف » لا يدخن ، ولا يجلس فى مقهى ، ولا يتردد على ملهى ، بل إنه لا يفكر فى شىء من هذا . . لكنه يدخن ، ويجلس فى المقاهى ، ويشرب « البيرة » أيضاً ، ويذهب إلى السينما — إذا كان شىء من هذا لا يكلفه

فتح حافظة نقوده ! . . والأدهى من هذا أنه حدثنى فى لهجة وقحة عما أدفعه له شهريًا من راتبى . . تصور ! ماذا كان يظن هذا الأحمق ؟ . . أكان يظن أنى أستأجره ؟ ! . . وزادت وقاحته ، فجعل يحاسبنى فيم أنفقت راتبى ؟ ! فى حين لم يسألنى مرة فيم أنفقت وقتى ؟ ! . . لقد جعلنى — بما كشف من طباعه — أحتقره الاحتقار كله ، وأصر إصراراً ملحاحاً على فسخ خطبته . . صحيح أن من واجب الزوجة العاملة أن تسهم فى نفقات البيت ، فإن الزوج لم ينزل عن حقه فى تفرغها له ولبيته وأولاده إلا لتشاركه فى أعباء الأسرة المالية . . غير أن الطريقة الجافة التى تحدث بها « يوسف » كانت منفرة ، بعيدة كل البعد عن الكياسة والذوق والأدب ، وكشفت عن معدن نفسه الخسيس ، على الأقل من وجهة نظرنا نحن بنات حواء ؛ فإن المرأة إذا كشفت أن رجلها لا يعرف الحب ولا الصداقة ، وليس أهلا لهما ، فقد أقيم بينه وبينها حجاب ليس إلى اجتيازه من سبيل ! . . هذه — يا سيدى — حكاية الخطبة وفسخها . . وبعد ذلك بأيام ، صدر قرار نقلى إلى القاهرة ، فتركت الأستاذ « يوسف » ، وتركت له طنطا . .

— بلغنى أن أحد زملائك الحاليين قد أبدى رغبته فى خطبتك ، وأنك اعتذرت . .

— اسمع يا سيدى منذ جئت إلى القاهرة ، أو منذ فسخت خطبة الأستاذ « يوسف » ، تقدم أربعة يريدون خطبتى : ابن عم لى ، وزميلى الحالى ، وابن عم زميل ثان ، وأخو زميلة أخرى . . أما ابن عمى فموظف بإحدى الشركات الكبرى ، ذو مركز طيب ، ومرتب كبير ، لكنه دونى ثقافة ، فأنا جامعية — كما تعلم — وهو قد وقف فى تعليمه عند حد شهادة « البكالوريا » ؛ ثم إن قلبى لا يميل إليه ، وهذا هو أهم ما فى الأمر . . وأما زميلى الحالى فهو رب أسرة من قبل أن يتزوج ، إذ يرعى

أمه الأرملة ، وأخته الطالبة ، وهما تقيمان معه ولن تتركاه ؛ وأنا أريد أن أكون حرة مستقلة فى حياتى الزوجية ؛ وفى نيتى ألا أشرك أحداً — ولا أمى نفسها — فى شئون بيتى وأمور زوجى . وأما ابن عم الزميل الثانى فيكبرنى بخمس عشرة سنة ، وهو طيب إلى حد البله . . وأما أخو الزميلة الأخرى فهو — على رفعة قدره ، وسمو منصبه ، ورغبته فى أن أترك عملى وأتفرغ له وللبيت — قد أتم الأربعين . ألست ترانى — بعد أن عرفت هذه الحقائق — محقة فيما فعلت من رفضى الزواج بأحد منهم ؟ !

— إنما كان القدر يدخرك لى ، يا حبيبتى !

* * *

وتزوجنا . .

وبدأنا حياتنا حبًّا جارفاً ، وهوى عنيفاً ، وإخلاصاً متبادلا ، ووفاء نادراً . .

وعشنا عاماً وبعض عام ، وحياتنا تدور فى فلك من الغبطة التى لا تطولها الأوهام ، فكلانا سعيد بصاحبه ، يبادله عواطف الحب والتقدير : وينظر إلى الحياة معه نظرة فياضة بالهناءة ، ملؤها الأمل الحلو ، والرجاء الباسم ، والتطلع إلى المستقبل البعيد فى ثقة وطمأنينة . .

كنا نقضى عطلة الأسبوع ، وإجازات الأعياد والمواسم ، بعيداً عن ضوضاء القاهرة ، نمرح بين الحقول والبساتين ، ونلهو على شواطئ البحر أو النهر ، فنغذى حبنا وهوانا ، ونجدد نشاطنا وقوانا . . وكنا نتناول عشاءنا ليلة بعد ليلة فى المطاعم الفاخرة ، ونسهر فى الملاهى الراقية . . وكنا — فى بيتنا — نستضيف « عبد الرءوف » و « سعاد » ، وبعض الأصدقاء الخلصاء وزوجاتهم ، فنسمر ونلعب الورق ، ونطرب بأعذب الألحان . .

وفجأة خبت نار الحب ، وذوت أزهار الأحلام ، ولم يبق منها سوى

الشوك ، منذ أن التقينا ذات ليلة — أمام « سينما زيفولى » — بالحبيبة القديمة « نعيمة » وزوجها المهندس « محسن » وطفلهما اللطيف الجميل الذى بلغ الخامسة أو كاد . .

وكان لقاء ، وكانت ذكريات . . ودعتنا « نعيمة » وزوجها إلى تناول الشاى فى « الفيلا » التى يقيمان بها فى مصر الجديدة ، منذ انتقل « محسن » من الإسكندرية إلى القاهرة . . ودعوناهم إلى مسكننا المطل على النيل . . واتصل بين الأسرتين حبل الصداقة والود . .

ويوماً بعد يوم أخذت الغيرة تغزو صدر « سمية » ، وبدأت تفسر تصرفاتى حيالها ، ومعارضتى إياها ، وعدم خضوعى لرغباتها — بأنها اضطهاد لها ، وانصراف عن حبها . . فانقلبت بشاشتها ومرحها ، وساءت ظنونها ، فجعلت تسمم حياتى ، وتنغص علىّ عيشى . . وكثيراً ما جاهرتنى بأنها كانت تود لو كنت كغيرى من الرجال بى ما بهم من نقائص ، ولى ما لهم من مساوئ ، على أن أكون شديد التعلق بقدسية الزواج ، حتى إذا ما دفعنى النزق نحو شىء مغرٍ كان لى من الحشمة والحياء ما يجعل جبينى يندى خجلا !

إنها لم تتهم حرارة عاطفتى ، ورقة حنانى ، لكنها كانت تتوجس خيفة على مستقبل حياتنا الزوجية ، وتخشى آثار زياراتنا المتكررة ، وترددنا المتصل إلى « فيلا » المهندس « محسن » وزوجته الحسناء « نعيمة » ، التى تفوق « سمية » ذكاء وجمالا ونعومة حس !

وباتت « سمية » تعيش فريسة النكبة التى خلقها وهمها وخوفها . : فما خفى عليها ما كانت تحمله النظرات بينى وبين « نعيمة » من حديث صامت وحنين ؛ وصوّر لها الخيال المريض أن « نعيمة » غريمتها ، وأنها توشك أن تسلبها زوجها ، فتعاظم الحقد فى قلبها ، وثارت كوامنه . . لكن كبرياءها حالت دون أن تصارح أحداً بما تعانى ، وحرصت على أن

يظل سر غيرتها مكتوماً .. وقد بعثها هذا على أن تنقطع عن زيارة « نعيمة » ، وعن زيارة صواحبها خشية أن تنم حركاتها وأقوالها على أنها معذبة شهيدة .. فعاشت فى عزلة لا تزور ولا تزار ، وعشت أنا فى عزلة فكرية عنها ، وبدأت أضيق ذرعاً بها ، وأرى أنها صارت عبئاً ينوء به كاهلى أكثر من أنها مصدر مسرة وبهجة !

ولقد حاولت مراراً أن أدخل الأنس على نفسها .. ما فى ذلك ريب ! .. واستصرخت الذكريات والخيال والشعور بالواجب ، والعقل نفسه — فأخفقت .. وكيف يستطيع عزم أنشأه الواجب أن يحيى عاطفة مرت عليها يد الموت ؟ !

وعشنا معاً بنوع شديد الضعف من ذاكرة القلب إلى حد أصبحنا معه لا نحس السعادة فى اجتماعنا !

أنا لا أتنصل من نزق مسلكى ؛ فالحقيقة أن النفور الذى استحكم بيننا مأتاه — من جانبى — غيبة الحب عن قلبى ، وبعث حب قديم ! .. وإن الغضب يقبل الإصلاح ، وكذلك الجور ، والإعراض نفسه — أما الرياء فيدخل على الحياة عنصراً غريباً كريهاً ، يشوه جمالها ، ويجعلها مقيتة لا تطاق ! .. لكنى تصبرت ، وجعلت أعزى نفسى وأمنيها ، والحال لا تزداد إلا سوءاً .. وكلما مرت ساعة أحسست انفرادى بانفعالاتى وأفكارى ، لا تشاطرنى فيها امرأتى .. وكلما انقضى يوم شعرت أنى لم أخطئ فى حياتى خطأ يوازى إقدامى على الزواج من « سمية » ؛ فإنها بغيرتها الحمقاء قد أفسدت علىّ حياتى .. نعم ؛ إن الحياة التى كنت آملها وأتوقعها قد صارت فى حيز الأحلام !

لقد تزوجتها لأنجو مما كنت أعانيه من وحدة ووحشة ، فإذا غيرتها تشوه جمال الحياة فى عينى ، وتحيلها مظلمة قاتمة ، وتقطع أسباب أملى فى السعادة ، وتهدم أركان عافيتى ، وكأن وكدها أن تنتقم من ماضىّ بأن

تحيل حياتى جحيماً ، كله بؤس وشقاء ، وملل وسأم ، وحزن وألم ، فلا أكاد أستقر ، ولا أكاد أتلمس معنى واضحاً لوجودى . .

وضاق صدرى بآمالى وأشواقى وأحلامى ، حتى فكرت فى أن أطرح عن كاهلى هذا العبء الثقيل . .

٥٢

بعد منتصف الليل أويت إلى الفراش ، واستلقيت على السرير بجوار « سمية » ، لكن النوم جفا أجفانى ، فظلت عيناى مفتوحتين ترقبان نور القمر ، وهو يتسلل إلى الحجرة من خلال زجاج النافذة ، حتى ملأ المخدع . .

فتحت الشرفة ، ووقفت أتطلع إلى البدر ، وإذا لسانى يتمتم : رحم الله « أليس » ! . . كانت تهوى الليالى القمراء . .

ثم التفتّ خلفى ، فرأيت « سمية » راقدة ، ورأسها بين وسادتين ، وذوب القمر يغمر الفراش . . وأحسست أن هذه الفتاة قد قيدتنى بقيود الزواج ، وغلت عنقى بأغلاله . . وداعبتنى الأحلام بأن أحطم قيود أسرى . .

وفجأة هبّت « سمية » من نومها مذعورة تصيح : « عبده » . . « عبده » . . فكأن أفكارى قد أزعجتها ، وأيقظتها من أحلامها !

صاحت : « عبده » . . ماذا جرى ؟ . . لماذا تقف فى البرد ؟ !

— أتأمل صفحة النيل تحت ضوء القمر . .

— ادخل . . حتى لا يصيبك البرد . .

— ثيابى ثقيلة . . والجو لطيف !

وساد الصمت برهة ، ثم عادت تقول : « عبده » . . « عبده » . .

ظللت متكئاً على حاجز الشرفة ، وقلت بدون أن ألتفت نحوها : نعم ، يا ستى !

— فيم تفكر ؟ . . ماذا يشغل بالك ؟ !

— لا أفكر فى شيء معين . . ولا شيء يشغل بالى !

— لماذا لم تنم ؟

— ألمّ بي الأرق . .

فجلست على طرف السرير ، وقالت : الهواء . . هلاّ دخلت ، وأغلقت باب الشرفة !

ضاق صدرى بثرثرتها ، فدخلت ، وجلست على المقعد الطويل (الشيزلونج) ، فقالت : قل الحق يا « عبده » . . هل أحببت امرأة سواى ؟ !

— ما هذا يا « سمية » ؟ . . ألا تعقلين ؟ . . لقد طرحت علىّ هذا السؤال ألف مرة !

— نعم . . وكنت فى كل مرة تقول : لا . . لكنى الآن أريد أن أسمع ردك الصادق الصريح !

كان الضجر قد نال منى ، فقلت : أنا لست غلاماً يا « سمية » . . أنا رجل . .

— أعرف هذا يا حبيبى . . أنت فعلا زين الرجال . . لكنى أحب أن تجيب عن سؤالى . .

— « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » . . صدق الله العظيم . . أتريدين الجواب الصادق الصريح ؟ !

— نعم ؛ ليطمئن قلبى !

— كل الرجال يحبون قبل الزواج !

فبدا على وجهها الحزن ، وهى تنظر إلىّ فى قلق تنطق به عيناها

السوداوان الواسعتان ... وعضت على شفتيها ، وقالت بعد فترة صمت : كم أنثى أحببت ؟ ! . . لا تكتمني شيئاً يا « عبده » . .

صحت قائلا : لم أحب سوى واحدة . .

— واحدة فقط ؟ !

— نعم . . واحدة فقط !

فدقت يداً بيد ، وصاحت : لو قلت إنك أحببت عشرين . . أو ثلاثين . . أو مائة . . لما اهتممت ، ولا حفلت . . أما وأنت لم تحب إلا واحدة ، فمعنى هذا أنك لم تزل تهواها ، وتحن إلى عهدها . .

وأخذت تبكي ، وتغدق الدمع ، وكأن الأسى — وقد أثقل روحها — أبى إلا أن يتفجر من مآقيها ، وأنا كالحجر الصلد . . فكفكفت عبراتها ، وسألت : هل كنت تحبها حباً عظيماً ؟ !

— نعم . . أعظم حب !

— لم لم تتزوجها ؟ !

كنت أتمنى أن أصيح في وجهها : ليتني تزوجتها . . إذاً كنت أستريح من غيرتك وهذرك وفضولك ! . . لكني لزمت الصمت ، فعادت تسأل : لم لم تقترن بها ؟ !

— لأنها ماتت . .

— ماتت ؟ ! . . شيء محزن ! . . ماتت أم تزوجت غيرك ؟ !

لم أجب .. فغادرت الفراش ، وسارت نحوي ، وجلست على ركبتي ، ورفعت ذقني بيدها ، لترى وجهي ، وقالت : « عبده » . . « عبده » . .

— دعي ذقني . . أحسبتني طفلا ؟ !

تراجعت ، وجلست عند قدمي ، وأنشأت تبكي وتنشج ، وهي لا تزال تردد : رد على سؤالي . . « عبده » أجبني عن سؤالي . .

صحت فيها غاضباً مهدداً : ما هذه السخافات ؟ ! . . أو كلما

استرحت من لوثتك طلعت علىّ بلون آخر من جنونك ؟ !

— إنى عاقلة يا « عبده » . . وأنت تعلم ذلك !

— صدقت . . وأنت ست العاقلات !

نظرت إلى بعينين يترقرق الدمع فيهما ، وقالت : هل حزنت على من ماتت ؟

— حسبى الحزن الذى ألقاه منك . .

— أنا يا « عبده » ؟ ! . . أنا أسبب لك حزناً ؟ !

— كفى هذراً . . عودى إلى فراشك . .

— أغضبت منى يا « عبده » ؟ ! . . أنا أحبك . . أحبك . . أنت دنياى كلها . .

— عودى إلى فراشك . .

— لن أنام حتى تسامحنى ، وتقبلنى !

— لقد سامحتك . .

وقبلتها . . فعادت إلى السرير ، واختفت بين الغطاء والوطاء ، ودفنت رأسها بين الوسادتين ، وتركتنى مطرقاً أفكر . .

٥٣

شقيقى العزيز « عبد الرحمن »

. . وإنى لأفهم كم يتألم من كان يعتقد أنه قد قبض على ناصية السعادة ، ثم رأى أن ليس فى يده إلا وهمٌ يتبدد كسحابة صيف !

لقد كنت تحلم بحياة هانئة كتلك التى نعمنا بها فى بيت أبوينا — رحمهما الله — وكان إحساسك الرهيف ، ومخيلتك الخصبة ، يصوران لك تلك الهناءة فى منزل ممتلىء حباً وصدقاً ، ووفاء وحناناً ، تقر فيه

عينك ، ويطمئن فيه قلبك ، داخله سحر ، وخارجه ذكر ، تمر فيه الأيام والليالى كأنها رؤى ، والهم فيه لا يكاد يعكر جو الروح حتى تبدده شموس الابتسام ، والمرض نفسه لا يوافى إلا وقد طردته — قبل أن يستقر — أيد تتفانى فى الخدمة ، وعيون لا تغمض من السهر ، وقلوب لا تهدأ من الخفقان . . ولكن . . هل رأيت هذا الحلم تحقق لغيرك من الأغنياء أو الفقراء ، من العظماء أو الصعاليك ؟ !

حقاً ، إنه لمطلب جميل ، لكنه لا يرام فى غير الأحلام !

أنا — يا شقيقى العزيز — لا أنكر ما تقاسى من الهم والغم ، بل أعلم أنك تتألم أكثر من سواك ، لا لأن زوجتك شر النساء — ولديها من وقدة الحب ، ونقاء السريرة ، ومن الغيرة أيضاً ، ما يخفف من ذنبها وأذاها — ولكن لأنك أنت إنسان رقيق الشعور رهيف الحس إلى أقصى الحدود ، ولأن مخيلتك ، وما أنت عليه اليوم من مضايقة العلة — كل ذلك قد جعلك تنسب إلى زوجتك أكثر مما تذنب به إليك . .

أنت تريد منها أن تكون مثلا أعلى ، تفهم من الإشارة احتياجك ، وتدرك باللحظ ، أو بالوهم ، ما فى نفسك . . وليس هذا بالسهل حتى على الملائكة . . وأين تلك الغيرى من هذا الكمال ؟ !

يعلم الله ، وأنت تعلم ياشقيقى ، مقدار محبتى لك ، ومبلغ رغبتى فى سعادتك . . ولا يجوز أن تفسر نظراتى ، وفى بعض الأحيان توبيخاتى ، إلا بنظرات الأخت الشقيقة الشفيقة . .

ربما قسوت عليك أحياناً ، فلمتك شديداً ، ولكنك تدرك وتعلم أنى أبتغى شفاء نفسك ، وأتمنى أن تصير رجلا قويـاً ، تحسن الصبر ، ولا تتزعزع أمام عواصف الحياة . .

لعلك لم تنس بعد أنى قلت لك — حين استشرتنى فى أمر زواجك — إنك تقدم على أمر يتعلق بمستقبل حياتك ، وإنك لن تستطيع أن تغير

الزوجة كما تغير القميص !

أما قلت لك هذا ، يا شقيقى ؟

لقد كنت خائفة من هذا الزواج ، ومن أى زواج ، لأنك عجلت به ولم تتأنّ ؛ ونصحتك بالتبصر والتمهل، فأصررت ، فتركنا لك الحرية فى الاختيار . .

سأحضر إلى القاهرة بعد أسبوع ، فأرجو أن أراك قد استعدت صحتك وقوتك ، حتى إذا صممت على أمر صممت عليه وأنت مالك جميع قواك الفكرية ، وأنت خال من كل انفعال نفسانى ، فتتصرف — فى هذه المرة — بعقل وروية ، لا بشهوة واندفاع عاطفى !

واحذر يا شقيقى أن يكون فى قلبك غش ، أو شيء من الظلم، لأنك إن ظلمت فلن تجد سعادة ولا راحة فى مستقبلك .. وإنى لأوثر أن أراك تتعذب مظلوماً على أن تستريح — إن وجدت راحة — وأنت ظالم ، فإن تلك راحة خير منها العذاب !

إن الذى أخافه كل الخوف أن يتغلب فيك الطبع الضعيف على العقل الرشيد ، وأن تنمى فى نفسك عواطف الكراهية حتى تدفعك إلى ركوب ما لا تحمد عقباه . .

على كل أنا قادمة إليك بعد أيام ، وسنبحث معاً هذه المسألة بحثاً دقيقاً ، وعسى أن ننتهى إلى رأى صالح . .

ولك ولزوجتك قبلات شقيقتك :

سميرة

الإسكندرية ؟؟؟ . . .

* * *

ومع الزمن يرضى الثور النافر بالنير حول عنقه ، بل يشتاقه ويحن اليه ! . . وقد حملت — فى ضجر متزايد ، وقلق لا نهاية له — هذا النير

القاسي الذى اخترته لنفسى . . ثم أخذ اليأس يدب إلى قلبى دبيب الظلام فى الأصيل الخافت !

ثم علمتنى الأيام أنه لا بد من أشياء كثيرة علينا أن نتحملها ، وعلمتنى أن أرضى بالأمر الذى يقع ، إذا لم يقع الأمر الذى أرضاه ، وعلمتنى أن مخاوف الخيال أشد من مخاوف الحقيقة !

ثم ولدت لى ابنة . . وشغلت « سمية » بالطفلة ، وخفت غيرتها وهدأت ، واطمأنت نفسها واستراحت ، وأخذت السحب التى خيمت فى سماء حياتنا تنقشع . .

ثم رزقنا ابناً . . وامتلأ البيت بهجة وأنساً بضحكات الطفلين وعبثهما ولعبهما وبكائهما أيضاً ؛ وأظلنا الحب بجناحيه الرفيقين ، واستعادت « سمية » مرحها ، وطفق وجهها الدقيق الجميل يطفح بشراً وزهواً ، لولا سحابة من القلق تمر به كلما فكرت فى ماضىّ الطويل العريض ، فتنظر إلىّ فى إشفاق وحب تنطق به عيناها الدعجاوان الجميلتان !

٥٤

أوشك ظلام الليل أن ينقشع ، وكاد الفجر يسترد أنفاسه ؛ والساعة على الحائط يتحرك رقاصها ذات اليمين وذات الشمال حركته المنتظمة الرتيبة ؛ وكلب ضال فى الشارع ينبح ويعوى ؛ وطفل رضيع فى الشقة المجاورة يصيح ويبكى ؛ وأسرتى مستغرقة فى النوم ، وأنا — فى تلك الحجرة العالية التى تطل على النيل الخالد — جالس إلى مكتبى ، أستدبر أعوامى الأربعين ، وأجتر شئون الماضى ، وأنفض الغبار عن ذكرياته ، وفى حنايا النفس انفعالات شتى تعتمل وتفور ، هى ذكريات عهد لا أتبين الآن أكان عهداً جميلا ، لأنه قطعة منى فى أيقظ الأوقات ؟

أو كان عهداً شائناً لأنه موقر بالخطايا والآثام ؟ !

في خلوتي هذه أرى أني قد فعلت الكثير ، دون أن أفيد شيئاً ، فلم أترك في الحياة أثراً ، ولا حققت غاية ! ولو مت هذه الليلة ما استحققت أن يذكر اسمي على لسان ، ولا أن تبقى صورتي في ذاكرة أو خيال! . . ليتني لا أموت هذه الليلة ! . . دعاء أرفعه إلى الله . . لكن ما تراني فاعلا فيما بقي لي من أيام ؟ !

على المكتب مذياع صغير يرسل أنغاماً هادئة تأتي من بعيد، وبين يديّ « ألبوم » صوري . . ويقف نظري على صورة تمثلني أنا و . .

من هذه ؟

آه ! . . هذه « جوزفين » . . أول من عرفت في فرنسا ، في ليلتي الأولى . .

نعم ؛ هذه هي بصدرها البلوري ، وجسمها الرشيق ، وعينيها الواسعتين اللتين تنطقان ببراءة الأطفال . . وفي يد كل منا كأس . .

هنا . . في هذه الصورة : الشباب ، والنساء ، والخمر . . الثالوث الذي تمتعت به حيناً كم تقضّ مضجعي الآن ذكراه !

لقد فقدت هذا الثالوث جميعاً . . أما الخمر والنساء فقد ولتا شرعاً ، فلا كأس اليوم ولا نديمة ! . . وأما الشباب فقد ولى حقيقة . . فهذا شعري الفاحم الغزير قد تساقط بعضه ، وغزا الشيب بعضه الآخر ، وهذا جسمي القوى الفتي قد تخاذل واضمحل ، وهذا عنقي الطويل المرتفع قد انحنى تحت أثقال ما أحمل من هم ملأ قلبي مرارة !

ما أشد ما يفعل الزمن بالإنسان !

إني في هذه الصورة أبدو شابًّا وسيماً ، مرحاً طروباً . . فأين أنا اليوم منها ؟ !

لقد كنت أيامها عاشقاً معشوقاً . . كنت كل شيء . . وفجأة شخت من دون أن أشعر.. وا أسفاه ! . . كيف لا نشعر بما تفعل بنا الأيام ؟ . . كيف لا نرى سير الزمن ؟ . . كيف لا نفطن لتقدم السن ؟ ! . . أكان هذا لأننا نرى وجوهنا فى المرايا كل يوم ، والسن بطيئة فى تقدمها، والزمن ماكر فى فعله ، فلا نحس الفرق بين اليوم والأمس ؟ !

نعم ، إن الزمن يعمل فى بطء ، ويتقدم فى انتظام ، ويغير من وجوهنا ونفوسنا فى كثير أناة ، فلا نشعر به ، ولا نفطن لفعله ، ولهذا السبب لا نموت حسرة بعد عامين أو ثلاثة من الحياة العاصفة !

إننا لا نستطيع أن نلمح آثار الزمن . . ولكى نقدرها يجب أن نمتنع عن النظر إلى المرآة أعواماً ثلاثة مثلا . . إذاً ، فأى مفاجأة نلقى ؟ !

. . وأقلب صفحات « الألبوم » ، وتقع عيناى على عشرات من الصور وعشرات . . وترجع بى الذاكرة إلى سنين خلت ، خفق فيها القلب بالحب مرحاً فتياً ، واستمتعت فيها بالشباب متوهجاً قوياً ، وعبثتُ فيها ما عبثت شيطاناً غوياً . . ثم هبّت رياح الخريف ، وعصفت أعاصير الشتاء ، فبردت العاطفة ، ونام قوّام الليالى ، وتبدلت الدنيا غير الدنيا ، وفقدت الحياة بهجتها ونضارتها ،وأصابتنى « عاهة مستديمة » تحول دون أن أتمتع برغيد العيش ، ولذيذ الحياة ! . . . فهذا الشيب يزجرنى ، وهذه وقدة الشباب قد خبت فى قلبى ، وهذا معين الحياة قد نضب فى نفسى ، فما أدرك لجمال الطبيعة معنى ، ولا أقيم لغض الصبا وزناً . . ومع هذا كله لا تبرح الهواجس القاتمة اللئيمة تتنزى فى صدرى ، ولا تفتأ الوساوس المجنونة الباغية تأخذ بخناقى ، ولا تزال الذكريات القاسية الأليمة تثقل رأسى حتى انحنى فى إطراقة واجمة !

ذكريات . . ذكريات . .

نساء من كل جنس ، ومن كل لون ، ومن كل دين . . وفى كل

زمان ومكان . .

كم من جميلات عرفت ثم سلوت . . بعد يوم ، أو أسبوع ، أو شهر ، أو سنة !

جميلات فاتنات لا حصر لهن قد تلطت فى حبهن ؛ لكنى الساعة أوقن أنى لم أحب غير « سوزان » . . « سوزان » وحدها هى التى أحببتها الحب الصادق المخلص ، الحب الدائم الذى لا ينتهى حتى يأتينى اليقين . .

وإذا كنت لم أذكر عنها شيئاً فى هذه الاعترافات ، فذاك لأن حبها « قدس أقداسى » ، ولأنى أعتزم كتابة قصتى معها فى كتاب مستقل . .

إن « زوزو » هى الروح التى تنجذب إليها روحى . . إنها العقل الذى يهواه عقلى . . إنها القلب الذى يحن إليه قلبى . . إنها الجسد الذى يتوق إليه جسدى ؛ فهى تجمع اللذات التى أريدها كاملة مكتملة : لذات الروح والعقل والقلب والجسد . . إنها الأنثى التى عرفتها فعرفت الحياة ونعيمها وبهجتها ورواءها . . ثم فارقتنى ، فأخذت أتقلب بين أحضان النساء علنى أنساها ! . . إنها الأنثى التى تجمع ما طوفت أفتش عنه ، فكأنى كنت أبحث فى جوف الليل عن ضياء شمس بلا غروب !

« سوزان » هى الأنثى التى أومن أنها تمنحنى السعادة التامة . . « سوزان » هى الأنثى التى أعتقد أنى بجوارها سأكون — وهى معى — أسعد الخلق أجمعين ؛ فإنى لأعشقها العشق كله ، بآماله المختلفة وملذاته المتنوعة . . إنى أحبها الحب الوثنى فيه الشهوة ، وأحبها الحب الصوفى فيه السمو إلى المثل الأعلى !

وإنى لأتنزل راضياً عما بقى من عمرى — ولو كان مائة عام — إن قدر لى أن أحيا بجوارها شهراً واحداً . . شهراً واحداً يا ربى بقرب « سوزان » ثم أموت ! فإن أمت قبل أن ألتقى بها مرة أخرى ، فإنما أموت وقلبى

متمزق حسرة على فراقها !

أين أنت الآن يا « زوزو » ؟ وما فعل بك الزمان ؟ . . أتعيشين سعيدة مع زوجك ، أم لا تزالين شقية بحمقه وغيرته ؟ . . وطفلك الصغير . . هل نما وكبر وصار رجلا ؟ ! . .

« سوزان » . . إنى لا أحيا إلا على أمل أن أراك ، أيتها الحبيبة الغالية . . وإنى لأقف اليوم على أطلال حبك . . لأرثيه . . ولأندب شبابى الذى ضاع وأنت بعيدة عنى ! . . فهل تسمعين ؟ هل تقرئين ؟ هل تصدقين ؟ !

* * *

وأحلل فى خاطرى بعض الذكريات ، فأرى أن أكثر عشيقاتى المتزوجات كان أزواجهن خيراً منى ، وأنهن لم يكن فى حاجة إلى وسامتى وشبابى وهداياى وألطافى ، وأن دافعهن إلى الحب كان فراغ العين وإسفاف الطبع اللئيم ! . . أما العذارى العاشقات فما أحمق أولئك الكتاب الذين يصورونهن فى صورة المتحسرات على ذكريات الحب !

إنها لزائفة هذه الصورة ، فما هؤلاء العذارى إلا باحثات عن أزواج ، فإذا عثرن على الزوج المنشود نسين ما فات ، وعشن الحياة الزوجية فى بيوت هادئة وديعة ، لا تمر بمخيلتهن أطياف الحب القديم إلا فى لمحات خاطفة ، ولحوادث تثير فى نفس كل إنسان كوامن الماضى !

إن هؤلاء العذارى ، وشبيهات العذارى ، حين يتزوجن ، وتتذكر إحداهن هذه الضمة التى استجابت لها هنا ، أو هذه القبلة التى اختلسها منها صديقها هناك ، فإنما تذكر ذلك دون تحسر أو ندم ! . . فهذه الذكريات لا تستند عندهن — فى أغلب الأحيان — إلى عاطفة صادقة ، أو حب صحيح ! . . ومغفل كبير من يعتقد غير هذا !

نعم ! . . لقد أمسيت أشك فى أن تسع عذارى من كل عشر من

عذارى مغامرات الماضى ، لم يُقبلن على الاشتراك فى تلك الحماقات إلا تخلصاً من ملل البيت ، وهرباً من الضجر الذى يشوب حياة الشباب فى سن معينة ، وإقناعاً لأنفسهن بأنهن ما فتئن فى الحومة ، وأنهن لمّا يزلن طالبات مطلوبات ! فإذا لاحت لهن فرصة الاستقرار فى منزل هادئ ، تحت كنف رجل ما يهبهن اسمه ، ارتمين عليها ، ونسين الماضى ، وخلفننا — معشر العشاق — نتابع حيـــاة التشرد فى المقاهى والملاهى وأوكار الليل !

أذكر — وأنا أكتب هذا — ما قالته غير عذراء من أننى أسبب لهن شيئاً من البهجة والمرح ، وأطرد عنهن بعض السآمة والملل ، وأملأ فراغ فترة الانتظار : انتظار الزوج الموعود . .

على أنى بعد الخبرة الطويلة أستطيع أن أقول إن النساء الفضليات كثيرات . . كثيرات جداً . . وهن فاضلات لأن ظروف حياتهن أرادت ذلك ؛ فالمرأة التى تعيش بعيدة عن المعاشرات الجذابة ، والأوساط المهتاجة ، تستطيع أن تحفظ نفسها من السقوط . . أما التى ترتاد النوادى والمراقص والملاهى ، وتستمع إلى أحاديث المفتونين من الرجال ، فكثيراً ما ينتهى بها الأمر أن تفقد نقاء ثوبها وطهارة ذيلها ! وهنا أذكر قول « نابليون » المأثور : « إن فضيلة المرأة معلقة بحجرة فيها مقعد ورجل » !

* * *

لقد نسيت كثيرات ممن سرن معى فى درب الحب ، فذاكرتى لم تعد تعى أسماءهن ، وخيالى لم يعد يجلو صورهن . . لكن اسم « هدى » لا يزال محفوراً فى ذاكرتى ، وصورتها لا تغيب عن خيالى ؛ فالمرأة الأولى فى حياة كل رجل لا تنسى !

ويا ويحى من خطايا ذهبت شهوتها ولذتها ، وبقيت تبعتها وحسابها العسير !

٥٥

أصدقائى

طلبتم أن أقص عليكم — فى كتاب — مغامراتى مع النساء، فشكراً لكم، لأنكم هيأتم لى فرصة أخلو فيها إلى نفسى ، وأستعرض نزق المراهقة وطيش الشباب ، حتى صورت — قدرما استطاع قلمى الكليل — ما أحسسته من انفعالات ، دون أن أسخر هذا القلم لإثبات حقائق علمية، أو تأييد نظريات نفسية ؛ فما زدت على أن بسطت الحقيقة عارية عن كل زخرف ، ورسمت ما انفعلت به ، وما عشته .

وفى الختام يهمنى أن أقول لكم إن مباهج الحياة كثيراً ما تدفع الإنسان إلى اصطناع الإثم ، ومعالجة الرذيلة ، فيسقط ، ويتعرض لغضب الأرض والسماء، فإذا ما عثر ، واحتواه الظلام، نهض من عثرته بقوة من الحياة نفسها، ولمست عيناه النور ، فاسترد معه إيمانه بالله، وقداسة السماء، وشريعة المجتمع، وآداب الحياة ، فندم واستغفر ، وأصبح ممن يمارسون الفضائل فى صدق وإخلاص ، فاطمأنت الإنسانية إلى حاضره، وأنزلته المنزلة اللائقة !

فهل قلت مايشبع نهمكم، ويرضى فضولكم، ويرجع بكم إلى عهد الشباب؟

ربما تقولون : نعم . .

ولكن . . هل قلت أنا كل ما وقع ؟!

نعم . . ولا . .

نعم ؛ لأنى قلت ما يمكن أن يقال . . ولا ؛ لأن هناك أشياء يحسها الإنسان بقلبه ، ولا يستطيع التعبير عنها بقلمه ، أو بلسانه . . والحب — الحب الحقيقى الصادق — من هذه الأشياء التى لا يحسن التعبير عنها غير القلب !

ومن ليس له سر يخفيه ، فلا جمال له يبديه !

الخاتمة

هل انتهت قصة العاشق « عبد الرحمن » ؟

لا . . لم تنته القصة بعد ، وإنما انتهت مذكراته التى كتبها . . أما القصة فلها بقية أرى من حق « عبد الرحمن » علىّ أن أكتبها ، لا استجابة لرغبته ، وتنفيذاً لوصيته وحسب ، وإنما — أيضاً — ليعرف القارئ الخاتمة التى انتهت إليها هذه الحياة المرحة اللاهية الماجنة ، وكيف كان مصير ذلك الشباب الخصب الفتىّ الريان ؟ !

لقد كنت ممن عاصروا بعض أحداث هذه الحياة الصاخبة العاصفة . وممن رغبوا إلى « عبد الرحمن » أن يسجل ذكريات عشقه فى كتاب ، لعلها تكون مثار عظة وعبرة ، أو وسيلة تسلية وتزجية فراغ . .

أما بقية القصة فهى أننى نقلت إلى القاهرة ، ونقل إليها نفر من الأصدقاء والزملاء ، جمعت بيننا المودة والألفة ، منذ أيام الدراسة الجامعية ، ثم فرقتنا الحياة ، وذهب كل منا فى اتجاه ، وشغلتنا الشواغل ، حتى اجتمع شملنا من جديد ، فتواعدنا على اللقاء فى أمسية معينة من كل أسبوع ، فى مقهى « ركس » بشارع « عماد الدين » ، فنلعب النرد أو الشطرنج حيناً ، ثم ننتقل إلى منزل أحدنا ، فنسهر نسمر ونتدارس ونتناقش ؛ فإذا كان مساءُ الخميس صحب كل منا زوجه ، وتلاقينا جميعاً فى دار « الأوبرا » ، أو فى أحد ملاهى « روض الفرج » أو « عماد الدين » ، ولا سيما « مسرح الريحانى » ، ثم نعود إلى منازلنا مبتهجين سعداء . .

وخيمت الهناءة علينا ، وعلى بيوتنا ، بالرغم من اختلاف ميولنا ، وتباين مواضينا ؛ فقد كنا مختلفين طباعاً ومشارب ، لكننا كنا متفقين

عقولاً وأرواحاً . . كان منا التقى الذى لم يذق الخمر ، ولا علق أنثى ، ولا رأى امرأة عارية غير زوجته .. وكان منا من سقط مرة أو مرتين ، ثم نهض من كبوته ، وندم وتاب . . وكان منا من ركب رأسه ، وأطلق العنان لشهواته ولذاته ، مثل « عبد الرحمن » الذى شغفه جمال المرأة ، فجرى وراءها حتى لهث ، وشاقه اللهو والمجون ، فلم يدع ملعباً أو ملهى إلا ولجه ، ولا مطعماً إلا طعمه ، ولا مشرباً إلا احتساه ، ولا مخدراً إلا جربه ، حتى شبع واتخم ، ولم تعد له شهوة يشتهيها ، ولا أمنية يتمناها ، وتشغل فكره ، ويسعى إلى تحقيقها جهده ، ويجعلها نصب عينيه صباح مساء ، إلا أن يُسعد زوجه الفضلى « سمية » ، ويربى ولديه التربية القويمة التى تجنبهما أخطاءه ، وتعصمهما من حماقاته !

ومرت بنا سنوات ست ، ونحن وأسرنا تدور حياتنا فى فلك من الرضا والقناعة والتعاون والمحبة . فلا يكاد أحدنا تظهر فى سماء حياته سحابة هم ، أو ضباب ألم ، حتى نتكاتف جميعاً لتفريج ضائقته ، وطرد همه ، وتخفيف ألمه ، ورد البهجة والهناءة إليه وإلى أسرته :

نعم ؛ كنا مختلفين أدياناً ، ومذاهب سياسية ، لكننا كنا أكثر من أقرباء ؛ فالقرابة علاقة إجبارية بين دمين ، أما الصداقة الخالصة فامتزاج اختيارى بين روحين . .

وفجأة بدأ « عبد الرحمن » يتخلف عن اجتماعاتنا ، وكان واسطة عقدها ؛ فقد كان ذكياً مرحاً ، حاضر البديهة ، سريع النكتة ، ينشر البهجة والسرور حيث حل ؛ وكان قلبه رحباً يخفق بضروب المشاعر والأحاسيس ، ويتسع لمتناقض الانفعالات ، ويجمع مختلف النزعات ؛ وكان يحمل نفسه جريرة الشرير ، فيتهم نفسه ، ويراها شريكة للجانى ، ولم يقترف إثماً ، ولا حمل وزراً ؛ وكان ينتشى نشوة السعيد بالفرح يصيب الناس ، ويسعد للخير يشيع بينهم ؛ وإن لم ينله ذلك الفضل من

قريب أو بعيد ! . . كان إنساناً بالرغم من ماضيه الآثم ، ونزواته السالفة ، فكان يؤثر غيره على نفسه ، ولو كانت به خصاصة !

وذهبنا نسأل عنه ، فإذا هو طريح الفراش، يشكو آلاماً تحرمه الراحة والمنام ، حتى إنه لم يستطع أن يخرج للقائنا ، ودعانا إلى رؤيته وهو فى سريره . . فلما أحطنا به أخذ يقلب بصره فينا ، ويبكى كالأطفال ويردد فى حزن قول الشاعر الفرنسى « ألفرد دى فينى » : « آه ، يا إلهى لقد عشت ذا سلطان ، وهأنذا وحيد الآن ، فدعنى أستروح النوم فى جوف الثرى ! » ، ثم أنشد قول الشاعر :

مضى الشبابُ وولّى ما انتفعتُ به ... وليته فارطٌ يُرجّى تلافيه !
أو ليت لى عملا فيه أسرّ به ... أو ليته ما جرى لى ما جرى فيه !
فاليومَ أبكى على ما فاتنى أسفاً ... وهل يفيد بكائى حين أبكيه ؟ !

أخذنا نسرّى عنه ، ونشجعه، ونسأله عما يشكو ، فلا يزيد على أن ينوح مردّداً قول الشاعر إبراهيم ناجى :

قفْ تأملْ مغربَ العمر وإخفاقَ الشعاعِ
وابكِ جبارَ الليالى هدّه طولُ الصراعِ
واضياعَ الحزنِ والدمع على العمر المضاع !
ما يهمّ الناس من نجم على وشْك الزماع ؟
غاب من بعد طلوع وخبا بعد التماع
طال بى سهدى وإعيائى وقد حان اضطجاعى!

وكلما مر يوم تضاعف ألمه ، وشحب لونه ، وغارت عيناه ، وازداد ضعفه ، وبدا هزاله ، وكثرت صنوف الأدوية على « الكومدينو » بجانب سريره . .

وعاده غير طبيب ، وكل منهم يصف ألواناً من الحقن والأقراص والحبوب ، وينصح بالراحة التامة ، وتناول المقويات والمهدئات

والمنوّمات، وتحاشى ضروب الانفعالات .. لكن هذا كله لم يجدِ نفعاً، ولم يردّ إلى المريض العزيز فتوته وصحته . .

وعاده أخوه الطبيب « عبد الحميد » ، وابن أخيه الطبيب « أسامة » ، وذهبا به إلى أشهر الأطباء الباطنيين والجراحين ؛ فأجمعوا — بعد الفحص الدقيق ، والكشف بالأشعة ، وبعد التحاليل المختلفة — على أن « عبد الرحمن » مصاب بالسرطان ؛ ونصحوا بإجراء جراحة عاجلة تستأصل الداء الخبيث قبل أن يستفحل أمره ، ويستشرى شره ..

وتردد « عبد الحميد » و « أسامة » لحظات ، ثم لم يجدا بدّاً من مصارحة المريض العزيز بحقيقة دائه ، وبأنه لا مفر من إجراء العملية ، فرفض — فى شدة — إجراء أى جراحة ، وطلب منهما إخفاء مرضه عن زوجه « سمية » . .

وحاول سائر إخوته وأخواته أن يحملوه على إجراء العملية ، فأصر على الرفض ، وكلما زاد إلحاحهم ازداد هو إصراراً على الرفض ، وقال فى حزم : العمر واحد ، والرب واحد ، ولن تطيل العملية عمرى ثانية . . وإنى لأفضل أن أموت موتة واحدة ، على أن أموت عضواً فعضواً . . لن أقبل أن تجرى لى هذه العمليات ، ولن أرضى أن أموت « بالقطاعى » ! وإذا كانت « أم كلثوم » تشدو بقول الخيام :

فما أطال النـوم عمراً ولا قصر فى الأعمار طول السهر

فإنى أومن بالله ، وأومن أن إجراء أى جراحة لن يطيل عمرى يوماً ، وأن عدم إجرائها لن يقدم رحيلى ساعة ، (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ، فدعونى . . أرجوكم . . دعونى أمت كما أريد . . إننى فى حال لن تدوم ، وهذا ما يعزينى ، فإما أن يتفاقم المرض فيقضى علىّ ، وإما أن أنتصر عليه وأبرأ منه . . إما أن أزول ، وإما أن أبقى .. والأمران عندى سيان، وإنما المهم ألا تطول الآلام التى تعذبنى !

وصارحنا يوماً بدائه ، فأخذنا وذهلنا ، وبهتنا وفزعنا . . وخيم الصمت لحظة ، ثم بدأنا نهوّن الأمر عليه ، ونقص عليه قصص من نعرف ممن أصيبوا بدائه ، وبرئوا بعد إجراء العملية ، وعاشوا سنين عدداً ، لا يحسون وجعاً ، ولا يشكون ألماً . . وحاولنا إقناعه بقبول إجراء العملية ، فأصر على الرفض ، وقال : يفعل الله ما يشاء ويختار !

حدث هذا كله و « سمية » لا تعرف حقيقة مرض زوجها ، فقد أخفاه الجميع عنها تلبية لرجاء « عبد الرحمن » ، لكنها لم يغب عنها هزاله المطرد ، على ما يتناول من أطايب الطعام ، وأحسن المقويات ، وبرغم ما تهيئ له من راحة كاملة . .

وفطنت الزوجة الطيبة إلى تعلق زوجها بولديهما تعلقاً أكثر من مألوفه وعادته ، فكلما هدأ ألمه دعاهما إليه ، واحتضنهما فى شغف شديد ، وحدب بالغ ، وقبّل كل جزء يستطيع تقبيله فيهما ، وهو مستلق فى فراشه ، ثم يصرفهما ، وينفجر يبكى . .

ولا يلبث أن يدعو « سمية » ، فيلاطفها ، ويستسمحها ، ويحتضنها ، ويقبلها فى لهفة وحنان ، وهو لا يبرح يبالغ فى وصايتها بولديهما ورعايتهما . . فإذا هونت عليه مرضه ، وحدثته عن الأمل والمستقبل ، انهالت الدموع من عينيه مدراراً ، وضمها إلى صدره ، وقال : « سمية » ؛ يا زوجتى الحبيبة ، إن أمى وأبى يدعوانى . . إنى أراهما كل ليلة فى أحلامى ، وأحس إحساساً عميقاً أنى راحل إليهما عما قريب ! . . فيزداد حزن المسكينة ، وتتضاعف تعاستها ، وتبكى فى حرقة وجزع ، وهى تقضى الليل الطويل بجوار المريض العزيز . . فإذا ما تقلب أو تأوه أو ناداها ، جففت دموعها ، وأسرعت تلبى نداءه ، وتغطيه وتشجعه ، وتواسيه . .

كانت كلمتا : « نعم » و « حاضر » على لسانها دائماً ، وكان رأسها يرتفع فى سرعة ، وإن كانت لا تستطيع أن ترفع أجفانها إلا بعد جهد ،

أو بعد أن ترطب عينيها بالماء !

ويوماً وجدت « سمية » نفسها تسعى إلى الأستاذ الطبيب ، فإذا هو يفجؤها بحقيقة مرض زوجها ، فكأن صاعقة قد انقضت عليها . . برد جسمها ، وجحظت عيناها ، وجف ريقها ، واعتراها بهر شديد ، وتسارعت دقات قلبها ، وعقدت المفاجأة لسانها ، وأطلقت الدموع من عينيها حارة غزيرة . .

حاول الأستاذ الطبيب أن يهدئ من روعها ، ويسرى عنها ، وهى تنتحب وتنشج ، وترجوه أن يبذل كل جهد لإنقاذ زوجها ، وتقول : إنى لأضحى بكل شىء فى سبيل شفائه . . خذ أمعائى يا « دكتور » ، وضعها مكان أمعائه . . خـــذ قلبى . . خذ عينى . . أنقذه وخذ ما تشاء . .

فقال لها الأستاذ الطبيب : يا سيدتى ، لم يعد هناك أمل فى إنقاذه ، فقد فات الأوان . . إن زوجك يا سيدتى ، لن يعيش إلا شهرين أو ثلاثة على أكثر تقدير ، مهما يبذل الطب . . وكل ما نستطيع أن نفعل من أجله الآن أن نخفف آلامه بالمسكنات والمنومات . . دعيه يأكل ويشرب ما يشتهى ويشاء . والله معك !

عادت « سمية » إلى بيتها ، فارتمت فى حضن زوجها تبكى وتجهش ، وتقبل شعره ووجهه ويديه ، وكل ما تستطيع فى جسده الواهى الهزيل . . ثم جثت على ركبتيها ، ودست رأسها تحت غطاء المريض ، وهى تنتحب وتقول : أهكذا تخفى عنى حقيقة مرضك ، يا حبيبى ؟! . . سلامتك ألف سلامة ، يا روحى ، يا حياتى . . كيف نعيش من بعدك ؟! . . كلنا نفديك بأرواحنا ، يا أغلى من أرواحنا !

أحاط « عبد الرحمن » عنق زوجته بذراعه ، وقال : عشت يا « سمية » ، وبارك الله فيك ، وبارك لك . . يا « سمية » العزيزة ؛ سامحينى إذا كنت

قد أغضبتك ساعة ، أو قسوت عليك مرة . . وصيتى أن ترعى الأولاد ، وأن تنشئهم تنشئة صالحة . . واستعينى بشقيقى « عبد الحميد » فى تربيتهم ورعايتهم ، حتى لا يذوقوا العذاب الأليم الذى أذوقه . .

أخذت « سمية » تتوسل ، وتنزح ما فى عينيها من دموع ، لكن توسلاتها ودموعها لم تثن « عبد الرحمن » عن رفضه إجراء العملية ، ولو ليخفف عنه بعض هذا العذاب الذى يعانيه ، ورد عليها باسماً : ما أعذب هذا الألم العظيم يا « سمية » ! .. إنى لأرجو أن يكون تكفيراً عما اقترفت ، وسبيلا إلى عفو الله وغفرانه . .

ثم تحامل على نفسه ، ونهض من سريره ، وتظاهر بالقوة والعافية ؛ وأخذ يتنقل فى أرجاء البيت ، يداعب الشغالة ، ويلاعب الأولاد ، ويقول لزوجه : انظرى يا « سمية » . . انظرى . . أنا بخير . . سأبرأ بدون عملية . . إن الله على كل شىء قدير ، يا زوجتى العزيزة !

لكن الداء الخبيث كان يدب فى أحشاء المسكين ، ويتغلل ويستشرى . . وكان ألمه يزداد دقيقة بعد دقيقة .. ألم لا يطاق ، ولم تخلق له أعصاب ، وهو صابر راض ، لا ينفك يتأوه ، ويستغفر الله ، ويسأله العفو والعافية !

وكانت « سمية » لا تفارق زوجها ، بل زادت أن جاءته بممرضة خاصة ، فإذا تعشى الأولاد وناموا ، صرفت « سمية » الممرضة لتنام هى أيضاً ، وجلست مكانها على الكرسى بجوار سرير المريض طول الليل ، فإذا غلبها التعب والنعاس مالت برأسها على مسند الكرسى ، وكلها أعصاب متنبهة لحركات المريض وتأوهاته . .

مضى شهران ، والمريض يتقدم كل يوم نحو النهاية المحتومة ..

ويوماً حدثتنى « سمية » فى « التليفون » قائلة : « عبد الرحمن » يريد أن يراك اليوم وحدك !

ذهبت إليه فى الحال ، فقال لى : طلبت أن أراك على انفراد ، لأمر خاص . .

واستند إلى ذراعى ، ونزل عن سريره ، وذهب بى إلى حجرة مكتبه ، وفتح أحـــد أدراج المكتب ، وأخرج ستة كشاكيل فنظر إليها واحداً واحداً ، ورفع من بينها كشكولا مكتوباً على غلافه بخط كبير : « دموع القلب » ، فأعاده إلى الدرج ، وأغلق الدرج بالمفتاح ، ثم أخذ يقلب الكشاكيل الخمسة الباقية ، وينظر لحظات فى بعض صفحاتها ، وعيناه تدمعان ، وجسمه يرتعش . . ثم دفعها إلىّ قائلا : هذا اعترافى . . مذكرات خطاياى وآثامى ، التى طلبتم أن أسجلها . . أنت تعرف أكثرها ، وقد رأيت بعضها رأىَ العين . . خذها ، ونقح صياغتها ، ورتبها حسب وقائعها ، واحذف منها ما لا يليق نشره من وصف مكشوف ، وعبارات جنسية صريحة . . لكن عاهدنى ألا تضيف إليها شيئاً لم أكتبه . . احذف ما تشاء ، لكن لا تضف إليها سوى النهاية التى رأيتها وتراها . . لقد سميتها « صياد النساء » ، ثم عدلت عن هذا الاسم ، وسميتها « اعترافات عاشق » . . انشرها ، يا صديقى العزيز ، فلعلها تفيد بعض الشبان الطائشين ، فيدركوا حقيقة الحكمة القائلة : « لا خير فى لذة تعقب ندماً » ! . . لقد فقدت إرادة الحياة ، يا صديقى . . وهأنتذا ترانى أستعجل الموت ، وأتخبط فى ضباب الغم ، وأتعثر فى أشواك الألم . . إن رؤية الأصدقاء تسرنى ، وتؤلمنى معاً . . ولست أشك فى أن رؤيتكم إياى فى هذه الحالة تؤلمكم . . فليكن لقاؤنا هنا فى السابعة من مساء كل خميس . . نصف ساعة لا أكثر . .

ثم أخرج من درج ثان « ألبوم » صور ، وقال : أما هذا « الألبوم » فلا تنشر منه إلا صور الأجنبيات . . حذار أن تنشر صورة مصرية ، أو صورة أوربية عاشت فى مصر . . عاهدنى . . ضع يدك فى يدى ،

وأقسم .. إن لك مطلق الحرية فى أن تحذف من المذكرات ما تشاء ، لكن لا تنسب إلىّ شيئاً لم أذكره . . وأفضل ألا تنشر من الصور إلا معالم البلاد .

وهذا ما كان ؛ فقد حذفت من المذكرات أضعاف ما أبقيت . ولم أضف من عندى سوى المقدمة وهذه الخاتمة الحزينة ؛ فلم أنحله لفظاً لم يقله ، ولم أضف وصفاً لم ينشئه .

ومرت الأيام ، واستشرى الداء الخبيث ؛ وامتنع « عبد الرحمن » عن رؤية أحد ، وجعل يتناول كميات مضاعفة من المسكنات المخدرة ، فكان يقضى أكثر وقته نائماً لا يكاد يطعم أو يشرب . .

فإذا خيم الليل طلب من « سمية » أن تسانده وتذهب به إلى الشرفة المطلة على النيل ، وأن تأتيه بالمصحف ، وبقلم وورقة بيضاء ؛ فيجلس فى الشرفة حيناً يدعو ويستغفر ويقرأ القرآن ، والألم يهرأ أحشاءه ، و « سمية » تلحظه عن قرب ، وهى فى أسوأ حال ، تجرى دموعها على خديها ، بدون أن تنطق أو تتحرك ، فقد طلب منها ألا تعكر عليه ساعاته الأخيرة بحركة أو كلمة !

فإذا ما فعلت المخدرات فعلها ، وأوشك النوم أن يداعب جفونه ، ويبدأ رأسه يميل ، قامت « سمية » فقادته إلى سريره ، وبسطت عليه الغطاء ، وربّتت وجهه فى حب وحنان ، وكأنه طفلها الصغير ، ودموعها تتساقط غزيرة حارة . . فإذا استغرق فى نومه جلست هى على الكرسى بجوار السرير . .

وفى ليلة النصف من شعبان ، وهما فى الشرفة ، غلب « سمية » الإعياء والنوم ، فلم تلحظ أن رأس زوجها قد مال على صدره . . فلما أفاقت من غفوتها ، وهمت أن تعود به إلى فراشه ، لم تجد إلا جسداً بارداً ، قد صعدت روحه إلى بارئها . . ورأت أصابعه تقبض على القلم ، وقد كتب

بضع كلمات ينعي فيها نفسه : « انتقل إلى رحمة الله . . » ، ثم شطبها وكتب : « ربما أنتقل إلى سقر » . وكتب تحتها : « لبي نداء ربه . . » ثم ضرب عليها بالقلم ، وكتب : شيعت أمس جنازة المرحوم « عبد الرحمن . . » !

لقد انتهت الآلام ، وانتهى الحب والوله ، ونضب العطش القديم ، وتقلصت الشفاه الملتهبة ، ومات الشباب !

والموت يذهب بالجمال ، وبالحب ، وبالمرض ، وبالألم . . إنه يذهب بكل شيء !

* * *

ورأيته وهو يُنزل به فى منزل ضيق ، خال حتى من الأحلام !

ومع ذلك لم أستطع أن أتصور أنه مات !

كان يعيش ، ولم يعد يعيش . . أصبح الآن لا شيء ! . . أصبح يرقد فى هذا القبر البارد . . فهل تأتى روحه وتحوم حول أحبابه ؟ !

إنى حينما أفكر فيه أحس أن روحه تحوم حولى ، وتحرك ذاكرتى !

كتب للمؤلف

السلّم الرخامىّ	(قصة طويلة)	نشر دار المعارف
هاتف من التاريخ	(مسرحية)	» » »
البجعات المتوحشات	(قصة للأطفال)	» » »
القدّاحة العجيبة	(» »)	» » »
الرفيق المجهول	(» »)	» » »
أليس فى بلاد العجائب	(» »)	» » »
الكرة الذهبية	(» »)	» » »
المرآة السحرية	(» »)	» » »
دموع القلب	(ديوان شعر)	نفد
المسيحية فى الإسلام	(للمثقفين)	»
مريم المجدلية	(مسرحية)	»
القيامة	(»)	»
الدنيا والآخرة	(للمثقفين)	»

تحت الطبع :

المنتظرون الثلاثة : الدجّال ، المهدى ، المسيح

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٤٤٤٩
مطابع دار المعارف بمصر — ١٩٧٥
١/٧٥/٢١٩

